الدعوة إلى

الفرح والألم

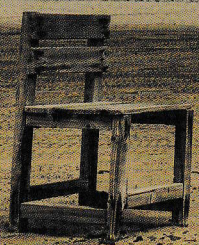

أجيث فرناندو

الدعوة إلى

الفرح والألم

٢٠٦٧٢ / تكيه
١ / ٥١٥
٠١٠ / ٠١٧

اجيب فرناندو

الدعوة إلى الفرح والألم

ترجمة: رمزي عيّاد عبّاد

أوفير
ophir

Originally published in English under the Title: "**The Call to Joy & Pain**".
Copyright © 2007 by Ajith Fernando. Published by Crossway Books a publishing ministry of Good News Publishers Wheaton, Illinois 60187, U.S.A.

Arabic Edition © 2010 by Ophir Printers & Publishers - Jongbloed bv. Middle East.
Published by arrangement with Good News Publishers.
All rights reserved.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photo-copy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

الدَّعوةُ إلى الفرح والألَم

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر
ص. ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+
فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١١/٤٢٥٢
ISBN 978-90-5950-1232

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إلى

دورين وِراسِنْها

سومَنْث ومانيل وِرَاسِنْها

رُوي وديلكَش پيريرا

وإلى ذِكرى

رونالد وِرَاسِنْها

فبسبب هؤلاء، صارت كلمة "أنْسِباء" مَصدرَ فَرَحٍ عظيمٍ لي لأنَّها تُذكِّرُني ببعض أفضل بَرَكات اللّه!

المحتويات

مُقدِّمة ١١

القسم الأوّل

الألَمُ والفرحُ عُنصران أساسيَّان في الحياة المسيحيَّة

١. سِمَتان أساسيَّتان للحياة المسيحيَّة ١٧

٢. كَنْزٌ مَنْسِيّ ٢٣

٣. نَوباتُ ابتهاج ٣١

٤. الرِّثاء ٣٧

٥. الإيمانُ والصَّبْر ٤٣

٦. التَّسليم ٥١

٧. لا تلذُّذَ في الألَم ٥٧

٨. بُقعَةٌ لاهوتيَّة عَمياء؟ ٦١

القسم الثّاني

الألَمُ يُقرِّبُنا من السيِّد المسيح

٩. شَركةُ الآلام ٦٩

١٠. التَّشَبُّه بالسيِّد المسيح ٧٥

١١. تَنقيةُ الدَّوافع ٨١

١٢. الخِزْيُ والكرامة ٨٥
١٣. اتِّحادُ المؤمن والسيِّد المسيح ٩١

القسم الثَّالث

آلامُنا تُساعدُ الكنيسة

١٤. الألَمُ ونُموُّ الكنيسة ٩٩
١٥. إعلانُ بشارة الإنجيل ١٠٥
١٦. مع النَّاس في خَندَقٍ واحد ١١١
١٧. كيف نعمِّقُ تأثيرَنا ١١٩
١٨. الألَمُ والمصداقيَّة ١٢٥
١٩. الالتزامُ يُولِّدُ التزامًا ١٣١
٢٠. تَجنُّبُ الالتزام وتَفادي الألَم ١٣٧
٢١. الالتزام والحياةُ المُفعَمة بالفرح ١٤٣

القسم الرَّابع

خُدَّامُ الكنيسة

٢٢. خُدَّامٌ ووُكلاء ١٥١
٢٣. الخدمةُ المُضحِّية تَنبعُ من النِّعمة ١٥٩
٢٤. نحن أغنياء! ١٦٧
٢٥. رجاءُ المجد ١٧٣
٢٦. يَسوع: رسالتُنا ١٧٩

٢٧. التَّلاميذُ يُصنَعون ولا يُولَدون ١٨٥
٢٨. التَّعبُ في إعداد التَّلاميذ ١٩٣
٢٩. هو يعطي القوَّة ٢٠١

تأمُّلٌ ختاميّ

٣٠. إحدى مُفارَقات الحياة المسيحيَّة ٢٠٩
الملاحظات ٢١٥

مُقدِّمة

الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لأَجْلِكُمْ، وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي لأَجْلِ جَسَدِهِ، الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ، الَّتِي صِرْتُ أَنَا خَادِمًا لَهَا، حَسَبَ تَدْبِيرِ اللهِ الْمُعْطَى لِي لأَجْلِكُمْ، لِتَتْمِيمِ كَلِمَةِ اللهِ، السِّرِّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ وَمُنْذُ الأَجْيَالِ، لكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ لِقِدِّيسِيهِ، الَّذِينَ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ مَا هُوَ غِنَى مَجْدِ هذَا السِّرِّ فِي الأُمَمِ، الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ رَجَاءُ الْمَجْدِ. الَّذِي نُنَادِي بِهِ مُنْذِرِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، وَمُعَلِّمِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، بِكُلِّ حِكْمَةٍ، لِكَيْ نُحْضِرَ كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلاً فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. الأَمْرُ الَّذِي لأَجْلِهِ أَتْعَبُ أَيْضًا مُجَاهِدًا، بِحَسَبِ عَمَلِهِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيَّ بِقُوَّةٍ.

(كولوسّي ١: ٢٤-٢٩)

غالبًا ما يَتحدَّثُ الكتابُ المُقدَّس بشأن الألَم على أنَّه جُزءٌ لا يَتجزَّأ من الحياة المسيحيَّة. لذلك، من البديهيِّ أنْ تَرِدَ فكرةُ الألَم مرارًا وتَكرارًا في التَّفكير المسيحيِّ وأحاديث المسيحيِّين. لكنْ مع ما أفْرَزَه القرنُ الحادي والعشرون من رَفاهيَة وتَقَدُّم تكنولوجيّ، صارَ الكثيرون يَنظرون إلى الرَّاحة والتَّنعُّم وكأنَّهما حَقَّيْن أساسيَّين من حقوقهم كبَشر. وهكذا، فقد غَدَت الرِّسالة التي يَنقلُها إلينا الكتابُ المُقدَّس عن حَتْميَّة الصَّليب مُتعارِضةً ثقافيًّا مع طريقة تفكير الكثيرين في وقتنا الحاضر. لهذا، فإنَّ الحاجةَ إلى مزيدٍ من التأمُّل في هذا الموضوع هي حاجةٌ ماسَّةٌ لأنَّ بعض مُعلِّمي الكتاب المُقدَّس المعروفين يقولون إنَّ الله لا يريدُ لأولاده أن يَختبروا الألَم. كما أنَّ البعضَ يقولُ إنَّه حيث إنَّ السيِّدَ المسيحَ حَمَلَ اللَّعنَةَ عَنَّا، فلا مُبَرِّرَ لأنْ نَحملَ هذا الجُزء من اللَّعْنَة- أي الألَم- بعد أن مات السيِّد

المسيح. وهذا- بدَوره- يَعني أنَّه إنْ كُنَّا نُعاني ونتألَّم نحن المؤمنين، فلا بُدَّ من وجود خَطْبٍ عَظيم (أو خَطيَّةٍ) في حياتنا!

لقد تَطَرَّقتُ إلى موضوع الألَم في غالبيَّة كُتُبي. لكنِّي شَعَرْتُ- وهذا ما أكَّدَه الكثيرُ منْ أصدقائي- بأنَّه ينبغي لي أنْ أخصِّصَ كتابًا كاملًا للحديث بهذا الموضوع. وكم شعرْتُ بالامْتنان للفُرصة التي أُتيحت لي لتَخصيص بعض الوقت والاهتمام لهذا الأمر عَقِبَ دَعْوَةٍ تَلَقَّيتُها منْ "جون پايپر" (John Piper) لإلقاء بعض العِظات في مؤتمر بَيْت لَحْم لِرُعاة الكنائس والذي عُقِدَ في الفترة من يناير/كانون الثَّاني إلى فبراير/شباط عام ٢٠٠٦ حول "كيف يجب على راعي الكنيسة أنْ يَموت؟" وعندما عَلِمَ الدكتور "لاين دَنيس" (Lane Dennis) و"آل فيشر" (Al Fisher) من دار "كروس واي" (Crossway) للنَّشر بأنِّي سأُقَدِّم هذه العظات، اقترحا عَلَيَّ أنْ أُعيدَ صياغَتها على شكل كتاب. وكما هي الحالُ دائمًا، فإنَّه لَفَرَحٌ عَظيم أنْ أعملَ مع فريق العاملين في دار "كروس واي"، وأن أستفيدَ مَرَّةً أخرى من خِبرة "تيد غريفين" (Ted Griffin) الواسعة في التَّحرير.

ومُنذ انعقاد مؤتمر بَيْت لَحْم لِرُعاة الكنائس، أُتيحَت لي فُرصةُ التكلُّم بموضوع هذا الكتاب في أماكنَ عَديدة. وكانت أكثر تَجربةٍ مُؤثِّرة بالنسبة إليَّ هي تعليم مجموعةٍ من الوُعَّاظ في كمبوديا في إطار بَرنامَجٍ للخدمة يُعْرَفُ باسْم "تيموثز أول" (Timothy's All). كان الكثيرُ من هؤلاء المُعلِّمين قد عانوا في أثناء سنوات الإبادة الجماعيَّة التي أُطْلِقَ عليها لاحقًا اسم "حُقول القَتْل" في ظِلِّ نظام حُكْم "الخَمير الحُمْر" (Khmer Rouge) بقيادة پول پوت (Pol Pot). ويبدو أنَّ مادَّةَ عِظاتي ساعدَتْهم في تَحليل التَّجربة التي مَرُّوا بها من وجهة نظر الكتاب المقدَّس. كانتْ أوقاتُ النِّقاش في تلك المُناسبة مُكَثَّفة جدًّا حتَّى إنَّنا اضطُرِرْنا إلى تغيير جَدوَل المحاضرات. وقد تَنازل أحدُ المُتَكلِّمين- مَشْكورًا- عن مُحاضرته لكي يُفْسحَ لنا المجال لاستكمال النِّقاش. والغَريب في الأمر هو أنَّه حتَّى في كمبوديا، فإنَّ التَّعليم بأنَّ المؤمنين يجب ألَّا يُعانوا بتاتًا كان تعليمًا شائعًا وواسعَ الانتشار!

كان أحدُ القرارات الأولى التي اتَّخَذْتُها في أثناء تحضيري لمؤتمر بَيْت لَحْم هو أنْ أنْهَجَ نَهْجَ الكتاب المقدَّس في عدم التحدُّث بشأن الألَم دون التحدُّث- في الوقت نفسه- بشأن البَرَكاتِ المُصاحِبَة لَه. فالفَرَحُ هو بَرَكَةٌ من البَرَكات المُصاحِبَة للألَم عادَةً في العهد الجديد. والمقطعُ الكتابيُّ الذي اتَّخَذْتُه قاعدَةً للانطلاق- وأعني كولوسِّي١: ٢٤-٢٩- يَذْكُرُ الألَمَ والفرحَ مَعًا. وهكذا، فقد عَقَدْتُ العَزْمَ على دراسة الفرح والألَم. وسنُبيِّن في هذا الكتاب أنَّ الخطأَ والخطرَ لا يَكْمُنان في تَعَرُّض المُؤمنين للألم، بل في عدم اختبارِهم لِفَرَح الرَّبّ.

إنَّ الكتاب المقدَّس بَريءٌ ممَّا يَدَّعيه البعض بأنَّ الألم هو النتيجة الحَتْميَّة الوَحيدة لحَمْل الصَّليب. فالموقفُ السَّائد في الكتاب المُقدَّس في ما يتعلَّق بالألَم والمُعاناة في حياة المؤمن هو موقفٌ إيجابيّ. وحتَّى في سِفْر الرُّؤيا، فإنَّ حقيقةَ الاضطهاد والاستشهاد تَقترن دَومًا بفكرة أنَّ الأُمناء سيُكافأون في السَّماء، فيما سيُدانُ الأشرار.

إنَّ ما أرجوه من أعماق قلبي هو أن يكونَ هذا الكتاب مُعينًا للمؤمنين على النَّظَر إلى الألَم كشيءٍ ينبغي تَقبُّله، بل ربَّما مُعانَقتُه؛ لأنَّ الربَّ الإله شاءَ أنْ يُجيزَهُم في هذه الآلام. وهذا لا يَعني بتاتًا أنَّه ينبغي لنا أنْ نَجْلِبَ الألَم على أنفُسنا؛ لكنْ عندما يأتي الألَم، يجب أنْ نكونَ قادرين على النَّظر إليه بعَيْن الإيمان. فمن دون هذه النظرة إلى الألَم، لن نتمكَّنَ يومًا من اختبار الفرح الذي يَصفُه الكتاب المقدَّس بأنَّه جُزءٌ لا يتجزَّأ من الحياة المسيحيَّة. وقد أصابَ المُرسَلُ الأمريكيُّ إلى الهنْد "إي. ستانلي جونز" (E. Stanley Jones) حينَ وَصَفَ هذا الموقفَ بقَوْله: "لا تُضِعْ وَقْتَكَ وطاقَتَكَ باطلًا في احتمال المُشكلة، بل في اسْتغلالها خَيْرَ اسْتغلال. انظرْ إلى كُلِّ ما يَحدُث- سواءٌ أَإنْصافًا كان الأمر أم إجحافًا، مَصْدَرَ سُرور أم أَلَمًا، إطْراءً أم انتقادًا- على أنَّه أداةٌ تُساعدُك في تحقيق قَصْد الله لحياتك. لذا، أَحْسِنِ استخدامَه وَحَوِّلْهُ إلى شَهادة".[١]

وفي وقتنا الحاضر، من الواضح أنَّ الكنيسةَ تُرَكِّز كثيرًا على مُعالجة الألَم؛

لكنَّها لا تُرَكِّز بالقَدْر الكافي على لاهوت الألَم الذي ينبغي أنْ يكونَ الأساسَ الذي يقوم عليه كُلُّ علاج للألَم. فمن دون لاهوتٍ سليم عن الألَم، سيَميلُ المؤمنون إلى تَجَنُّب الصَّليبِ والابتعاد عن دَعوتهم. كما أنَّهم سيَشعرون بالتَّعاسة- دُونَ مُبَرِّرٍ- حين يواجهون الألَم. غير أنِّي على يَقين بأنَّ هذا الكتاب سَيُساعد المؤمنين على النظر إلى المُعاناة نظْرَةً كتابيَّةً سليمةً ممَّا سيُعينُهم على أن يكونوا مُؤمنين فَرِحين ومُطيعين للربّ. ورُغم أنَّ الكتاب لا يَتناول جميع القضايا المُتعلِّقة بلاهوت الألَم والمُعاناة- ولا سيَّما سَبَبَ وجود الألَم في العالَم[٢]- فإنَّه يُحاولُ أنْ يُقَدِّم لاهوتًا مَسيحيًّا عَمليًّا للألَم. وقد عَرَضْتُ مادَّة الكتاب في ثلاثين فَصلًا قَصيرًا لكي يَتمكَّن القارئ من استخدامها كتأمُّلاتٍ كِتابيَّةٍ على مَدى شَهْرٍ بأكمله.

وبمُناسبة الذِّكرى الثلاثين لزواجنا، أوَدُّ أنْ أُعَبِّر عن عَظيم امْتناني لله لأجل زوجتي "نيلون" (Nelun). فقد أعانَها حُبُّها لله على احْتمال كُلِّ الآلام المُتَرتِّبة عن زواجها من خادم للربِّ لديه دَعْوَةٌ تَجعلُ حَياتها شاقَّة. كما أنِّي أَشْكُر الله عليها لأنَّها احتَمَلت الكَثير من ضَعْفي الذي كثيرًا ما كان يتطلَّبُ قَدْرًا هائلًا من الصَّبْر وطُولِ الأناة. وأخيرًا، فإنِّي أشكرُها على قِراءتها لمُسَوَّدة هذا الكتاب، وعلى إبدائِها للعديد من الاقتراحات القَيِّمة.

القسم الأوَّل

الألَمُ والفرحُ عُنصران أساسيَّان في الحياة المسيحيَّة

"الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لأَجْلِكُمْ".

كولوسّي ١: ٢٤

الفصل الأوَّل

سِمَتان أساسيَّتان للحياة المسيحيَّة

بعدَ مَوت زوجته، ألَّفَ "پول تورنييه" (Paul Tournier)، الذي يُعَدُّ مُؤسِّسَ المشورة المسيحيَّة المُعاصرة، كتابًا بعنوان "المُعاناة الخَلاَّقة" (Creative Suffering) بَيَّن فيه أنَّ الألَمَ يمكنُ أنْ يكونَ دافعًا لمزيدٍ من الخَلْق والإبداع. وهو يَتحدَّث في هذا الكتاب بشأن الحُزن الذي اخْتَبرَه عند مَوت أبيه وهو في سنِّ الثانية، وَحُزنه لموت أمِّه وهو في سنِّ الخامسة، وحُزنه أيضًا على فُراق زوجته. وهو يقول: "القلب البشريُّ لا يَخْضَعُ لمبادئ عِلْم المنطق. فالأمْر في جوهره يَنطوي على تَناقُض عجيب. ففي حين أنَّه يُمكنني أنْ أقولَ بِصِدْقٍ إنِّي رَجُلٌ حزينٌ جدًّا، يُمكنني أنْ أقول أيضًا إنِّي سعيد!"[١]

إنَّ هذه الكلمات التي خَطَّها "تورنييه" تَضَعُ نُصبَ أعيُننا المُقدِّمة المنطقيَّة الرئيسيَّة لهذا الكتاب. فالألَم والفرحُ سِمَتان أساسيَّتان للحياة المسيحيَّة.

ونُلاحظُ أنَّ كلمات الرَّسول بولُس التي اقتبسناها في بداية هذا القسْم، والتي سنَستخدمُها كأساس لهذا الكتاب (كولوسّي ١: ٢٤) تُؤكّدُ المبدأَ نفسَه حيث يقول بولُس: "الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لأَجْلِكُمْ".

الدَّعوة إلى الفَرَح

لقد أكَّدَ المُفكِّرون المسيحيُّون العُظماء، من أمثال "سي. أس. لويس" (C. S. Lewis) و"جون پايپر"، بأنَّ الفَرَح ربَّما يكون الصِّفَةَ الرئيسيَّة التي تُميِّز المؤمن. وقد لا يُدركُ الكثيرون منَّا أنَّ العهدَ القديمَ يتحدَّث كثيرًا بشأن الفرح. فهناك ثَلاثٌ وعشرونَ كلمةً مختلفةً في اللُّغة العبريَّة تُعَبِّر عن الفَرَح في العهد القديم. وقد قَرأتُ في أحد الكُتب أنَّ اللُّغة العبريَّة تَحتوي على أكبر عَدَد من المُفردات التي تَصفُ الفرح. ففي آيَتَين فقط من سِفْر صفنيا (٣: ١٤ و١٧)، نَجِدُ سَبْعَ كلماتٍ مُختلفةٍ تُعَبِّر عن الفرح (في النَّصِّ العبريِّ)!

يَحتوي العهدُ القديم على العديد من الآيات التي تدعو النَّاسَ إلى الفرح وتُوصيهم بذلك. وقد استخدَمتُ فهرسَ الكتاب المقدَّس الإلكترونيَّ باللُّغة الإنكليزيَّة لِتَتَبُّع استخدام كلمة "افْرَحوا" (rejoice) في العهد القديم فعَثَرْتُ على واحد وثمانينَ شاهدًا كتابيًّا. وقد تَصَدَّرَ سفر المزامير القائمةَ بواحد وثلاثينَ شاهداً، ثُمَّ تلاهُ سفرُ إشعياء بثلاثة عشر شاهدًا، ثُمَّ سِفْرُ التثنية بعشرة شواهد. كما أنَّ العبادةَ في العهد القديم اشتَمَلَتْ على آلاتٍ موسيقيَّة تَصْلُحُ- بصورة خاصَّة- للتَّعبير عن الفرح، مثل الصُّنوج. ولا يَفوتُنا أن نذكُرَ تَشجيعَ المُؤمنين على التَّصفيق بالأيادي للتَّعبير عن فرحهم وابتهاجهم (المزمور ٤٧: ١). ويذكرُ سِفْرُ المزامير هُتاف الفرح اثنتَي عشرةَ مَرَّة، والتَّرَنُّم سبعًا وثمانين مرَّة. وكما نَعلَمُ جميعنا فإنَّ التَّرَنُّم هو تَعبيرٌ عن الفَرَح في أغلب الأحيان. لهذا، فإنَّ كَلمتَي "تَرَنُّم" و"فرح" تَردان معًا ثلاثَ عشرةَ مَرَّةً في سِفْر المزامير. وهناك أيضًا الأعيادُ المُتعاقبة في التقويم اليهوديّ. وفي العادة، فإنَّ الأعيادَ هي مُناسباتٌ مُخَصَّصةٌ للتَّعبير عن

الفرح. في ضَوء هذا كُلِّه، من الواضح أنَّ الفرحَ والتَّعبير عنه يَحتَلّان مكانةً مُهمَّةً في العهد القديم.

والأمرُ نَفْسُه يَنطبِقُ على العهد الجديد أيضًا. فقد قالَ الملاكُ للرُّعاة إنَّه جاء ليُبَشِّرَهم بولادة يسوع، وإنَّ هذه البُشرى ستكون مَصْدَرَ "فرح عظيم... لجميع الشَّعْب" (لوقا ٢: ١٠). ثُمَّ نَقرأُ أنَّ الرُّعاة رجعوا "وَهُمْ يُمَجِّدونَ اللهَ وَيُسَبِّحُونَه على كُلِّ مَا سَمِعُوهُ وَرَأَوْهُ" (لوقا ٢: ٢٠). كذلك، فقد استَخدمَ البَشيرُ مَتَّى أسلوبًا توكيديًّا لوَصْف رَدِّ فعْل المَجوس لدى رؤيتهم للنَّجْم الذي أشارَ إلى مكان ولادة الطفل يَسوع فقال: "فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا" (مَتَّى ٢: ١٠).

وحيث إنَّ اختبارَ الخلاص يَزدادُ وضوحًا حالَ انتقالنا من العهد القديم إلى العهد الجديد، فمن الجَليِّ تمامًا أنَّ فرحَ الخلاص يتبوَّأُ مكانةً بارزةً في الكتاب المُقدَّس. ويُمكنُنا أن نَرى ذلك في الأمثال الثلاثة التي ضربَها يسوع عن الخلاص في الأصحاح الخامس عشر من إنجيل لوقا. فقد رافَقَ العثورَ على الخروف الضَّائع، والدِّرهم المفقود، والابن الضَّال فَرَحٌ عَظيمٌ وأجواءٌ احتفاليَّة (لوقا ١٥: ٦-٧، ٩-١٠، ٢٠-٢٤). ومن وجهة نظري الشخصيَّة، فإنَّ وَصْفَ الأبِ الثَّري العجوز وهو يَرتدي عَباءَةً طويلةً ويَفعل شيئًا غير مُتوقَّع بتاتًا من شخصٍ مِثله في ذلك الزمان- حين ركضَ أمامَ الناس وعانَقَ ابنه العائد وقبَّلَه بحرارة- هو من أكثر المقاطع المُؤثِّرة في الكتاب المُقدَّس بأكمله. لكنَّ الأمر لا يَتوقَّف عند هذا الحَدّ. فقد جمعَ الأبُ الأهلَ والأصدقاءَ حيثُ احتفلوا معًا بالعَزْف والرَّقص.

كذلك، كان أعضاءُ الكنيسة الأولى في أورُشليم يجتمعون معًا في بيوتهم ويَتناولون الطعام "بِابْتِهَاجٍ وَبَسَاطَةِ قَلْبٍ" (أعمال الرُّسُل ٢: ٤٦). وحين خَلُصَ أهلُ إحدى مُدُن السَّامرة "كَانَ فَرَحٌ عَظِيمٌ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ" (أعمال ٨: ٨). وفي وقتٍ لاحق، نرى الرسولَ بولُس يأتي على ذِكْر الفرحِ بعدَ المحبَّة في قائمة ثَمَر الرُّوح القُدُس (غلاطيَّة ٥: ٢٢). وعندما كتبَ الرسولُ بولُس من غَياهب السِّجْن في فيلبِّي، أوصى المؤمنين لا أنْ يَفْرَحوا فَحَسْب، بَلْ أنْ يَفْرَحوا فَرَحًا مُضاعَفًا:

"افْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ، وَأَقُولُ أَيْضًا: افْرَحُوا" (فيلبِّي ٤: ٤). وبعدَ أن بَيَّنَ الرَّسول بولُس موقفَهُ من الخلاف الذي نشأ بين المؤمنين بشأن الأكل ممَّا ذُبحَ للأوثان، فقد نَبَّرَ على جانب يَفوقُ ذلك أهمِّيَّةً فقال: "لأَنْ لَيْسَ مَلَكُوتُ اللهِ أَكْلًا وَشُرْبًا، بَلْ هُوَ بِرٌّ وَسَلاَمٌ وَفَرَحٌ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ" (رُومية ١٤: ١٧).

إنَّ الخلاصَ هو نعمَةٌ رائعةٌ إلى أقصى الحُدود حتَّى إنَّه بإمكاننا دومًا أنْ نَجِدَ سَبَبًا للفَرح رُغم كُلِّ الآلام والضِّيقات التي قد نَمُرُّ بها. ومن الأمثلة الحيَّة على ذلك عاملُ مَناجِمَ اسمه "بيلي براي" (Billy Bray) وعاش في الفترة ما بين (١٧٩٤-١٨٦٨)، وهو من مدينة كورنوول (Cornwall) في إنكلترا. كان بيلي سِكِّيرًا وفاسدًا أخلاقيًّا قبلَ أنْ يصيرَ واحدًا من أعظم وُعَّاظ الكنيسة الميثوديَّة في القرن التاسع عشر. فهو لَم يتمكَّن يومًا من إخفاء فَرَحه النَّاشئ عن معرفته بأنَّ الله قد خَلَّصه وجعلَه "ابن ملك الملوك ورَبِّ الأرْباب". لهذا، فقد كانتْ حياتُه تتمَحْوَر حول شيءٍ واحد لا يَعرفُ السُّكونَ وهو تَسبيحُ الله من قَلْبٍ يَفيضُ بالفَرَح. فقد كان يَشْعُرُ بأنَّ فَرَحَ الخلاص يَتَدَفَّق منه تَدَفُّقًا يَعْجَزُ عن كَبْحه. وقد قال ذاتَ مَرَّة: "لا أُنكرُ أنِّي أرقُصُ أحيانًا. وهل هناك ما يَمْنَعني من أنْ أرقصَ كما رقصَ داود؟ قد تقولون إنَّ داود كان ملكًا. حَسَنًا، مُبارَكٌ الربُّ! وأنا ابْنُ الملك! لذلك، فأنا أملكُ الحقَّ نفسَه في أن أرقُصَ كما رقصَ داود. مُبارَكٌ الربُّ! ففي كثير من الأحيان أشعر بفرحٍ عظيم حين يَملأُ حُضورَ الله كِياني؛ وهذا يَدفعُني أنا أيضًا إلى الرَّقص!"[٢٢]

من الجليِّ أنَّ الفرحَ كان في نظر بيلي براي سمَةً رئيسيَّةً للحياة المسيحيَّة. ورُغم أنَّ العملَ في المناجم كان مَحفوفًا بالخطر؛ وأنَّ احتماليَّة الموت في جَوْف المَنْجَم كانت قائمةً في كُلِّ الأوقات، فإنَّه كان يقول لرُفقائه العاملين إنَّه ينبغي لَهم أنْ يُصَلُّوا قبل نزولهم إلى المنجَم. وحين كانوا يَطلبون منه أنْ يُصلِّي، كان يُصلِّي قائلًا: "يا رَبُّ، إنْ كان لا بُدَّ مِنْ مَوت شَخْص ما اليوم، فليَكُنْ هذا الشَّخصُ أنا. أرجوكَ ألَّا تَسْمَحَ لأيٍّ من هؤلاء الرِّجال أنْ يَموتَ لأنَّهم لَم يَختبروا الفرحَ بَعدُ. أمَّا أنا فَاختبرتُه، وإنْ مُتُّ اليومَ فسأذهبُ إلى السَّماء". وقد قال بيلي: "عندما

كنتُ أَخْتِمُ صلاتي وأنهضُ واقفًا، كُنت أرى الدُّموعَ وهي تَنْهَمِرُ على وُجوه هؤلاء الرِّجال. وبعدَ فترةٍ قصيرة، صارَ البعض منهم رِجالَ صَلاةٍ أيضًا"[٣]. وهكذا، من السَّهل علينا أنْ نَنْشغلَ بالأمور اللَّاهوتيَّة العَويصة وأنْ نَنسى فرحَ الخَلاص الذي تتحدَّث بشأنه كلمةُ الله.

الدَّعوةُ إلى الألَم

سنَقضي وقتًا لا بأس به في هذا الكتاب في التأمُّل في النُّصوص التي تُقَدِّم الدَّعوة إلى الألَم والمعاناة. ولْأوضِحْ- ببساطة مُتَناهية- أنَّ هذا أيضًا هو جانبٌ أساسيٌّ من جوانب الحياة المسيحيَّة. فقد كانَتْ دَعْوةُ يسوعَ الجوهريَّةَ لاتِّباعه هي دعوةً للألَم أيضًا: "إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي" (مَتَّى ١٦: ٢٤). وعندما نَطَقَ يسوعُ بهذه الكلمات، من المؤكَّد أنَّ سامعيه عَرَفوا أنَّه كان يَتَحَدَّث بشأن آلام مُبرِّحَة لأنَّهم كانوا على درايَة بأنَّ الصَّلْبَ كان وَسيلةً قاسيةً ومُؤلمةً للإعدام. وقد قال لنا يسوع: "فِي الْعالَم سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ" (يوحنَّا ١٦: ٣٣). كما أنَّ الرَّسولَ بولُس قال: "وَجَمِيعُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعِيشُوا بِالتَّقْوَى فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ يُضْطَهَدُونَ" (٢تيموثاوس ٣: ١٢).

لم يَكُنْ يسوعُ يُريدُ من الناس أنْ يَتبَعوه دون أنْ يَحْسِبوا نَفَقَة اتِّباعهم له. لذلك، فقد راعى دومًا ذِكْرَ ثَمَنِ تَبَعيَّته في دعوته الأساسيَّة إلى التَّلمذة. وعندما كان البعضُ يَتطَوَّعون لاتِّباعه، كان يُطْلعُهُم على تَكلُفة ذلك من طريق تَذكيرهم بِمَواطِن الضَّعف لديهم (لوقا ٩: ٥٧-٦٢). ورغم أنَّ إنجيلَ لوقا لا يُطْلعُنا على قرارات الأشخاص الثلاثة الذين تَطَوَّعوا لاتِّباع يسوعَ في هذا المقطع الكتابيِّ، فإنَّ من المُرَجَّحُ أنَّهم لم يَتْبَعوه. كذلك، فنحن نَعرف يَقينًا أنَّ الشَّابَّ الغنيَّ لم يتبَعْ يسوعَ لأنَّه أدرَكَ أنَّ كُلْفَة اتِّباعه هي فوق استعداده (متَّى ١٩: ١٦-٢٢). ويُمْكنُنا أن نَرى في هذين المقطعَين الكتابيَّين أنَّ النَّهجَ الكرازيَّ الذي اتَّبعَه يسوعُ يختلف اختلافًا جذريًّا عن الكثير من الأساليبِ الكرازيَّة المعاصرة.

عُنصران مُتلازمان

من الأمور المُدهشة بشأن العهد الجديد هو أنَّ المُعاناةَ لا تَرِدُ- في أغلب الأحيان- دونَ ذِكْر البَرَكات المُصاحبة لها. وغالبًا ما تكونُ البركة الرئيسيَّة المُرافقةُ للألَم هي الفرح. وقد تَمَكَّنْتُ من العثور على ثمانية عشر مَوضعًا في العهد الجديد وَرَدَتْ فيه كَلِمَتا الألَم والفرح معًا. أمَّا المواضعُ التي عَثَرْتُ فيها على تلكَ الآياتِ التي تُبَيِّن الصِّلَة بين الألَم والفَرَح فهي: الأناجيل، وأعمال الرُّسُل، والرَّسائل. عَلاوةً على ذلك، فنحنُ نَعْلَمُ أنَّه رُغمَ أنَّ سِفْرَ الرُّؤيا لا يَذْكُر هذه الصِّلَةَ صَراحةً، فإنَّها مُتَضَمَّنةٌ فيه.

وهكذا، في ضوء ما يُعَلِّمه الكتابُ المُقدَّس، يُمكن للفرح والألَم أن يوجَدا معًا. لذلك، يجبُ على المؤمنين ألَّا يتكلَّموا بشأن الألَم ما لَم يَتكلَّموا أيضًا بشأن الفرحِ المُصاحِب له. فالفرحُ هو الذي يَجعَلُ الصَّليبَ جديرًا بالمُعاناة لأنَّه (أي الفرحَ) هو الذي يُعطينا القُدرة على احتمال الألَم. وكما قال نحميا: "لأنَّ فرحَ الرَّبِّ هو قُوَّتُكُمْ" (نحميا ٨: ١٠).

ذاتَ مرَّة، سَمِعْتُ "ديڤيد سيتون" (David Sitton)، مُؤسِّسَ الهيئة الإرساليَّة المعروفة باسْم "إلى كُلِّ قَبيلة" (To Every Tribe Mission)، يقول إنَّه عندما كان في سنِّ المُراهقة، سمعَ مُرسَلًا في التِّسعين من عُمره يتحدَّث في اجتماع للشَّباب في كنيسته. عندما بدأ ذلك المُرسَلُ حديثَه، ظَلَّ يُرَدِّدُ الجُملةَ نفسَها المَرَّة تلوَ الأخرى قائلًا: "أريدُكم أن تتذكَّروا هذا. لا بأسَ أن تَنسَوا كلَّ شيءٍ آخر، لكنْ لا تَنسوا هذا". وقد ظَلَّ يُرَدِّد هذه الجُملة لمُدَّة خمس دقائق تقريبًا حتَّى إنَّ الشبابَ ضَجروا وتَمَنَّوا لو أنَّه يَنطقُ بذلك الشيء. وأخيرًا، نطقَ المُرسَلُ بذلك الشيء قائلًا: "فرحُ الرَّبِّ هُوَ قُوَّتُكم. فإنْ تَلاشى الفرح، تَلاشَتِ القوَّة". وبعد أن نَطَقَ بتلك الكلمات، رَجعَ إلى مكانه وجَلَس!

وهذه هي الفكرة الرئيسيَّة التي يُرَكِّز عليها هذا الكتاب. فالفرحُ والألَمُ سِمَتان رئيسيَّتان للحياة المسيحيَّة. فوُجودُهما معًا هو أمْرٌ وارِد؛ بل حتميٌّ أيضًا!

الفصل الثّاني

كَنْزُ مَنْسِيّ

ظَلَلْتُ لسنواتٍ عَديدة أعتقدُ أنَّ الفرحَ النَّاشئَ عن الخَلاص هو أحدُ الأشياء الأكثر جاذبيَّةً في المسيحيَّة. أمَّا الآن، فقد صرتُ مُتشكِّكًا في ذلك؛ لأنّي أُدركُ أنَّ لدى كثيرين الاستعدادَ للتَّضحية بالفرح في سبيل الحصول على بعضِ الأشياء الأخرى التي يعتقدون أنَّها ضروريَّة لحياتهم.

الرِّضى مُقابل الفرح

يبدو أنَّ الناسَ لا يَعرفون طَعْمَ الفرح الحَقيقيّ! ويبدو أيضًا أنَّهم يُفضِّلون النجاح على الصَّعيد الرياضيّ، أو المِهْنيّ، أو العاطفيّ، أو الماديّ، أو حتَّى نَجاح خُطَّتهم في الانتقام من شخصٍ آذاهم.

ففي سريلانكا، يُعدُّ التَّشجيعُ على الانتقام من أكبر التحدِّيات التي نواجِهُها

في خدمتنا بين الأشخاص الذين قَبلوا يسوع من خَلفيَّات دينيَّة أخرى. فالشيءُ المُتوقَّع من النَّاس هنا هو الانتقامُ من أيِّ شخصٍ يُلْحقُ الإهانةَ بعائلاتهم. وفي حال عدم انتقامهم، فإنَّ نظَرات الازدراء تُلاحقُهم حاسبةً أنَّهم جُبناءُ أو أنَّهم قد لَطَّخوا شرفَ العائلة! وغالبًا ما نَرى القادةَ يَضغَطون بقوَّة ليُبَرهنوا أنَّهم على صواب، وأنَّ الهيئاتِ المسيحيَّةَ أو الكنائسَ على خطإٍ في اعتراضها على تلك النَّصيحة. فما نَلمَسُه هنا هو أنَّ المؤمنين الذين تَعَرَّضوا للإساءة من مؤمنٍ آخر يبذلون كلَّ جَهدٍ مُمكنٍ لفَضْح الشخص الذي أساءَ إليهم. وقد تؤدِّي مثل هذه السلوكيَّات إلى حرمانِهم من الفرح وإضْرام نارِ الغَضَب في قلوبهم. غير أنَّهم يواجهون صُعوبةً حقيقيَّةً في مُقاوَمةِ رغبتهم في الحصول على ذلك الرِّضى النَّاشئ عن رَدِّ الإساءة بمِثْلها.

وربَّما كان الإدمانُ هو الشكلَ الأكثرَ تَطَرُّفًا في هذا السَّعي نحو الحصول على الرِّضى على حساب الفرح. فرُغم أنَّ النَّاس يَعرفون أنَّ المُخدِّرات أو الصُّوَر الإباحيَّة أو المُقامَرة ستَسلبُهم فرحَهم وفرحَ أولئك الذين يُحبُّونَهم، فإنَّهم يَجِدون أنفسَهم أضعفَ من أن يَعيشوا بدون تلك العادة. لذلك، فَهُم يُضَحُّون بالكثير في سبيل الحصول على القليل من الإثارة. لكنَّ الرِّضى الناشئ عن الحصول على ما يُريدونَه هو أهمُّ جدًّا بالنسبة إليهم من سَعادتهم.

في رأيي، إنَّ أحدَ أسباب ذلك يَرجعُ إلى أنَّ النَّاس لا يَعرفون رَوعةَ الفَرَح! ولأنَّهم لَم يَختَبروا ملْءَ الفرح، فإنَّهم يَرْضَون بسهولة بذلك الشُّعور الزَّائف بالرِّضى والذي يحصلونَ عليه من تلك الأنشطة الأخرى. وفي ضَوء ثقافتنا المُشبَعة بهَوَس المتعة، يجب علينا أنْ نُصغيَ إلى نداء ناظم المزمور الذي يقول: "ذُوقُوا وَانْظُرُوا مَا أَطْيَبَ الرَّبَّ! طُوبَى لِلرَّجُلِ المُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ!" (المزمور ٣٤: ٨).

ما المقصودُ بفرحِ الرَّبّ؟

يُمكننا أن نَصفَ الفرحَ المُتأتِّي من الإنجيل بأنَّه "فرحُ الرَّبِّ" (نحميا ٨: ١٠)، أو

بأنَّه فَرَحٌ "في الرَّبّ" (فيلبِّي ٤: ٤). وهذا الفرحُ يَقومُ على بعض الحقائق الرَّائعة التي تُدَعِّمُ حياتنا. فنحن:

- نُؤمنُ بالله.
- نُؤمنُ بأنَّ الله يُحبُّنا، وبأنَّه بَذَلَ ابنَه الوحيدَ لأجلنا.
- نُؤمنُ بأنَّ الله جعلَنا أولادَه، وبأنَّه يَعتني بنا، وبأنَّه معنا. وإنْ كان الله معنا، فمَن علينا!
- نُؤمنُ بأنَّ الله يَحيا فينا، وبأنَّه يُبْعدُ عنَّا الشُّعورَ بالوَحدة.
- نُؤمنُ بأنَّ الله يُحَوِّل الأشياءَ السيِّئة التي قد تَحْدُثُ لنا إلى أشياءَ لِخَيْرِنا.
- نُؤمنُ بأنَّ محبَّةَ الله لنا تفوقُ القَسْوةَ التي نَختبرُها في هذه الحياة، وبأنَّه قادرٌ على تَعزِيَتنا وشفاءِ مَشاعرنا الجَريحة.
- نُؤمنُ بأنَّ الله أعدَّ لنا ميراثًا سنَحصُلُ عليه في الحياة الأبديَّة. وهذا الميراثُ هو أروَعُ من أيِّ شيءٍ يُمكنُ أن يخطُر ببالنا.

إنَّ هذه الحقائقَ الرَّائعة وغيرَها هي الأساسُ الذي بَنَيْنا عليه حياتنا. فهي تمَهِّد الطَّريق إلى علاقة مَحَبَّة بالله. وفي حين أنَّ العلاقةَ هي- في جوهرها- علاقةُ مَحَبَّةٍ اختباريَّة، فإنَّ أساسَ علاقَتنا هو هذه القائمةُ من الحقائق الموضوعيَّة التي لا يَعْتَريها تَغيير. وهذا هو ما يَجعلُنا قادرين على التَّمَسُّك بها حين يبدو كلُّ شيءٍ من حولِنا مُحبِطًا.

"المحبَّةُ" هي أكثرُ الكلمات مَدْعاةً للسَّعادة في مُفرداتنا. عندما حانَ عيد مَولدي السَّنة الماضية، كُنتُ خارجَ البلاد. وحين عُدتُ إلى البيت في اللَّيل ودخلْتُ غُرفَتي، وَجَدتُ بطاقةَ مُعايَدةٍ كبيرةً على طاولتي. وكُنتُ قد اعتَدْتُ أن أكتُبَ عبارةً من تأليفي عند تقديم بطاقات أعياد الميلاد إلى أفراد عائلتي. أمَّا زوجَتي فكانت مُعتادة أن تشتريَ البطاقات الجاهزة- مع أنَّها كانَتْ

تقضي وقتًا طويلًا في البحث عن بطاقة تُعَبِّرُ عن المُناسبة. وعلى أيَّة حال، كانَتْ كلماتُ تلك البطاقة تَصِفُ علاقتَنا وَصْفًا جميلًا أبْهَجَ قلبي. جلسْتُ أتأمَّلُ في حقيقة أنَّه بعد مُرور ثلاثين سنة على زواجنا، ما زالَتْ زوجتي تُحِبُّني. وفجأةً، أدركْتُ أنَّ مَحَبَّة الله لي هي أعظمُ بما لا يُقاس. وإنْ كانَتْ مَحَبَّة الزَّوجة تَجْلِبُ كُلَّ هذا الفرح، فكَمْ بالحَري مَحَبَّةُ الله! وقد عبَّرَ داوُدُ عن ذلك بالكلمات التالية: "تُعَرِّفُني سَبيلَ الْحَيَاة. أَمَامَكَ شِبَعُ سُرُورٍ. في يَمِينِكَ نَعَمٌ إِلَى الأَبَدِ" (المزمور ١٦: ١١). وبالتَّأكيد، فإنَّ الخبرةَ الشخصيَّةَ التي يَصِفُها داوُد هنا هي ليسَتْ شُعورَنا الدائم، لكنَّها خبرَةٌ شخصيَّةٌ تابعةٌ من واقعٍ عميقٍ وراسخ يُدَعِّمُ حياتنا، وهو أنَّ الله القديرَ يُحِبُّنا ويَعتني بنا. لذلك، يُمكنُنا أنْ نقولَ مع حَبَقوق:

"فَمَعَ أَنَّهُ لاَ يُزْهِرُ التِّينُ، وَلاَ يَكُونُ حَمْلٌ فِي الْكُرُومِ. يَكْذِبُ عَمَلُ الزَّيْتُونَةِ، وَالْحُقُولُ لاَ تَصْنَعُ طَعَامًا. يَنْقَطِعُ الْغَنَمُ مِنَ الْحَظِيرَةِ، وَلاَ بَقَرَ فِي الْمَذَاوِدِ، فَإِنِّي أَبْتَهِجُ بِالرَّبِّ وَأَفْرَحُ بِإِلهِ خَلاَصِي".

(حَبَقُّوق ٣: ١٧-١٨).

ماتَ أعَزُّ صديقٍ لديَّ بالسَّرطان في عام ٢٠٠٥. وكان يُعاني من آلام مُبَرِّحة في آخر مَرَّة زُرتُه فيها في المُستشفى. كما أنَّه بدأ يَدخلُ في غَيبوبة شيئًا فشيئًا. ومن بين آخر الأشياء التي ذَكَرَها لي كان جُملةً قَرَأها في مَكان ما تقول: "لقد وصلتُ إلى أعمق حالات البؤس، لكنِّي وجدْتُ أنَّ صخْرَ الدُّهور (الله) صلبٌ!" ونقرأُ في سِفْر التَّثنية ٣٣: ٢٧ "الإِلهُ الْقَدِيمُ مَلْجَأٌ، وَالأَذْرُعُ الأَبَدِيَّةُ مِنْ تَحْتُ".

وهكذا، حتَّى عندما نَختبرُ خَيبةَ الأمل والألَم والضِّيق، فإنَّنا نَعلم أنَّ الله معنا وأنَّه وَعَدَنا بأنَّه سَيُحَوِّلُ هذه التَّجارِبَ القاسية إلى أشياءَ لخَيْرِنا. ومن شأن هذا أن يُطَمْئِنَنا كثيرًا في وسط الألَم.

في بداية زواجنا، اتَّفقْتُ أنا وزَوجَتي ألَّا نَنَامَ قبلَ تَسوية أيَّة خلافات بيننا. وفي السَّنوات الأولى من زواجنا، كُنَّا نخوض أحيانًا في "مُخاصَماتٍ وِدِّيَّة"[١]

تَدوم حتَّى مُنتصف اللَّيل. وما إنْ يَنتهي الخِلافُ حتَّى يبدوَ الأمرُ كُلُّه حُلوًا ومُمْتعًا. وفي بعض الأحيان، كنتُ أذهبُ إلى عملي في صَباح اليوم التالي بعَينَين مُحْمَرَّتين من جرَّاء قلَّة النَّوم. مع ذلك، كنتُ أشعر بحُرِّيَّة كبيرة نابعة من مَعرفتي بأنَّ الأمورَ على ما يُرام مع رَفيقة عُمري. وفي أثناء تلك المُجادَلات، كُنتُ قد دَرَّبتُ نفسي على الصَّلاة في قلبي في أثناء مُجادَلاتي مع زوجتي. وفي العادة، كانتْ صَلواتي تتألَّفُ من كلمات وعبارات كهذه: "أرجوك يا رَبّ! أنا أضْرَعُ إليكَ! من فَضلكَ يا رَبّ! ساعِدْني!"

ويا لَها من راحة أن نَعرفَ أنَّ الله موجودٌ معنا حين نَمرُّ بأزمَة ما! فهذا اليقينُ يُبَدِّدُ مخاوفَنا، ويَمنَحُنا رَجاءً بوُجود حَلّ، ويَحُولُ دُونَ تَصَرُّفنا بطَيْش. فمَع أنَّنا قد نَبكي من الدَّاخل، أو نتألَّمُ من الضَّربات التي تَلَقَّيناها، فإنَّنا نَعرفُ في أعماقنا أنَّ الله مَعَنا وأنَّه مَصدَرُ فَرَحنا. لهذا، فإنَّ أَسْعَدَ النَّاس في العالَم هم ليسوا أولئك الذين تَخْلُو حياتُهم من المُشكلات، بل أولئك الذين لا يَهابون المُشكلات.

الحُرِّيَّة الحَقيقيَّة

يا لَرَوعة الخلاص الذي وَهَبَنا الله إيَّاه! فنحن لَم نَعُد مُستَعْبَدين للخَوف. فاتِّكالُنا ليس قائمًا على خِبراتنا المُتَقَلِّبة، بل صارتْ حياتُنا قائمةً على حقائق لا تتزعْزَعُ تَجعَلُنا مُقْبلينَ على علاقة مَحَبَّة رائعة بإلهنا الذي ليس عنده تَغيير ولا ظلُّ دَوَران. لهذا، لا عجبَ أنَّ يسوع قال: "وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ" (يوحنَّا ٨: ٣٢). وهو يُتابع قائلًا في يوحنَّا ٨: ٣٦: "فَإِنْ حَرَّرَكُمُ الابْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَارًا".

يقولُ مُعتنقو الفلسفة العَصريَّة (Postmodernism) إنَّهم يريدون أن يَتَحَرَّروا من قَسوة الحَقيقة الموضوعيَّة التي يَرَوْنَ أنَّها حرمَت البَشرَ من اختبار الأشياء على حقيقتها. فَهُمْ يُريدون أن يُرَكِّزوا أكثرَ على الخِبرات الذاتيَّة التي تقودُهم إليها غَرائزُهم. ونحن لا نُنكر أولَويَّة الخبرة الشخصيَّة. بل إنَّنا نَقولُ- في حقيقة الأمر- إنَّ الخبرةَ الشخصيَّةَ هي شيءٌ جَوهريٌّ في الإيمانِ المسيحيّ. فإنْ تَرَكْنا انطباعًا

لدى النَّاس بأنَّ المسيحيَّة قائمةٌ بالكامل على مجموعةٍ من الآراء أو المُقترحات، فهذا يَعني أنَّنا أعطَيناهم فكرةً خاطئة. فالمسيحيَّةُ قائمةٌ على آراءٍ (أو بالأحرى أفكارٍ) مَوجودةٍ في الكتاب المُقدَّس. لكنَّ هذه الآراء تَفتحُ البابَ لخبراتٍ شخصيَّةٍ صادقة تمكّننا من قبول بَشريَّتنا قبولًا حقيقيًّا.

إنَّ تَجربتَنا الشخصيَّة ليسَتْ شيئًا يُمكنُ التنبُّؤ به على نَحْوٍ مُضْجِرٍ إلى الحَدِّ الذي يُمكن فيه لنُقَّادنا أن يقولوا، مرَّةً أخرى، إنَّها دليلٌ على أنَّنا لا نَتمتَّعُ بالحُرِّيَّة الحقيقيَّة. فالطُّرُق المختلفة التي يَهتَدي النَّاسُ بها إلى السيِّد المسيح، والاختباراتِ المُتنوِّعة التي يَحيَوْنَها تَكفي لإقناعنا بأنَّه ما من شيءٍ مُتوقَّع على نَحْوٍ مُضْجِرٍ في المَسيحيَّة. فمثلًا، يقول الكتاب المُقدَّس إنَّه عندما نَقبَل عطيَّةَ الرُّوح القُدُس، فإنَّ الله يُعطي كُلَّ مُؤمنٍ موهبةً خاصَّة. ويَستَخدمُ الرَّسول بولُس كلمتَين مُعبِّرتَين هُما: "قَاسِمًا" (١كورنثوس ١٢: ١١) و "قِياس" (أفسُس ٤: ٧) لإخبارنا بأنَّ الله يُعطي موهبةً أو أكثر لِكُلِّ مؤمن. وهذا يَعني أنَّ لِكُلِّ مُؤمنٍ مكانَه ودَورَه. على الرَّغم من ذلك، من البديهيِّ أنَّ أولئك الذين لا يَخْضَعون لرُبوبيَّة الله سيَقولون إنَّهم يُريدون أنْ يكونوا أحرارًا لكي يَتمَكَّنوا من انتقاء خبراتهم الشخصيَّة. أمَّا نحن فنقول إنَّ الحُرِّيَّة الحقيقيَّةَ هي أنْ يُعطيَنا الله ما هو لِخَيْرِنا.

إنَّ أحدَ الجوانب المُهمَلة في الدِّيانة الكتابيَّة التي اعتَنَقَها بعض المسيحيِّين بسبب التَّركيز المُعاصر على الخبرات الشخصيَّة هو أنَّ الله يُرْسِلُ إلينا أحيانًا تَجربةً تُمهِّد الطَّريقَ لقبول أمْرٍ ما. فمثلًا، لقد تَقبَّلَ الرَّسولُ بُطرس الرأيَ المُهِمَّ عن إزالة الحواجز بين اليهود والأُمم بعد أنْ اخْتَبَرَ رُؤيا مُعَيَّنة (أعمال الرسل ١٠). وهذا التدرُّج في الاختبار، والذي يُؤدِّي إلى قبول رأيٍ أو شيءٍ جديدٍ ما، هو شيءٌ حَدَثَ للعديد من الباحثين المسيحيِّين المُتَحرِّرين الذين غيَّروا مُعتقداتهم اللاهوتيَّةَ إلى قناعَةٍ كتابيَّةٍ أو إنجيليَّةٍ بعد أن مَرُّوا باخْتبارٍ شَخصيّ، أو بعد أن رَأوا إحدى المُعجزاتِ التي قام بها الله. ومن الأمثلة على ذلك "إيتا لينمان" (Etta Linnemann) التي كانَتْ أُستاذةً ليبراليَّةً للعهد الجديد في ألمانيا وتلميذةً

نَجيبَةً من تلاميذ الباحث المشهور "رودُلف بَلْتمان" (Rudolf Bultmann). فقد أَلَّفَتْ كتابًا يَحكي عن رحلتها من التَّشكيك في سُلطان الكتاب المُقدَّس إلى الإيمان به.[٢] ولكنْ حتَّى في مثل هذه الحالة، مع أنَّ المَرْء قد يَقبل الحقَّ من طريق اختباره الشخصي، فإنَّ الأفكارَ الكتابيَّةَ التي يَقبَلُها هي الأساس.

فالاختباراتُ الشخصيَّةُ التي يَمُرُّ بها المؤمنون هي أشياءُ غير مؤكَّدة ولا يُمكن الاعتمادُ عليها لأنَّها قائمةٌ على الظروف. أمَّا الحقيقةُ الكامنةُ وراءَ هذه الاختبارات فهي لا تَتغيَّر بتَغَيُّر الظروف. فاختبارُنا الشخصيُّ قائمٌ على حقائقَ ثابتةٍ تَقودُ إلى علاقةٍ مَحَبَّةٍ بالله الذي لا يَتغيَّر.

ويا له من خَبَرٍ سارٍّ في عالَمٍ يَتَّسمُ بعدم اليقين! وقد كتبَ "سي. أس. لِويس" في كتابه "تأمُّلات في المزامير" (Reflections on the Psalms)، مَقطَعًا جميلًا حول سَبَب ابتهاج ناظِمي المَزامير بناموس الربِّ. فالترجمةُ الإنكليزيَّة القياسيَّة للكتاب المُقدَّس (English Standard Version) تَذْكرُ اثنتا عَشرة مَرَّةً أنَّ ناظِمي المزامير ابتَهجوا بشريعة الله أو كلمته. ويقول لِويس إنَّ قُدرةَ النَّاس على التمتُّع بالنَّاموس بهذه الطريقة هي سِرٌّ يَستَعصي عليه فهمه![٣] فربَّما كان من السَّهل علينا أن نَتخيَّلَ الناسَ وهُمْ يَرتَعبونَ من النَّاموس، أو يُوَقِّرونه. ولكنْ كيف يُمكنُهم أن يَبتَهجوا به؟ وبعد أنْ يَغوصَ سي. أس. لِويس في هذا الأمر فإنَّه يَقول مُستَنتجًا: "إنَّ ابتهاجَهم بالنَّاموس هو ابتهاجٌ نابعٌ عن مُلامَستهم لشيءٍ راسخ لا يتزَعْزَع: الابتهاج نفسه الذي يَشعُر به المرءُ حين تَطَأُ قَدَماه أرضًا صلبةً بعد أنْ قادَتْه الطُّرُق المُختصرةُ إلى حُقولٍ موحِلَة".[٤]

وقد شَعرْتُ بهذا الأمر ذات مرَّة حين كنتُ أمشي مع بعض الأصدقاء في الجبال. فقد قَرَّرنا أن نَتَّبعَ طريقًا مُختصرًا فَضَلَلْنا طريقنا. وفي أثناء مَسيرنا رأينا رَوْثَ حيوان بَريٍّ متوحِّش فارْتَعَبْنا. لكنَّنا تابَعْنا السَّير في الاتِّجاه الذي اعتقدنا أنَّه سيُوصلنا إلى البلدة. وأخيرًا، وَصَلنا إلى طَريقٍ مُمَهَّدة. وكم كانَ ذلك مُريحًا ومُفرِحًا!

بهذا اليقين، وبهذه الثِّقة، فإنَّنا نَملكُ مُطْلَقَ الحُرِّيَّة في التمتُّع لا بالحياة فحسب، بَلْ بِمِلْءِ الحياة. فنحن نَعرف أنَّ كُلَّ الأشياء- بما في ذلك المشكلات- سَتَؤولُ في نهاية الأمر إلى أمرٍ صالحٍ لنا، وأنَّها ستكون أبوابًا تُفْضي إلى الفرح. ومن المُؤسف حَقًّا أنَّ الناسَ لا يَعرفونَ هذا الفرح. لهذا، فقد اكتَفَوا بالحصول على الحدِّ الأدنى الذي يُدعى "المُتعة" أو "إشباع النَّزوات". لَكنَّ هذه لَيسَت المُتعةَ الحقيقيَّة أو الشبعَ الحقيقيّ. فالكاتب سي. أس. لِويس يقول: "الفرح ليس بديلًا عن الجنس؛ بل إنَّ الجِنس غالبًا ما يكون بديلًا عن الفرح. وأنا أتساءل أحيانًا ما إذا كانَتْ المُتَعُ كُلُّها ليست بديلًا عن الفَرَح".[٥] وهكذا، فالمشكلةُ التي نُعاني منها هي أنَّنا نَرضى بأقَلِّ القليل.

إنَّ النُّقطةَ التي أثَرْناها في هذا الفَصْل هي أنَّ فرحَ الربِّ أعمق، وأجْدَرُ بالثِّقة، وأكثرُ إشباعًا من المُتَع العديدة التي يَسعى النَّاس إلى الحصول عليها بِمَعزلٍ عن الله.

الفصل الثّالث

نَوباتُ ابتهاج

أَحَدُ الجوانب المُهمَّة في التَّجارب الشخصيَّة المُتعاقبة هو ما يُمكنُنا أنْ نُسمِّيَه "نَوباتُ الابتهاج". فالنَّاسُ- بمُختلف فِئاتهم- يَختبرون ذلك بطُرُقٍ مُختلفة. فالبَعضُ يَنتظرون العُطلةَ الأسبوعيَّة بفارغ الصَّبر لكي يَحتَفلوا ويَمرَحوا. وفي بعض المُناسبات الخاصَّة- كما هي الحال عند انتهاء الامتحانات، أو عند نهاية الفصل الدراسيّ- فإنَّ بعضَ الشَّباب يُسْرِفونَ في تَناوُل المشروبات الكحوليَّة. فيما يَجِدُ البعضُ الآخر مُتعتَهم في الألعاب الرِّياضيَّة أو الهوايات- سواء أمِن خلال مشاهدتها أم المُشاركة فيها. وقد تَجْلِبُ الخِبراتُ الجنسيَّةُ المُختلفة بعضَ المُتعة لفئةٍ أخرى من النَّاس. ومع أنَّ بعضَ نَوباتِ الابتهاج قد تكون مُفيدةً لنا، كَما هي الحال عند مُمارسة الجنس مع شريك الحياة، أو سَماع الموسيقى، أو مُمارسةِ الألعاب الرياضيَّة، فإنَّ البعضَ الآخر ضَارّ!

والكتاب المقدَّس يُفْسحُ مَجالًا لنَوبات الابتهاج هذه. ففي الحياة المسيحيَّة، هناك إيقاعٌ للحياة تكونُ فيه لحظاتُ المُتعة أو السَّعادة الغامرة أشبَهَ بالتَّوابل التي تُضفي على الحياة اليوميَّة الرُّوتينيَّة طَعْمًا خَاصًّا ومَذاقًا لذيذًا. فالله وَهَبَنا قُدرةً على اختبار السَّعادة الغامرة؛ وهو يَتوقَّع منَّا أنْ نَستخدمَ قُدرتَنا هذه وأن نَستفيدَ منها!

ففي حياة الشخص المُتزوِّج، قد تَنْشَأ هذه السَّعادة الغامرة من العلاقة الجنسيَّة. فهي نَشْوَةٌ يُعَبِّرُ عنها من خلال الاتِّحاد الجسديِّ والفكريِّ وَالرُّوحيِّ الذي هو جُزءٌ لا يتجزَّأ من الحياة اليوميَّة للزَّوجَين. وقد أوصى العهد القديم الشعبَ العبرانيَّ بأن يَحتفلوا ببعض الأعياد في أوقاتٍ مُعيَّنة. ومن المُلاحَظ أنَّ المظاهرَ الاحتفاليَّةَ تُشَكِّلُ جُزءًا رئيسيًّا من بعض هذه الأعياد. وقد كان الاحتفالُ يَتعلَّقُ بتَسديد الله لاحتياجاتهم؛ وهي حقيقةٌ كانوا يَلمسونَها في كلِّ يوم من أيَّام حياتهم. ومع أنَّ تلك الأعياد كانت تَحتفلُ بتلك الحقيقة بطريقةٍ مُميَّزة، فإنَّنا لا نَستطيع القيامَ بذلك كلَّ يوم. فالأعيادُ والعلاقاتُ الجنسيَّةُ بين الأزواج ليست هي التي تُنشئُ الفرح؛ لكنَّها تُفْسحُ المجالَ للتَّعبير عن فرحٍ مَوجودٍ أصلًا. لهذا، فإنَّ الابتهاجَ المسيحيَّ هو عُنصرٌ مُعَزِّزٌ للفرح وليس بديلًا عنه.

كان في الهند خادمٌ إنجيليٌّ عظيم يُدعى "سادو سَندَر سِنْغ" (Sadhu Sundar Sing) وُلد في سنة ١٨٨٩م وتُوفِّيَ في سنة ١٩٢٩م. نشأ سَنْدَر سِنْغ في عائلة تَعتنقُ الديانة السِّيخيَّة. وعندما كان شابًّا، كان يذهبُ إلى الجبال للتأمُّل على طَريقة الهندوس والسِّيخ. "وقد بَرَعَ في اليوغا وصارَ قادرًا على الانفصال عن العالَم الخارجيِّ لفتراتٍ قصيرة. وفي تلك اللحظات، كان يَختبرُ بعضَ الفرح والسَّلام اللَّذين كانت رُوحُه تَتوق إليهما. لكنْ عندما كان يعودُ إلى حالة الوعي، كان يَغرَقُ- من جديد- في حالةٍ من القَلَق وعدم الرِّضى".[١] كان سَنْدَر سِنْغ يُعارضُ المسيحيَّة مُعارضةً شديدة؛ بل إنَّه كان يَدوسُ الكتابَ المُقدَّس بقدَمَيه ويَرشقُ منازلَ المُرْسَلين المسيحيِّين بالطِّين. لكنَّه كان، في أعماقه، يَبحثُ بشوقٍ بالغ عن الشانتي (Shanthi)- أي السَّلام!

وبعد أنْ أخفقَ سَنْدَر سِنْغ في العثور على السَّلام المَنشود، قَرَّر الانتحارَ من طريق الوقوف على سكَّة الحديد عند مرور القطار السَّريع بالقرب من بيته في الصَّباح الباكر. لكنْ قبل وقوفه على سكَّة الحديد، رَأى يَسوعَ المَسيح واهْتَدى إليه. وقد صار سَنْدَر سِنْغ كارزًا عظيمًا ومُعَلِّمًا بارعًا في ما يُمكنُنا أنْ نُسَمِّيَه "الانْضباطات الروحيَّة". حينئذٍ فقط، عَثَرَ على السَّلام الذي بَحَثَ عنه طويلًا من خلال التَّدريبات الروحيَّة غير المسيحيَّة. ومع أنَّه لَم يتوقَّفْ عن التأمُّل، فإنَّ تأمُّلاته صارتْ تَدورُ حولَ الله الذي كان يُرافقُه لا عندَ صُعوده إلى قمَّة الجبل فحسب، بل عند نُزوله من هناك أيضًا. وقد قال سَنْدَر سِنْغ ذاتَ مَرَّة: "من دون السيِّد المسيح، أنا مثل سمكةٍ خارج الماء. أمَّا معه، فأنا أسبَحُ في مُحيطٍ من المَحَبَّة". وهذا هو ما يفعلُه السيِّد المسيح مَعَنا. فهو لا يَكتفي بإعطائنا ابْتِهاجًا للَحظاتٍ قصيرةٍ فحسب، بل إنَّه يَبقى معنا، ويُعطينا سلامًا وفرحًا طوال حياتنا، وَيُشْبِعُ أعمقَ احتياجاتِ قلوبنا.

أنا أَخْدِمُ مع هيئة "شَباب للمَسيح" (Youth for Christ)؛ وهي هَيئةٌ مَسيحيَّةٌ تُعْنى بتَوفير أوقاتٍ مُفيدةٍ ومُمتعة للشَّباب. وغالبًا ما أقولُ إنَّنا جَادُّونَ بشأن هذه الأوقات المُمْتعَة التي نُوَفِّرُها لهم! وهذا النَّهْجُ نابعٌ من فَهْمنا الصَّحيح للَاهوت الابتهاج. فالله الذي أوجَدَ فينا هذه القُدرة على المَرَح هو الوحيدُ القادرُ على إبْهاج قلوبنا إلى أقصى الحُدود. لهذا، يُمكنُنا أن نَقولَ إنَّنا نَنظُرُ إلى الأوقات المُمتعة جدًّا كأنشطةٍ دينيَّة نقوم بها بِمَعيَّة الله.

وفي رأيي، فإنَّ أفضلَ مَثَلٍ على الابتهاج الضَّحْل وغير المُشْبع هو الطَّريقةُ التي يَحصُلُ فيها الكثيرون على المُتعة الجنسيَّة. أمَّا في المسيحيَّة، فإنَّ الجِنْس هو تَعبيرٌ صادقٌ عن الاتِّحاد الجسديِّ والعاطفيِّ والرُّوحيِّ بين الزَّوجَين. وبسبب ذلك، فهو يزدادُ عُمقًا ومُتعَةً بمرور الوقت. وفي وقتنا الحاضر، صارَ الجنس حاجةً بيولوجيَّةً لدى كثيرين. فَهُمْ يَنظرون إليه كحاجةٍ جسديَّةٍ ينبغي تَلْبيَتُها سواءٌ أمُتزوِّجين كانوا أم غيرَ مُتزوِّجين. بَل إنَّ البعضَ يقول إنَّ أنقى وأسْمى شَكْلٍ

للجنس يَتَحَقَّق عندما يَتَّحِدُ شخصان اتِّحادًا جسديًّا مَحْضًا ثُمَّ يَفتَرقان دون حَتَّى أن يُبالِيَ الواحدُ منهما بمعرفة اسم الآخر! لكنَّ الله خلقَنا كي يُحبَّ بَعْضُنا بعضًا بروح الالتزام. ولا يُمكن للشَّبع العميق أنْ يَتحقَّق إلَّا من خلال هذا النَّوع من المحبَّة. وقد أثبتَتْ دراساتٌ حديثةٌ أنَّ المُتزوِّجين يَستمتعون بالجنس أكثر من الأشخاص الذين يُمارسون الجنس خارج إطار الزَّواج.[٢] وما من شَكٍّ أنَّ الجنسَ يجب أن يكونَ مَقرونًا بالتزام مُتَبادَل مَدى الحياة الزوجيَّة. فبدون ذلك، سيَصيرُ الجنسُ شيئًا عديمَ المعنى. وبدون فرح الربّ، سيَصيرُ كلُّ ابتهاجٍ شيئًا أجوفَ لأنَّه سيَنتهي بانتهاء التجربة الشخصيَّة.

لهذا، يجبُ أن يَحتويَ إيقاعُ حياتنا على نَوباتِ ابتهاج لِتَعزيز شُعورنا بالفرح كلَّ يوم. وما أحوجَ العائلات إلى تطبيق هذا الأمر! فيجبُ على الآباء والأمَّهات أن يَحرصوا على أن يكون البيتُ الذي يَنشأ فيه أبناؤهم مَلآنًا بالسَّعادة والتَّفاؤل وراحة البال. ويجب عليهم أن يَحرصوا أيضًا على وجود أوقاتٍ مُمتعةٍ خاصَّةٍ مثل الألعاب، والإجازات، ووجباتِ الطَّعام المُميَّزة، والاحتفال.

ومع أنَّ الفرح أمرٌ ضَروريٌّ ولا غنى عنه إنْ أرَدْنا أنْ نَحيا حَياةً مُشْبعَة، فإنَّ لَحَظاتِ الابتهاج هذه يُمكنُ أن يُستَغنى عنها إن اقْتَضَت الضَّرورة ذلك. فالمرضُ يُمكن أن يَجعلَ العلاقاتِ الجنسيَّةَ مُستحيلةً. لكنَّ غيرَ المُتزوِّجين لن يُعانوا بسبب ذلك. كذلك، قد تَمنَعُك زيارتك لصديقك المريض من مُشاهدة مُباراة كنتَ تَتوق إلى مشاهدتها. ولكنْ حَتَّى من دون مثل هذه الأشياء، يُمكنُ للمؤمنين أن يَتَمتَّعوا بحياةٍ مُشْبعةٍ لأنَّ مَصدرَ الشَّبع الحقيقيِّ يَكمُنُ في مكانٍ آخر. فإنْ لَم نَتَمَتَّع بالفرح كجُزءٍ من حياتنا اليوميَّة، فسنُفرطُ في الاعتماد على نَوبات الابتهاج تلك. وإنْ لَم نَحصُلْ عليها، فلن نَشعرَ بالسَّعادة. حينئذ، حتَّى الإجازات قد تَتحوَّلُ إلى أوقاتٍ يملأُها التوتُّر. فمع أنَّ العائلاتِ تَتطلَّعُ إلى مثل هذه الإجازات بشوقٍ شديد، فإنَّها قد تتحوَّلُ إلى أوقاتٍ مُحبطةٍ ومُخيِّبةٍ للآمال لأيِّ سَبَب من الأسباب. لذلك، ما أحوَجَنا اليوم لأنْ نُبيِّن للنَّاس رَوعةَ الفَرَح! فهناك حاجةٌ ماسَّةٌ لأنْ نُري النَّاس

أنَّ الفَرَح مُبهجٌ جدًّا، وأنَّ الحُرِّيَّة النَّابعة من الخضوع للعلاقات المُلْتَزَمَة والدائمة بالله وشريك الحياة هي تَجربةٌ لا تُضاهيها تَجربة أخرى. وهناك حاجةً لأنْ نُبرهنَ للآخرين أنَّنا نَختبرُ نَوباتٍ حَقيقيَّةً من الابتهاج نحن أيضًا. وعندها، سيُدرك النَّاس- في أثناء بحثهم المحموم عن المُتعة في هذا العالَم القائم على المَلَذَّات- أنَّ ما يَبحثون عنه غير موجودٍ إلَّا في نَهْجِ الحياة الذي رَسَمَه لهم خَالقُهم!

الفصل الرّابع

الرِّثاء

بَعْد أن نَظَرنا إلى كيفيَّة تَعايُش الفرح والألَم معًا في حياة المسيحيّ، حانَ الوقت للحديث بشأن ثلاثة عَناصر نحتاج إليها عادةً لاختبار الفرح وَسطَ الآلام. ومع أنَّ العُنصرَ الأوَّلَ ليس مُهمًّا جدًّا في كلِّ الأوقات، فإنَّ العُنصرَيْن الآخَرين مُهِمَّان.

العُنصرُ الأوَّل هو "الرِّثاء". فالمؤمن ليس مُطالبًا بأنْ يُنْكرَ الألَم. فهناك أوقاتٌ يَختبرُ فيها جميعُ المؤمنين مشاعرَ الألَم، والإحباط، والحُزن، والغضب بسبب ما يَحدُثُ من أشياءَ خاطئة أو بسبب المصائب التي قد تؤثِّر في أحوالهم. وفي مثل هذه الحالات، فإنَّ إنكارَ هذه المشاعر لا يُفيد كثيرًا. فقَبْلَ أن نَفرحَ في وسط الألَم، يجب علينا- في أغلب الأحيان- أن نَعبُرَ واديَ البُكاء أو الرِّثاء، أو أن نُعَبِّر عن ألَمِنا بطريقةٍ أو بأخرى.

وفي اللَّاهوت، هُناك عبارةٌ تَصِفُ الدَّهرَ الحاضرَ الذي نعيش فيه وهي:

"الآن وليس بَعدُ". وقد كانَ العهدُ القديم يَتطلَّعُ بشوقٍ إلى الدَّهر الآتي. وبمجيء السيِّد المسيح، بزغَ فجرُ هذا الدَّهر. لكنَّ النِّهايةَ لَم تَأتِ بَعْد. فعَمَلُ السيِّد المسيح سيَكتملُ عندما يأتي ثانيةً. وحتَّى مجيء ذلك الوقت، سنَختبرُ سِماتِ الزَّمان الجديد هذا في ما يُمكنُنا أنْ نُسَمِّيَه بالتَّذَوُّق المَبْدَئيّ. فما تزال هناك سِماتٌ للدَّهر القديم.

ويَتَّضِحُ هذا اللَّاهوتُ جيِّدًا في رسالة رومية ٨: ١٩-٢٥. فالرَّسول بولُس يقول إنَّه بسبب السُّقوط، أخْضَعَ الله الخَليقَةَ "لِلْبُطْلِ [أو الفَراغ]... على الرَّجَاء". ونتيجة لذلك، فإنَّ حالتَنا الصحِّيَّة تَتدَهوَر، ونَكتشفُ أنَّ قُدراتنا تتراجعُ شيئًا فشيئًا بتقدُّم العُمر إلى أنْ نموت. وقد يَخذلُنا الناسُ أو يؤذونَنا فنَشعُرَ بالألَم. ونحن ننتظرُ بشوق ذلك اليومَ الذي سَتُعتَقُ فيه الخليقة "من عُبُوديَّة الْفَسَاد إِلَى حُرِّيَّة مَجْد أَوْلَاد الله" (العدد ٢١). وإلى أنْ يأتيَ ذلك الوقت "لَنَا بَاكُورَةُ الرُّوح" (العدد ٢٣) التي تَجعَلُنا نتذوَّقُ تذوُّقًا مبدئيًّا طَعْمَ المجد الذي يَنتظرُنا عند تَحَقُّق تلك الوعود. وفي فترة الانتظار هذه، يقول بولُس "فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةَ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعًا إِلَى الآنَ" (العدد ٢٢). وهذا الأنينُ يَشمَلُ المؤمنين أيضًا: "وَلَيْسَ هكَذَا فَقَطْ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ لَنَا بَاكُورَةُ الرُّوحِ، نَحْنُ أَنْفُسُنَا أَيْضًا نَئِنُّ فِي أَنْفُسِنَا، مُتَوَقِّعِينَ التَّبَنِّيَ فِدَاءَ أَجْسَادِنَا" (العدد ٢٣).

وفي العهد القديم، كان كُتَّابُ الوَحْي يُعَبِّرون عن هذا الأنين بأسلوب أدبيٍّ يُعرَفُ بالرِّثاء. ووَفقًا لتَصنيف عُلماء الكتاب المُقدَّس، فإنَّ سِفْر المَزامير بأصْحَاحاته المئة والخَمسين يَحتوي على ما يَقْرُب من خمسين إلى ستِّين مَزمورًا يُمكن تَصنيفُها على أنَّها مَزامير رثاء. وهذا يَعني أنَّ ثُلُثَ سِفْر المَزامير (أو رُبَّما أكثر) هو رثاء! وهناك سِفْرٌ كاملٌ في العهد القديم يُسَمَّى بسِفْر المَراثي (أو مَراثي إرْميا)؛ وهو يَحتوي على مجموعة من المراثي التي تُعبِّر عن حُزْن النبيِّ إرْميا على دَمار أورشَليم القَديمة. وفي الحقيقة أنَّ "كُلَّ سِفْرٍ نَبَويٍّ- باستثناء سِفْر حَجَّي- يَحتوي على نَوْعٍ مِنْ أنواع الرِّثاء".[1] ويقول "كلينتون ماكان" (Clinton McCann) إنَّه مع أنَّ مزاميرَ الرِّثاء

تزيدُ كثيرًا في عددها عن مَزامير التَّسبيح في سِفْر المَزامير، فإنَّ أناشيدَ التَّسبيح تَفوقُ في عددها أناشيد الرِّثاء بنسبة ١٦: ٦ في كِتاب الأناشيد المُستخدم في الكنيسة المَشيخيَّة.[٢] وأعتقد أنَّ الفَجوةَ أكبرُ من ذلك في غالبيَّة كُتب التَّرانيم المُعاصرة.

إنَّ المَراثي هي صَرخاتُ ألَم يُطْلقُها الأبرارُ الذين يَمُرُّون في ضيق شديد رُغم أمانتهم من نَحو الربّ. ويَصفُ عالِمُ العهد القديم "كريس رايت" مُحتوى الرِّثاء في الكتاب المُقدَّس على النَّحو التالي: "يا رَبّ، أنا أتألَّم في الوقت الذي يَضحك فيه الآخرون جميعًا. ويبدو أنَّك لا تُساعدني بالقَدر الكافي، يا الله! إلى متى سَيَدومُ هذا الألَم؟"[٣] وهكذا، فإنَّنا نَحزن، ونبكي، ونَئِنُّ بسبب الألَم. كما أنَّنا نَتساءَلُ عن سبَبِ تَعَرُّضنا لهذه المُشكلة، ونَتَصارَعُ مع الأسئلة اللَّاهوتيَّة التي تدورُ في أذهاننا بشأن ما يَحدُث لنا.

ومَع أنَّ الرِّثاء مُستَهجَنٌ في بعض الثقافات- ولا سيَّما حين يتعلَّق الأمر بالرِّجال- فإنَّنا نجدُ في الكتاب المُقدَّس أنَّ الرِّجال والنِّساء يَستخدِمونَ الرِّثاء. بَلْ إنَّ يسوعَ نفسه رَثى حالَ أورُشَليم (لوقا ١٣: ٣٤-٣٥)، وبكى عليها (لوقا ١٩: ٤١). ونحن نَعلَمُ أيضًا أنَّ يسوعَ بَكى عندما وقَفَ عند قبر لِعازَر (يُوحنَّا ١١: ٣٥). كما أنَّه قال عندما تَحَدَّث إلى تلاميذه بشأن موته الوشيك وقيامته: "اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ، وَلكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ" (يُوحنَّا ١٦: ٢٠).

في وقتٍ مِنَ الأوقات، رُحْتُ أفَكِّر- في ضَوء كلمة الله- كيف ينبغي لنا نحن المؤمنين المسيحيِّين أن نَتجاوَبَ مع الإعصار الذي ضَرَب سريلانكا في سنة ٢٠٠٤. وقد تَبيَّن لي أنَّنا لسنا مُعتادين أن نرثيَ أحوالَنا كما كان يَفعلُ الناس في أزمنة الكتاب المُقدَّس عند حلول كارثة قوميَّة. وبعد أسبوعَين من وقوع تلك الكارثة، وَعَظْتُ في كنيستي المحلِّيَّة وَعَرَّفتُ الرعيَّةَ بطُقوس الرِّثاء، وبالطَّريقة السَّليمة للنَّوح على ما حَدَث، وبكيفيَّة التَّضامُن مع الأشخاص المُتألِّمين، وبكيفيَّة الابتهال إلى الله كي يَتَدَخَّلَ لإغاثَة المكروبين. فإنْ لَم يَكُنِ الرِّثاء الجَماعيُّ جُزءًا

من حياة مُجتمعنا، فيجب علينا أنْ نَتبنَّاه في كنائسنا. وبلا شكّ، يجب علينا أن نَتعلَّمَ كيف نُعَبِّر عن حُزْننا عندما نَتألَّم نحن أنفُسنا.

ويجب علينا أن نَتذكَّرَ أنَّه عندما نُمارِسُ الرِّثاء على المُستوى الشخصيّ، فإنَّنا نَفعلُ ذلك أمامَ الله وشَعبه. وعندما نَقوم بذلك فإنَّنا نُهَيِّئ قلوبَنا لاستقبال تَعزية الله التي يُعَزِّينا بها مُباشرةً أو من خلال شَعبه. فالرَّسول بولُس يَصِفُ الله بأنَّه "... إلهُ كُلِّ تَعْزِيَة، الَّذي يُعَزِّينَا فِي كُلِّ ضِيقَتِنَا" (٢كورنثوس ١: ٣-٤). فالله يُسَرُّ بأن يُقَدِّمَ إلينا يَدَ العَون. وما من شكٍّ أنَّ تَعزِيَتَه هذه تُسْهِمُ في تَعميق أثمن شيءٍ في حياتنا ألا وهو علاقة المحبَّة المُتبادلة بيننا وبينه.

في إحدى فترات حياتي، واجَهَتْنا بعضُ المشاكل الجَسيمة في خدمتنا. وفي يوم من الأيَّام، عُدْتُ إلى البيت بعد اجتماع مُهمٍّ وأنا أشعرُ بضيق شديد. ولا أدري كيف ارْتَمَيتُ على سريري وانفجرتُ بالبكاء. حينئذٍ، دخَلَ ابني الغُرفةَ ورآني أبكي للمرَّة الأولى في حياته. ركضَ إلى أمِّه وسألَها عن سبب بُكائي فأخبَرَتْه بأنِّي أعاني من بعض المشاكل الصَّعبة في العمل. فما كان منه إلَّا أن هَرَعَ إلى حَاسوبيَ الشخصيِّ وأرسلَ رسالةً إلكترونيَّةً إلى بعض أصدقائي المُقَرَّبين قال فيها إنِّي أعاني من ضغوطٍ كبيرةٍ وإنِّي في حاجةٍ إلى صلواتهم. وعندما عَلِمْتُ بما فعلَه ابني تأثَّرتُ كثيرًا. ورغم أنِّي بدأتُ أنسى ذلك الألَمَ الذي اختَبرتُه في ذلك الوقت العَصيب، فإنِّي سأتذكَّرُ دَومًا لُطْفَ ابْني الذي تَرَكَ في نَفسي أثَرًا لا يُمْحى!

عندما نَفتحُ قلوبَنا وحياتَنا لاستقبال تَعْزِيَة الله، فإنَّنا نَفتَحُها أيضًا للشِّفاء من المَرارة. فنحن نُصابُ بالمَرارة عندما نُفَكِّر في حَادثة ما تفكيرًا سَلبيًّا مَحْضًا. أمَّا عندما نَحصلُ على التَّعزية من الله، فإنَّ المَرارةَ ستزول حتَّى لو بَقِيَتْ ذِكرياتُ الحادثة نفسها مُؤلمة. والسَّببُ في ذلك هو أنَّنا اختَبَرنا مَحبَّةً تَفوق الإساءةَ التي تَعَرَّضنا لها.

وعندما نَختَبرُ تَعزيةَ الله، سنَتَمكَّنُ أيضًا من مواجهة الناس بِمَنْ فيهم أولئك الذين أساءوا إلينا. والسَّبب في ذلك يَرْجعُ إلى نعمة الله التي هي أعظم من كُلِّ

خطيَّة. وعندها، سيَكونُ حُضورُنا مُفيدًا وبَنَّاءً حتَّى في تلك المواقف التي نكون فيها مُستائين وغاضبين. فالمرارةُ قد تَلاشَت، وَطاقتُنا صارتْ مُرَكَّزةً بالكامل على إيجاد حَلٍّ عِوَضًا عن إثباتِ أنَّنا على صَواب، أو عِوَضًا عن تَلقين الشخص الذي أساء إلينا دَرْسًا قيِّمًا.

في ضَوء الحرب الدائرة في سريلانكا، قد تكون الخِدْمَة المسيحيَّة مُحْبِطَةً جدًّا. فقد نُمضي وقتًا طويلًا ونبذلُ جَهدًا كبيرًا في التَّخطيط لإحدى الخدمات ثُمَّ نُفاجَأ بإعلان الحَظْر في الشَّوارع في اللَّحظات الأخيرة. وهكذا، كثيرًا ما نُخفقُ في القيام بخِدماتنا المُعتادة. وقد وَجَدْتُ في بعض الأحيان أنَّ القادةَ المُتَمَرِّسين همُ الذين يواجهون صعوبةً في تَقبُّل مثل هذه المُفاجآت. فَعلى الرُّغْم من تمرُّسهم، فإنَّهم لم يَتعلَّموا أن يَحزَنوا وأن يُعبِّروا عن أَلَمِهم وإحباطهم. وأحيانًا، قد يَغْدو هذا الإحباطُ صَعبَ الاحتمال إلى حَدٍّ يَدفعهم إلى مُغادرة البلد ولسانُ حالِهم يقول إنَّهم أخفَقوا في القيام بالعمل الذي دُعوا إلى القيام به بسبب الوضع السائد. إنَّ مَظهرَهم الخارجيَّ الصَّلب، في الحقيقة، لا يُعبِّر سوى عن ضَعفهم. فهُم عاجِزون عنِ السَّماح لأنفسهم باختبار مشاعر الإحباط والأَلَم. لهذا، فإنَّهم يَنسَحبون من الموقف بِرُمَّته!

قد يُلاحظُ القارئُ أنَّ ما ذَكَرْناه هنا يَتعارَضُ مع تَعليم أولئك الذين يقولون إنَّه حيثُ إنَّ يسوعَ حَمَلَ اللَّعْنَةَ عَنَّا، فلا يَجْدُرُ بِنا أنْ نُعانيَ كما عانى هو. وفي مثل هذا التَّعليم، لا يوجَدُ مكانٌ للرِّثاء لأنَّهم يَنظرون إليه حاسبين إيَّاه مَظْهَرًا من مَظاهر انعِدام الثِّقة بالله.

لقد خدمَ الأخُ أنْدرو (Brother Andrew) في العديد من الدُّوَل التي عانى فيها المسيحيُّون من الاضْطِهاد لعقود عديدة. وعندما جاء إلى سريلانكا، حضرْتُ اجتماعًا تَحَدَّث فيه. وبعد انتهاء العِظَة، حانَ وقتُ الأسئلة، فسأله أحدُهم عن رأيه في ذلك اللَّاهوت الذي يُعنى بالحديث بشأن البَرَكاتِ التي يُعطيها الله؛ لكنَّه لا يَعترفُ بالألَم والمُعاناة (أي لاهوت الازدهار). وقد أجابَ الأخ أندرو بأنَّه لا يُمكنُنا

أن نُناديَ بمثل هذا اللَّاهوت في بُلدانٍ يُعاني فيها المسيحيُّون من الاضطهاد. ثُمَّ أضاف قائلًا إنَّه إنْ أرَدْنا أنْ نَتبنَّى مثلَ هذا اللَّاهوت، فيجب علينا مُغادرةُ تلك البلاد! وهذا هو ما فعلَهُ البعضُ بالفعل!

الفصل الخامس

الإيمانُ والصَّبْر

العُنصرُ الثَّاني الذي لا غِنى عنه للتَّمتُّع بالفرح في وَسط الألَم هو "الإيمان"؛ وهو عُنصرٌ بالغُ الأهمِّيَّة دائمًا (على النَّقيض من العُنصر السَّابق وهو "الرِّثاء"). فيَعقوب يقولُ في مَقْطَع نَعرفُه جميعنا عن الفرح والألَم: "احْسِبُوهُ كُلَّ فَرَحٍ يَا إِخْوَتِي حِينَمَا تَقَعُونَ فِي تَجَارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ، عَالِمِينَ أَنَّ امْتِحَانَ إِيمَانِكُمْ يُنْشِئُ صَبْرًا" (يعقوب ١: ٢-٣). وهكذا، يَجب علينا أن "نَحْسِبَ" كُلَّ تَجاربنا سَبيلًا للفرح. فحيث إنَّنا نُؤمنُ بأنَّ التَّجاربَ ستَؤُولُ في النِّهاية إلى خَيْرِنا، فإنَّنا نَنظرُ إليها كشيءٍ يُمكنُنا أن نَتجاوَبَ معه بفَرَح.

رُغم ذلك، من المُؤسف أنَّ بعضَ المؤمنين يَجدون صُعوبةً في تَطبيق هذا المبدأ. فقد عانَوا أشَدَّ الألَم إمَّا على يَدِ أشخاصٍ مُعَيَّنين وإمَّا بسبب ظروفٍ قاسية. وَهُمْ لم يَجِدوا أشخاصًا يُؤازرونَهم عندما كانوا في أمسِّ الحاجة إلى العَون؛ لأنَّ

تلك المُساعدةَ كانَتْ ستُكَلِّفهم ثمنًا باهظًا. وهكذا، فقد أثَّرَتْ تلك التَّجاربُ المؤلِمةُ في نظرتهم إلى الحياة. كما أنَّهم باتوا يَجدونَ صُعوبةً في تَصديق أنَّ المُشكلات التي يُواجهونَها ستؤُول إلى خَيرهم في نهاية المَطاف. بل إنَّهم يجدونَ صُعوبةً في تصديق أنَّ الله سَيَعتني بهم في أيِّ موقفٍ عَصيبٍ قد يُواجهونه. لذا، عندما تأتي المُشكلاتُ فإنَّهم يَعجزون عنِ اختبار الفرح؛ لأنَّ تفكيرَهم يقول لهم: "لا شَيءَ يَسير كما أتَمنَّى!"

إنَّ أحدَ التَّحدِّيات الكُبرى التي تُواجِهُ الخُدَّام المَسيحيِّين هو مُساعدةُ الأشخاص الذين يهتَمُّ هؤلاء الخدَّام بهم على الإيمان بأنَّ الله سَيَعتني بهم عندما يُواجهون التَّجارب. وفي الحقيقة أنَّ الكثيرَ من الخُدَّام المسيحيِّين أنفسهم يَحتاجون إلى الاقتناع بهذا الأمر. فهُم عاجزون عن قُبول فكرة أنَّ الله يُسَرُّ بِمُبارَكَتهم. وقد عَدَدْتُ سبعَ آيات في الكتاب المُقدَّس تقولُ إنَّ الله يُسَرُّ أو يَبْتَهِجُ بنا،[1] وثلاثَ آيات تقول إنَّ الله يَبْتَهِجُ في مَحَبَّته لنا أو إحْسانه إلينا،[2] وآيةً واحدةً تقولُ إنَّ الله يُسَرُّ بسَلامَتنا وَخَيْرِنا.[3] ومن ثَمَّ، فإنَّ هذه الآيات الإحدى عَشَرة تقول إنَّنا مَصْدَرُ فَرَح وسرور لله. رُغم ذلك، فإنَّ النَّاسَ الذين واجهوا الرَّفض طوال حياتهم- ولا سيَّما أولئك الذين نَقَشَ آباؤهم أو أمَّهاتهم أو مُعلِّموهم أو جيرانُهم في أذهانهم رسالةً تقول إنَّهم بلا نَفْع- يجدون صُعوبةً بالغةً في قبول هذه الحقيقة. لهذا، فهُم بحاجة إلى مَنْ يُقنِعُهم بأنَّ الله يُحبِّهم ويُسَرُّ بهم.

وأحيانًا، قَبْل أن يتمكَّنَ أولئك الأشخاص من الإيمان بأنَّ الله يَعمَلُ لخيرهم، فإنَّهم يحتاجون إلى اختبار بَلْسَم الله الشَّافي لتلك الجُروح التي أرغمَتْهم على النَّظر إلى الحياة نظرةً سلبيَّةً قاتمة. وقد تَبيَّن لي أنَّ لدى بعض النَّاس الاستعدادَ لهذا الشِّفاء، وأنَّ لديهم القابليَّةَ للتَّحرُّر من طريق مُسامحة الأشخاص الذين أساءوا إليهم، ومن خلال قبول حقيقة أنَّ الله، صاحبَ السِّيادة والسُّلطان على هذا الكون، سَيَستخدمُ حتَّى تلك الجِراح لِخَيْرهم. لكنَّ البعضَ الآخرَ يَرفضون التَّخلِّي عن فِكرة أنَّ الحياةَ كانَتْ قاسيةً جدًّا

عليهم. وعند مُواجهَتهم لأيَّة تجربةٍ مُؤلمة، فإنَّهم يَنْظُرون إليها من خلال نظرتهم السلبيَّة إلى الحياة ممَّا يقودُهم إلى مَزيدٍ من المرارة والغضب. فهُم يَنظرون إلى كلِّ مَوقفٍ جَديدٍ مؤلمٍ على أساس أنَّه دليلٌ إضافي على الأشياء التي تَعمَلُ ضدَّهم وليس لمصلحتهم.

إنَّ الإيمانَ بأنَّ الله يَعملُ لخَيرنا عادَةً ما يَتأتَّى من خلال التَّجارب التي تُعَزِّز هذا الحقَّ الكتابيّ. فبَعدَ العَديد من تَعامُلات الله التي تُؤكِّدَ هذا الحقّ، فإنَّنا نَتعلَّمُ أنْ نَخْضَعَ لما يقولُه الكتابُ المقدَّس عن تجاربنا المؤلمة. وعندها، ستكونُ لدينا القناعةُ اللَّازمة بأنَّ الله يَستخدمُ هذه التجاربَ القاسيةَ لمبارَكَتنا. كما أنَّنا نَتعلَّم أنْ نؤمن بما يقولُه الكتابُ المُقدَّس عن الألَم في حياة المُؤمنين.

لقد قال الرَّسول بولُس: "وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ الله، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِه" (رومية ٨: ٢٨). ويأتي تأكيدُ بولُس هذا "وَنَحْنُ نَعْلَمُ" بصيغة المُضارع التَّام في اللُّغة اليونانيَّة؛ وهي صيغةٌ تُستخدَم للتَّعبير عن أشياءَ تَمَّتْ في الماضي وما زال تأثيرُها مُستمرًّا حتَّى الآن. فعندما قال بولُس "ولَكِنِ الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ" (١كورنثوس ١٥: ٢٠)، فقد استخدَمَ صيغةَ المضارع التَّامِّ أيضًا. فمع أنَّ القيامة كانت قد حَدَثَتْ قبل وقتٍ طَويلٍ نسبيًّا، فإنَّ قيامة رَبِّنا وَمُخَلِّصنا ما زالتْ قائمةً وفعَّالة. ويَستخدمُ الرَّسولُ بولُس صيغة المُضارع التَّام خمسَ مَرَّات في الأصحاح الخامس عشر من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس للإشارة إلى قيامة السيِّد المسيح (الأعداد ١٣-١٤، و ١٦-١٧، و ٢٠).

وباستخدام بولُس لصيغة المُضارع التَّامِّ في قَوله "وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ"، يبدو أنَّه كان يُلَمِّحُ إلى أنَّ هذه القَناعة تَرَسَّخت لديه في الماضي وهي ما زالَتْ لديه. كذلك، فإنَّ صيغةَ المُضارع التَّامِّ تُستخدَم في قَول بولُسَ المشهور إنَّه لا يُمكنُ للتَّجارب أنْ تَفْصلَنا عن مَحَبَّة الله: "فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ، وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً،

وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ، وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا" (رُومية ٨: ٣٨-٣٩).

عندما يَحدُثُ شيءٌ رَهيبٌ للمؤمنين، قد يَبكون ويَئِنُّون. بل إنَّهم قد يَغضَبون بسبب الظُّلْم الذي وَقعَ عليهم وَيَنْهالونَ بالأسئلة على الله. لكنْ في أعماق قلوبهم، تبقى هناك حقيقةٌ تؤثِّر نهايةَ الأمر في الطَّريقة التي يَتجاوَبون فيها مع المشكلة؛ وهذه الحقيقة هي أنَّ الله سَيُحَوِّل هذا الشَّيء المُرَّ إلى شيءٍ حُلْوٍ في حياتهم. وهُم يُفكِّرون قائلين: "لقد قرأتُ ذلك في كلمة الله، واختَبَرْتُه في حياتي الشخصيَّة. والآن، أنا أعرفُ يَقينًا أنَّ الأمورَ ستَكون على ما يُرام!"

كان "برنارد غيلبِن" (١٥١٧-١٥٨٣م) واعظًا حُكِمَ عليه بالحَبس بتُهمة الكِرازة بالإنجيل في فترة اضْطهاد الملكة ماري للپروتستَنْت (في إنكلترا). ومع أنَّه كان في طريقه إلى لندن لتَنفيذ حُكم الإعدام بحَقِّه، فإنَّ حُرَّاسَه دُهِشوا لأنَّه كان يقولُ طوال الطَّريق "كُلُّ الأشْياء تَعْمَلُ مَعًا للخَيْر". وفي الطَّريق، سَقَطَ برنارد عن ظَهر الحِصان فتأذَّى. وبسبب ذلك، لم يتمكَّنوا من مُواصَلَة السَّير لبِضعة أيَّام. وفي هذه الفترة، قال برنارد لحُرَّاسه المَذهولين: "أنا على يَقين بأنَّ هذا الحادثَ المؤلِمَ سَيَكون مَصدرَ بَركة". وأخيرًا، تمكَّن برنارد من مُتابعة السَّفر. وعندما اقتربوا من لندن في وقتٍ مُتأخِّرٍ عمَّا كان مُتوقَّعًا، سمعوا أجراس الكنيسة تُقْرَع. وعندما سألوا عن سَبَب قَرْع تلك الأجراس قِيْل لهم: "الملكة ماري ماتَتْ، ولن يكونَ هناك مزيدٌ من حَرْق المؤمنين البروتستَنْت!" حينئذ، نظر برنارد إلى الحُرَّاس وقال: "أَتَرون؟ إنَّ كُلَّ الأشياء تَعْمَلُ مَعًا للخَيْر".[٤] وهكذا، فقد استخدمَ الله ذلك التأخير الناجم عَنْ سُقوطه المؤلِم عن ظَهْر حصانه لإنقاذ حياته.

وكثيرًا ما يَتحدَّثُ الكتاب المُقدَّس عن الاحتمال أو الصَّبْر في وَسط التَّجارب. فالرَّسول بولُس يقول: "بَلْ نَفْتَخِرُ أَيْضًا فِي الضِّيقَاتِ، عَالِمِينَ أَنَّ الضِّيقَ يُنْشِئُ صَبْرًا" (رومية ٥: ٣). ولكي نَحصلَ على هذا الصَّبْر فإنَّنا بحاجة إلى الإيمان والرَّجاء. وفي رسالة تسالونيكي الأولى ١: ٣، يَتحدَّث الرَّسول بولُس

بشأن الصَّبْر القائم على الرَّجاء بالربِّ يسوع المسيح. وهو يقول أيضًا: "وَلكِنْ إِنْ كُنَّا نَرْجُو مَا لَسْنَا نَنْظُرُهُ فَإِنَّنَا نَتَوَقَّعُهُ بِالصَّبْرِ" (رومية ٨: ٢٥). إنَّ الآيات الثلاثة المذكورة آنفًا تَستخدمُ الكلمةَ اليونانيَّة "هايپومونيه" (hupomoné) التي تُستخدَم عادةً للتَّعبير عن الصَّبْر في وسط التَّجارب. وتَختلف هذه الكلمة عن الكلمة اليونانيَّة التي تُستخدم عادةً للتَّعبير عن الصَّبْر في التَّعامُل مع الأشخاص "ماكروثوميا" (makrothumia) والتي تُتَرْجَمُ أحيانًا "طُول الأناة".

إنَّ كلمة "هايپومونيه"، التي تُستخدَم للتَّعبير عن الصَّبْر في وسط التَّجارب، تَرِدُ إحدى وثلاثين مَرَّةً في العهد الجديد.[٥] وهي تَعني شيئًا مُختلفًا عمَّا يَخطُر ببالنا عادةً عندما نُفَكِّر في الصَّبْر. فعندما نَتَحَدَّث بشأن الصَّبْر فإنَّ أوَّل ما يَتبادرُ إلى أذهاننا هو صورةُ الأشخاص الذين يَحتَملون المَشَقَّات بهدوء، أو الذين يَتقبَّلون الأحوال المُعاكسة بالتَّسليم السَّلبيِّ لها. لكنَّ الصَّبْر- بمعناه المسيحيّ- هو صِفَة إيجابيَّة. فهو يُشير إلى الاحتمال الإيجابيِّ أكثر ممَّا يُشير إلى التَّسليم السَّلبيّ. وقد قال "ليون موريس" (Leon Morris) مُوضحًا: "إنَّه موقفُ الجُنديِّ الذي لا يَفْزَعُ في المعركة، بل يُحارِبُ بشجاعةٍ مهما كَثُرَت الصُّعوبات".[٦]

ويُعدُّ الواعظُ الميثوديُّ "دبليو. أف. سانغستر" (W. F. Sangster) مَثَلًا جيِّدًا على الصَّبْر المسيحيّ. فقد قال له الأطبَّاءُ إنَّه سيَموتُ بِضُمور العَضَلات التَّدريجيِّ في الوقت الذي كان فيه في ذروة خدمته كَواعظ. وكان أوَّلَ شيءٍ فَقَدَه هو صَوتُه. وعندما أدركَ خطورةَ مَرَضه، عقدَ العَزْمَ على القيام بأربعة أشياء: "(١) لن أتذمَّر بتاتًا؛ (٢) سأُبقي البيتَ ملآنًا بالأمل دائمًا؛ (٣) سأهتَمُّ بِعَدِّ بَرَكاتي؛ (٤) سأجتَهدُ لتَحويل خسارتي إلى رِبْح".[٧] وقد أبقى سانغستر نفسَه مشغولًا إلى أنْ تَوَفَّاه الله. وكان قد كتبَ آخرَ كتابٍ له بإصبعين فقط وأرسلَه إلى النَّاشر قبل يوم أو يَومَين من موته.[٨] وما من شَكٍّ أنَّ مِثل هذا الصَّبْر لا يأتي إلَّا بواسطة الإيمان.

وعندما يَضعُفُ إيمانُنا فإنَّنا نَتعلَّم أنْ نَعظَ أنفُسَنا على أمل أن تَعملَ كلمةُ الله- التي هي أساسُ إيماننا- على التَّأثير فينا. ويمكنُنا أنْ نرى ذلك في المزمورَين

٤٢ و٤٣ اللَّذين يُشَكِّلان معًا وحْدَةً واحدة تبدأُ بالكلمات المألوفة التالية: "كَمَا يَشْتَاقُ الإِيِّلُ إِلَى جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ، هكَذَا تَشْتَاقُ نَفْسِي إِلَيْكَ يَا اللهُ". والكثيرون مِمَّن يَترنَّمون بهذه الكلمات لا يُدركون أنَّ كاتبَها كان يائسًا جدًّا، وأنَّه كتبَها وهو يَشْعُر بأنَّ الله بعيدٌ جدًّا عنه. ونجدُ في هذين المزمورَين لازمةً (أو عبارةً مُكرَّرة) تُرينا أنَّ ناظمَ هذين المزمورَين يَعظُ نَفسَه ثلاث مَرَّات بالرِّسالة ذاتها: "لِمَاذَا أَنْتِ مُنْحَنِيَةٌ يَا نَفْسِي؟ وَلِمَاذَا تَئِنِّينَ فِيَّ؟ ارْتَجِي اللهَ، لأَنِّي بَعْدُ أَحْمَدُهُ، لأَجْلِ خَلاَصِ وَجْهِهِ" (٤٢: ٥-٦؛ ٤٢: ١١؛ ٤٣: ٥).

فلأنَّ قلوبَنا تَتَصارَعُ مع الموقف، فإنَّ أذْهانَنا تَعظُ قلوبَنا بالحَقِّ الذي عَلَّمَتنا إيَّاه كلمةُ الله. وفي كتابٍ كلاسيكيٍّ بعنوان "الاكْتئابُ الرُّوحيّ" (Spiritual Depression)، يتساءل المؤلِّف الدكتور "مارتن لويد-جونز" (Dr. Martyn Lloyd-Jones): "ألَمْ تُدرِكْ أنَّ غالبيَّة تَعاستك في الحياة ناشئةٌ عن حقيقة أنَّك تُصغي إلى نفسك بَدَلًا من التحدُّث إليها؟"[٩] لهذا، يجب علينا أن نتوقَّف عن الإصغاء إلى كلامنا الملآن برِثاء الذَّات، وأنْ نَبدأ في تَوجيه العِظات التي تَشتملُ على أعمق الحقائق إلى أنفُسنا.

وأفضلُ طريقةٍ لزيادة فاعليَّة هذه العمليَّة القائمة على تَغذية إيماننا من طريق تذكير أنفسنا بالحقائق العميقة في وَسط التَّجارب القاسية هي أنْ نُواظبَ على قراءة الكتاب المُقدَّس. فقد قال ناظمُ المزامير: "لَوْلاَ تَكُنْ شَرِيعَتُكَ لَذَّتِي، لَهَلَكْتُ حِينَئِذٍ فِي مَذَلَّتِي" (المزمور ١١٩: ٩٢). وهذا يُذَكِّرني بواعظٍ ألمانيٍّ جَريء اسمه "مارتن نيمولر" (Martin Niemoller) قضى سنواتٍ عَديدةً في السِّجن لأنَّه تَحَدَّث بشأن التأثير السَّلبيِّ لنظام أدولف هتلر في الكنيسة في ألمانيا. وفي حديثه بشأن الكتاب المُقدَّس قال: "ما الذي عَناه هذا الكتاب لي في أثناء السَّنوات الطويلة الشاقَّة التي قَضَيتُها في الحبس الانفراديِّ وفي السنوات الأربع الأخيرة التي قَضَيتُها في داخو (Dachau) [مُعسكر للاعتقال]؟ ببساطة مُتناهية، كانَتْ كلمةُ الله هي كلُّ شيءٍ بالنسبة إليّ: فهي تَعزِيَتي وقوَّتي؛ مُرشدتي ورجائي، مُعلِّمَتي في النَّهار ورفيقَتي في اللَّيل، الخُبز الذي يَسُدُّ جُوعي، وماء الحياة الذي يُنْعِشُ نَفْسي".[١٠]

وهكذا، فالمؤمنُ الذي يَسْلُك بالإيمان واضعًا رَجاءه في الله الحَيِّ في وسط المتاعب هو شخصٌ يَنطبق عليه وَصْف الرَّسول بولُس الذي صَلَّى لأجْل مؤمني رومية قائلًا: "وَلْيَمْلأْكُمْ إِلهُ الرَّجَاءِ كُلَّ سُرُورٍ وَسَلاَمٍ فِي الإِيمَانِ، لِتَزْدَادُوا فِي الرَّجَاءِ بِقُوَّةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (رومية ١٥: ١٣).

الفصل السَّادس

التَّسليم

كما أنَّ الإيمانَ هو عُنصرٌ لا غنى عنه للْحفاظ على الفرح في حياتنا اليوميَّة، فكذلك هي حالُ التَّسليم. فإنْ تَمسَّكنا بأيِّ شيءٍ في الحياة؛ وَإن كان ذلك الشيء صالحًا، فمنَ المُؤكَّد أنَّ ذلكَ الشيءَ سيَسْلِب الفرح من حياتنا. وقد يكون هذا الشيءُ هو مَنْزِلًا اشتَرَيناه. فقد نُفرط في الاهتمام بهذا المنزل بدافع رَغبتنا في جَعْله أفضلَ منزل على الإطلاق؛ وقد يُؤدِّي هذا- بدَوره- إلى عدم شعورنا بالفرح لامتلاك ذلك المنزل! وعندها، فإنَّ أيَّةَ مُشكلة أو مُشكلات تَحدُثُ في هذا الإطار- ولا سيَّما إذا كان هناك أطفالٌ في البيت- يُمكنُ أن تَسلبَ منَّا فَرَحَنا وتَجعَلُنا نَتصرَّف بطُرُقٍ تَجلِبُ العَارَ على اسْم السيِّد المسيح.

وإنِّي لأَتَساءَلُ أحيانًا عَمَّا إذا كان الأطفالُ في بعض البيوت مَحرومين من المُتعة والمرح العَفويَّين اللَّذين هما جزءٌ لا يَتجزَّأ من الطفولة السَّليمة، لمُجرَّد أنَّ

الوالِدَين يُبالغان في الحِفاظ على نظافة المنزل أو ترتيبه! ففي نظر هؤلاء الأطفال، لن يكونَ البيتُ مكانًا ممتعًا. وقد يؤدِّي هذا إلى ظهور مُشكلاتٍ سُلوكيَّة خطيرة عند الأبناء. وعندما يَكْبُرون قد يبدأ الأبناءُ في التَّفكير في كيفيَّة الحُصول على مُتعةٍ حَقيقيَّةٍ خارجَ بيوتهم. وغالبًا ما يؤدِّي ذلك إلى انغماسهم في المُتَع الخاطئة مع رُفائقهم.

ولأنَّ الله يَعرف أنَّنا نَميلُ إلى التمسُّك بالأشياء تَمَسُّكًا غير سَليم، فهو يَدعونا في أغْلب الأحيان إلى التخلِّي عن بعض هذه الأصنام لكي نَتَحَرَّر من هَيْمَنَتِها علينا. والعهدُ الجديد يُقَدِّم هذا المبدأ بطُرق مُختلفة. تأمَّل في هذه الآيات:

- إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي، فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَتْبَعْنِي. فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي فَهذَا يُخَلِّصُهَا (لوقا ٩: ٢٣-٢٤).
- فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ، عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ (رومية ١٢: ١).
- أَمُوتُ كُلَّ يَوْمٍ (١كورنثوس ١٥: ٣١).
- مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ (غلاطيَّة ٢: ٢٠).

إنَّ كُلَّ آيةٍ من هذه الآيات تُلَمِّح إلى أنَّ المؤمنين يَتَخَلَّون دَومًا عن أشياءَ يُحبُّونَها في سبيل التمتُّع بالحُرِّيَّة التي يُريدُهم الله أنْ يَتمتَّعوا بها. وأهَمُّ شيءٍ يجب علينا أنْ نَتَخَلَّى عنه هو ذواتنا- أو بالأحرى رغبتنا في التحكُّم في حياتنا. وبلا شكّ، فإنَّنا لا نَتخلَّى عن هذه الأشياء لنَعيشَ في فراغ؛ بل نَتخلَّى عنها في سبيل التمسُّك بالله وحدَه. وهكذا، فالتَّسليمُ يعني التمتُّعَ بأجمل شيءٍ في حياتنا- وهو علاقة المحبَّة المُبْهِجَة التي تَربُطنا بالله.

كنتُ قد عَزَمْتُ على إدراج هذا الفصل في هذا الكتاب بعد تَجربةٍ مَرَرْتُ

بها. فحيثُ إنّي اعتَدْتُ أن آخذَ قَيلولةً بعد الظهر، فعادةً ما أعمَلُ لوقت مُتأخّر من اللَّيل. وفي أحد الأيَّام، كُنتُ أشعر بالإرهاق على غير عادتي؛ فقَرَّرتُ أنْ أنامَ في وقت مُبَكِّر تلك اللَّيلة. وعندما أطفأتُ حاسوبي وهَيَّأتُ نفسي للنَّوم، رَنَّ جَرَس الهاتف. كانَت المُكالمةُ لزَوجتي، وكان واضحًا أنَّ المرأةَ التي اتَّصلَتْ مُتضايقةٌ جدًّا. دامَت المكالَمةُ نحو خمس وأربعين دقيقةً. وبسبب سَماعي لِصَوت زوجتي، لَم أتمكَّنْ من الاسترخاء والنَّوم. حينئذٍ، راحَ الغضبُ يَنمو في داخلي شيئًا فشيئًا لأنَّ خُطَّة النوم المُبَكِّر لم تُفْلح.

بعد انتهاء المكالَمة، ناقشْنا أنا وزوجتي مُشكلةَ تلك السيِّدة فقُلتُ مُستنتجًا: "المُشكلةُ الكُبرى هي في أنَّ تلك السيِّدة لَم تَتعلَّمْ أن تُسَلِّمَ تلك الأشياء لله". وحالَما نَطَقْتُ بتلك الكلمات، أدركْتُ أنّي غَضِبْتُ قَبْلَ قليل لأنّي لم أضَعْ رَغْبَتي في النَّوم في وَقْتٍ مُبَكِّرٍ بين يَدَي الله. وبسبب ذلك، لَم أجِدْ أيَّ فَرَحٍ في وسط تلك الحادثة المُزعجة.

في السَّنوات التي قَضَيْتُها في الخدمة مع هَيئة "شباب للمسيح"، كثيرًا ما اضطُرِرْتُ إلى تغيير خُطَطي بسبب مُتطلَّبات الخدمة. وقد كانَتْ بعضُ الخُطَط التي اضْطَرَرْتُ لأن أتخَلَّى عنها هي أمورًا انتظرتُها بشَوق. وَلْأُشارِكْ وإيَّاكم إحدى تلك الخُطط. عندما كنتُ طالبًا في كُلِّيَّة اللَّاهوت، قَبْل أن أبدأ خدمتي كقائد لهيئة "شباب للمسيح" في سريلانكا في شهر تَمُّوز/يوليو ١٩٧٦م، كنتُ قد دَرَسْتُ سِفْرَ أعمال الرُّسُل لمُدَّة ثلاثة أشهر تقريبًا. فقد كنتُ على وشك قيادة مجموعةٍ من الخُدَّام المسيحيِّين. وبالتَّأكيد، فإنَّ سِفْر أعمال الرُّسُل يُخْبِرُنا بشأن خُدَّام عُظَماء يُمكنُنا أنْ نَقتديَ بهم. وعندما رَجعتُ إلى سريلانكا، بدأتُ في تَعليم الأشياء التي تَعَلَّمْتُها من سِفْر أعمال الرُّسُل، وحاوَلْتُ تطبيقَها في خدمتنا، وقد ساعدنا ذلك، أنا وزوجتي، لاحقًا في إنعاش الكنيسة (بعد أن تراجَعَ عددُ الحُضور فيها إلى أن وَصَلَ إلى الصِّفْر).

وسُرعان ما بَدأتُ أشعر بضرورة تأليف كتابٍ عن سِفْر أعمال الرُّسُل في

يوم ما. وقد عَقَدْتُ العَزْمَ على تأليف هذا الكتاب بعد أنْ أقضيَ خمسَ عشرة سنةً على الأقلِّ في تطبيق سِفْر أعمال الرُّسُل في خدمة "شباب للمسيح" وفي الكنيسة أيضًا. لكنْ عندما حان الوقت، كنتُ قد يَئِسْتُ من العثور على دار نَشْرٍ تُوافقُ على نَشْر كتابٍ يَتعلَّقُ بتفسير الكتاب المُقدَّس. ومع أنّي لَم أبدأ في الكتابة، فإنّي واظَبْتُ على دراسة سِفْر أعمال الرُّسُل وتحضير دراساتٍ جديدة منه. وفي سنة ١٩٩٤ تقريبًا، تسلَّمتُ رسالةً بالفاكس من دار النَّشر المَعروفة "زوندرڤان" (Zondervan) يَسألونَني فيها عن استعدادي لكتابة الجزءِ الخاصِّ بسِفْر أعمال الرُّسُل في سِلسلةِ "التَّفسير التَّطبيقي للتَّرجمة الدَّوليَّة الحديثة للكتاب المُقدَّس" (NIV Application Commentary). لَم أُصَدِّقْ عَيْنَيَّ بالتَّأكيد! وفي اجتماع مجلس إدارة "شباب للمسيح" الذي عُقد بعد يومَين من تسلُّمي لتلك الرِّسالة، عَرَضْتُ الأمرَ على أعضاء المجلس، وطلَبتُ سنةَ تفرُّغٍ أكاديميّ (أي إجازةً مَدفوعة الأجْر لمُدَّة سنة)؛ فوافقوا عليها. تَحَمَّسْتُ جدًّا وبدأتُ أنتظرُ تلك الإجازة بشَوقٍ لكي أقوم بما أَحْبَبْتُ القيام به جدًّا: دراسة كلمة الله. وعندما شَعَرنا بأنَّ أبناءَنا سيُواجهون صعوبةً في العودة إلى سريلانكا في حال سَفَرِنا إلى الخَارِج في تلك المرحلة من حياتهم، قَرَّرنا أنْ نَقضيَ سنةَ التفرُّغ تلك في سريلانكا.

وقبل بَدْء تلك السَّنة، عَلِمْنا أنَّ كُلِّيَّة اللَّاهوت في العاصمة كولومبو، والتي كُنتُ رئيسَ مجلس إدارتها، كانت ستُصيرُ بلا رئيس قريبًا. ولَم يَكُن قد مضى على إنشاء تلك الكُلِّيَّة سوى سنتَين فقط. لهذا، فقد كنَّا نُدركُ أنَّها لن تَتمكَّنَ من الصُّمود من دون رئيس. طَلَبَ منِّي مجلسُ الإدارة أن أتسلَّمَ ذلك المَنْصب. وعندها، شعرتُ بأنَّ الله يريدني أنْ أقوم بذلك. كما أنِّي حَصَلتُ على موافقة هيئة "شباب للمسيح" للقيام بذلك. وما زِلْتُ- حتَّى هذه اللحظة- أبكي كُلَّما تَذَكَّرت تلك السَّنة! فقد كان أمامي هَدَفٌ يَتطلَّب منِّي أنْ أدْرُس أربعين ساعةً أسبوعيًّا، وأنْ أعملَ في كُلِّيَّة اللَّاهوت من خمسَ عشرة إلى عشرين ساعة أسبوعيًّا. ومع أنَّه كان يُعوزُني الكثيرُ من الوقت كلَّ أسبوع، فإنِّي تَمَكَّنتُ من إنهاء كتاب التَّفسير الذي يتألَّف من ٦٥٠ صفحة. وأنا على يقينٍ بأنَّ الله قد بارَكَ ذلك

الكتاب. بل إنّي أعتقدُ أنَّه خرجَ بصورةٍ أفضل ممَّا كنتُ أتوقَّع بسبب الأحوال الصَّعبة التي كُتِبَ فيها!

غالبًا ما تكونُ الأشياءُ التي يجب علينا أنْ نتخلَّى عنها عَزيزةً على قلوبنا: صحَّتنا، أو وسائل رفاهيَتنا أو رَاحَتنا، أو سُمْعَتنا. فمثَلًا، مع تَقَدُّمنا أنا وزوجتي في السِّنّ، غالبًا ما أتمنَّى أنْ نَموتَ مَعًا في الوقت ذاته؛ لكنَّ قانونَ الاحتمالات يَستَبْعِدُ ذلك. من جهة أُخرى، فإنَّ زَوجتي تقولُ إنَّ من الأفضل أن أموتَ أنا أوَّلًا لأنَّها تَعرف أنّي لن أَصْمُدَ من دونها. غير أنَّنا نَعرفُ أنَّ واحدًا منَّا سيُضطَرُّ إلى إكمال حياته من دون الآخر بسبب الموت. فإنْ كنَّا مُستعدَّين- بدافع التَّسليم للربِّ- لقبول هذا الواقع المُؤلم عند فُراق أحدنا للآخر، فسنَتمكَّنُ من الاستعداد لتلك اللَّحظة استعدادًا بَنَّاءً. وما نرجوه هو أنْ يكونَ استعدادُنا قائمًا على القناعة التَّامَّة بأنَّه ما من شخص- ولا حتَّى شَريك حياتنا الذي نُحبُّه- يُمكنُ أنْ يَأخُذَ مكانَ الله في حياتنا. فإنْ كنَّا قد وَصَلْنا إلى هذه القناعة قبل أن يَحينَ وقتُ الفُراق المؤلم، فسنَتمَكَّن من التمسُّك بالله ونحن على يَقينٍ بأنَّ حُضورَه المُعَزِّي سيُرافقُنا في تلك الأوقات الصَّعبة.

وفي ما يَتعلَّق بالمُؤمن الذي يَسْلُك وَفقًا لكلمة الله، عِوَضًا عن الخوف من التَّسليم، يُمكن لهذا التَّسليم أنْ يصيرَ بَوَّابةً تُفْضي إلى مُغامرةٍ رائعة. فنحن نَعلمُ أنَّ الله سيُخْرِجُ شيئًا صالحًا من كُلِّ مَوقف. وحتَّى عندما نَجوزُ في الألَم، فإنَّ هذا الحَقَّ هو الذي يُقَوِّينا ويَجعلُنا نَتَساءَلُ بدهشة: "كيف سيَتصرَّف الله هذه المرَّة؟" حينئذٍ، سنَترقَّبُ خلاصَه بلَهفَةٍ مُقدَّسة. وعندما نرى ما فعَلَه، سيَصيرُ فَرَحُنا كاملًا!

الفصل السَّابع

لا تَلذُّذَ في الألَم

عند قراءتك للفصول السابقة، قد يَتولَّد لديك انطباعٌ بأنّي من الدَّاعينَ إلى التَّلَذُّذ بالألَم. فقد كان بعضُ آباء الكنيسة الأولى يُنادون بذلك. لكنّي أعلَمُ يَقينًا أنَّ هذا التَّعليم يَتعارَضُ مع تَعاليم الكتاب المُقدَّس. فقد سَمِعْتُ أشخاصًا يقولون إنَّه يَنبغي للخُدَّام المَسيحيِّين المُتفرِّغين ألَّا يَتقاضَوا أجْرًا على غِرار المُوظَّفين "العَلمانيِّين"؛ لأنَّ المُعاناةَ هي جُزءٌ لا يَتجزَّأ من الخِدمة المسيحيَّة، ولأنَّ التحاقَهم بالخدمة يَعني ضمْنًا أنَّهم كانوا قد اتَّخذوا قرارًا باحتمال مُعاناة من هذا النَّوع. لكنَّ الكتابَ المُقدَّس يُعلِّم بوضوح أنَّ الخُدَّام المسيحيِّين يَجب أنْ يَتقاضَوا أُجورًا مُناسِبةً لكي يَتمكَّنوا من التَّركيز على خِدمتهم دون قَلَقٍ على الجوانب الماليَّة من حياتهم (١كورنثوس ٩: ٣-١٤؛ ١تيموثاوس ٥: ١٧).

نحن لا نَتَمَنَّى الألَم لأنفسنا ولا نَسعى بحثًا عنه. بل في الحقيقة أنَّه في حال

وُقوعِ ظُلْمٍ ما، يجب علينا أنْ نَعترضَ عليه- لا سيَّما عندما يَعني ذلك المُساوَمة على مَبْدإٍ مُهمّ. فمثلًا، كان الرَّسولُ بولُس قد تَعَرَّض للاعتقال والضَّرب عَلَنًا في فيلبّي؛ وهو أمرٌ لم يَكنْ يُسمَح بمُمارسته على أيِّ مُواطنٍ رُومانيّ. لذلك، عندما أطلَقَ الوُلاةُ سَراحه، رَفَضَ بولُس مُغادرة المكان؛ بل إنَّه احتَجَّ على الطَّريقة غير القانونيَّة التي عُومِلَ بها (أعمال الرُّسُل ١٦: ٣٧). وقد تَسبَّب ذلك في حالة من الذُّعْر عند الوُلاة. ويَجب علينا أنْ نُدركَ أنَّ بولُس فعلَ ذلكَ عَمْدًا لكي يَحمِيَ حُقوقَ المُؤمنينَ الآخرين. والحقيقة هي أنَّ الجُزءَ الأكبر من سِفْر أعمال الرُّسُل كُتِبَ للدِّفاع عن المسيحيَّة وإضْفاء الصِّفَة الشَّرْعيَّة عليها.

وفي وقتنا الحاضر، مع تَزايُد المُعارَضة للإنجيل، فإنَّنا بحاجةٍ إلى الكثير من الحكمة كي نَعرفَ متى نُديرُ الخَدَّ الآخرَ وَمَتى نُدافع عن حقوقنا في مُمارسة إيماننا المسيحيّ. وهذا يُذَكِّرُني بالكارز الهنديّ "سَنْدَر سِنغ". فبَينما كان يَعِظُ بالإنجيل على ضِفاف أحد الأنهار المُقَدَّسة عند الهندوس، رَمى أحدُ أعدائه الرَّمل في عينَيه. حينئذٍ، غَضِب الكَهَنةُ الهندوس الذين كانوا في المكان لأنَّ أحدَ الوُعَّاظ تَلَقَّى مُعاملةً كتلك، فقَبَضوا على الرَّجُل واقتادوه إلى أحد رِجال الشُّرطة. وعندما عاد سَنْدَر سِنْغ بعد أن غَسَلَ عينَيه من بقايا الرَّمْل ورأى ما يَحدُث، التمَسَ من هؤلاء الكَهَنة أنْ يُطلقوا الرَّجُل. وبعد أن تأكَّد من إطلاقه تابَعَ عِظَتَه. وبسبب تلك الحادثة، تَأثَّر الرَّجُل، واسمه "ڤيديانانداVidyananda)"، بما حدث وتَوَسَّل إلى سَنْدَر أنْ يُسامحَه؛ بل إنَّه صارَ يُرافق سَنْدَر في رِحلاته.[1] إذًا، في مِثْل هذه الحالة، كانَتْ إدارةُ الخَدِّ الآخرِ تَصَرُّفًا حَكيمًا يُعَبِّر عن جَوهر المسيحيَّة.

لَكِنَّ الأمر كان يَتطلَّب نَهْجًا آخر في سريلانكا عندما ماتَ مُؤمنٌ بالسيِّد المسيح يعيشُ في قَريةٍ غالبيَّة سُكَّانها من البوذيِّين. فقد أصَرَّ وُجَهاءُ القرية على عدم دَفْن ذلك الرَّجُل في مقبرة القرية لأنَّه تَرَكَ البوذيَّة. حينئذٍ، بَذَلَ المسيحيُّون جَهْدًا كبيرًا، وتحدَّثوا مع قادةٍ سياسيِّين ومسؤولين حُكوميِّين للحفاظ على حَقِّ المسيحيِّين في أنْ يُدْفَنوا في مقبرةِ القرية. وقد تَحَقَّق ذلك المَطْلَبُ بالفعل؛ وهي

سابِقَةٌ مُهِمَّةٌ كانت ستُساعدُ المسيحيِّين في المُستقبل.

لقد دافعَ المؤمنون عن الإنجيل في كِلتا الحادثتَين. فالأوَّل فَعَلَ ذلك من طريق إظهار المَبدإ المسيحيِّ الذي يُنادي بمحبَّة الأعداء. والمؤمنون- في الحادثة الثَّانية- فعَلوا ذلك من طريق مُساعدة المسيحيِّين في الحصول على حَقِّهم الشرعيِّ في التمتُّع بالخدمات المُتاحة لجميع مواطني سريلانكا.

وهكذا، فنحنُ لا نبحثُ عن الألَم. لكنْ عندما يأتي الألَمُ إلينا فإنَّنا نَعرفُ أنَّ الله سيَستخدمُه لمُباركتنا. ويجب علينا أن نَعرفَ أنَّ الكلمة الإنكليزيَّة «Blessing» (والتي تَعني "بَرَكة") مُشْتَقَّة من الكلمة الإنكليزيَّة القديمة «Bledsian» والتي تَرتبطُ بكلمة «Blood» (أيْ "دَم"). وعليه، فهي مأخوذةٌ من استخدام الدَّم عند تقديم الذَّبائح. وهذا يَعني أنَّ البَرَكة تأتي من خلال الذَّبيحة. وبسبب ذلك، فإنَّ المؤمنين الذين يَتألَّمون بسبب إيمانهم المسيحيِّ يَحسبونَ هذا الألَمَ امتيازًا لهم. فالرَّسول بولُس يقول: "لأَنَّهُ قَدْ وُهِبَ لَكُمْ لأَجْلِ الْمَسِيحِ لاَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا أَنْ تَتَأَلَّمُوا لأَجْلِهِ" (فيلبِّي ١: ٢٩). والكلمة اليونانيَّة المُترجمة "وُهِبَ" (كاريزوماي [charizomai]) تَعني "أُعطِيَ لَكُم على سَبيل النِّعْمَة". ويقول "جاي. بي. لايتفوت" (J. B. Lightfoot) في تَعليقه على هذه الآية: "الله وَهَبَكَ هذا الامتياز العظيم أن تتألَّم لأجل السيِّد المسيح؛ وهذه هي العلامة الأكيدة على أنَّه يَنظر إليك بعَين الرِّضى".[٢] لذلك، فإنَّنا نَقرأ أنَّ القادَةَ الدِّينيِّين "دَعُوا الرُّسُلَ وَجَلَدُوهُمْ، وَأَوْصَوْهُمْ أَنْ لاَ يَتَكَلَّمُوا بِاسْمِ يَسُوعَ، ثُمَّ أَطْلَقُوهُمْ. وَأَمَّا هُمْ فَذَهَبُوا فَرِحِينَ مِنْ أَمَامِ الْمَجْمَعِ، لأَنَّهُمْ حُسِبُوا مُسْتَأْهِلِينَ أَنْ يُهَانُوا مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ" (أعمال الرُّسُل ٥: ٤٠-٤١).

يُعَدُّ "بيتر كزْميتش" (Peter Kuzmic) أحدَ أبرز العُلماء المُتخصِّصين في دراسة النَّشاط الإرساليِّ للكنيسة في العالَم كُلِّه في وقتنا الحاضر. وقد كان أبوه قسًّا من طائفة جماعة الله الخمسينيَّة في ما كان يُعرف سابقًا بيوغسلافيا. وفي أحد الأيَّام، جاءَتِ السُّلطاتُ وهَدَمَت مَبنى الكنيسة التي كان يَرعاها. كما أنَّهم

حَبَسوه لفترةٍ من الزمن. وبعد إطلاق سراحه، وُضِعَ تحت الإقامة الجبريَّة حيث كان عليه أنْ يَزورَ المركزَ الأمنيَّ مَرَّتين في اليوم رُغم بُعْد المكان عن مَنْزله. وعندما كان يَذهب إلى هناك، كان رِجالُ الأمْن يضربونه ضَرْبًا مُبرِّحًا إلى أنْ يَتَوَرَّم خَدَّاه فلا يَعودُ قادرًا على تَناوُل الطَّعام. ويقول "كزْميتش" إنَّه يَتذكَّر والدَه وهو يَتَحَدَّث إلى أمِّه في وسط الألَم بشأن ذلك الامتياز بأنْ يتألَّم لأجل السيد المسيح وأنْ يَفعلوا به ما فَعَلوه بيسوع.

إنَّ الموقفَ الذي تَحَدَّثنا بشأنه حتَّى الآن في هذا الكتاب جليٌّ تمامًا في قصَّة رَواها "نورمان غرَب" (Norman Grubb) عن والد زَوجته المَدعو "تشارلز ستَد" (Charles Studd). كان "تشارلز" مُؤسِّس "إرساليَّة قلب أفريقيا" (Heart of Africa Mission) التي تُعرَفُ اليومَ باسم "الهيئة الدَّوليَّة للكرازة بالمسيح حول العالَم" (Worldwide Evangelization for Christ International). وقد عاش الجُزءَ الأكبرَ من حياته المِهْنيَّة في أدغال أفريقيا، وعاش نورمان معه لبَعض الوقت. وهو يقول إنَّ البريدَ كان يَصِلُ مَرَّةً واحدةً كلَّ أسبوعَين، وإنَّ تشارلز كان يَحتَفِلُ بِفَتح الرَّسائل.

وفي إحدى المرَّات، وَصَلَ مبلغٌ كبيرٌ من المال بالبريد فقال تشارلز: "مُبارَكٌ اسم الرَّبِّ إلى الأبد! فلأنَّه يَعرف أنَّنا زُمْرَةٌ من المُتَذَمِّرين، فقد أَرسلَ ما يَكفي لإسْكاتنا!" وفي مَرَّة أخرى، وَصَل مَبلغٌ ضئيلٌ من المال فقال: "هللويا! من المُؤكَّد أنَّنا نَنمو في النِّعمَة. فالله يَرى أنَّنا نَتَعَلَّم أنْ نَثِقَ به!" وفي إحدى المَرَّات، لم يَصِلْ أيُّ مَبلغ. حينَئذٍ قال تشارلز: "هللويا! مُبارَكٌ اسمُ الربِّ إلى الأبد! فنحن في الملكوت الآن لأنَّه في الملكوتِ لا يوجَدُ أكْلٌ أو شُربٌ؛ بل هناك فقط بِرٌّ وفرحٌ وسلامٌ في الرُّوح القُدُس".[٣]

ومع أنَّنا نَلمسُ رُوحَ الفُكاهة هُنا، فإنَّه يَنبغي ألَّا يَفوتَنا أنْ نَرى إيمانَ تشارلز الرَّاسخ بسيادة الله. فهذا الإيمانُ هو الذي مَكَّنَه من النَّظَر إلى كُلِّ تجرِبةٍ نظرةً إيجابيَّة.

الفصل الثّامن

بُقعةُ لاهوتيَّةُ عَمياء؟

لكُلِّ كنيسة في كُلِّ ثقافة تَحَدِّياتها الخاصَّة بها، أو ما يُمكنُنا أنْ نُسَمِّيه "بُقَعًا لاهوتيَّة عَمياء" تُعَرقِلُ نموَّ المؤمنين ونُضْجَهم في السيِّد المسيح. وفي رأيي، فإنَّ أخطرَ بُقْعَة عَمياء في الكنيسة الآسيويَّة هي توصيلُ الحَقِّ الكتابيِّ بأنَّه مع أنَّ "الله مَحَبَّة" (١يوحنَّا ٤: ٨ و١٦)، فإنَّه يُحَمِّلُنا مسؤوليَّةَ تَصرُّفاتنا الشخصيَّة. ففي "ثقافة العَيْب" التي تَتَبنَّاها العديدُ من الشعوب والثقافات، فإنَّ البَوْحَ بالخطايا التي اقترَفَها الشخصُ هو شيءٌ مرفوض ثقافيًّا؛ وهذا يَجعَلُ المُساءَلة الرُّوحيَّة شيءٌ يَصعُبُ قبولُه.

كذلك، أعتقدُ أنَّ أخطرَ بُقَعة لاهوتيَّة عَمياء في الكنيسة الغَربيَّة هي الفهم الخاطئ للألَم والمُعاناة. فيبدو أنَّ هناك تركيزًا كبيرًا على كيفيَّة تَجَنُّب المُعاناة وما يجب علينا فِعْله عندما نَتألَّم. فهناك الكثير من التَّعليم عن الهرب من الألَم

ومُعالَجته؛ لكنْ ليس هناك تعليمٌ كافٍ عن لاهوتِ الألَم. فالمؤمنون المسيحيُّون لا يَتلَقَّون تَعليمًا كافيًا عن ضَرورة توقُّع الألَم كأتباعٍ للسيِّد المسيح، أو عن الأهمِّيَّة البالغة للألَم من أجل نُموِّهم السَّليم كمؤمنين. وهكذا، فإنَّ الغالبيَّة يَنظرون إلى الألَم نظرةً سلبيَّة.

لقد صارَ المؤمنون ينظرون إلى الحياة الجيِّدة، والرَّاحة، والرَّفاهيَة، والخُلُوِّ من الهموم كحاجاتٍ أساسيَّةٍ وحقوقٍ طبيعيَّة. وإنْ لَم يَحْصُلوا على هذه الأشياء فإنَّهم يَعتقدون أنَّ الأمورَ ليست على ما يُرام. وعليه، عندما تأتي المتاعبُ أو الآلامُ فإنَّهم يَفعلون كلَّ ما في وُسْعِهم لتَجَنُّبها أو للتَّخفيف من تأثيرها. وغالبًا ما يؤدِّي ذلك إلى إعاقة النُّموِّ الرُّوحيّ؛ لأنَّ مشيئةَ الله لحياتنا هي أَنْ نَنْمو من خلال التَّجارِب والآلام.

وسنَرى لاحقًا أنَّ التَّعامُل مع الآخرين هو الذي يُسبِّبُ لنا الكثيرَ من الألَم في حياتنا. لذلك، فإنَّ الكثيرَ من البرامج التي تُقَدِّمُها الكنائسُ مُصَمَّمةٌ لتَجَنُّبِ مثل هذه التَّجارب المؤلِمة. فهي لا تُفْسحُ المجالَ للمؤمنين للنُّموِّ بطريقةٍ طبيعيَّةٍ من خلال احتكاكهم بالمؤمنين الآخرين واختبار خَيبة الأمل التي قد تَنجمُ عن ذلك من حينٍ إلى آخر. بل إنَّه، في بعض الأحيان، يُعلَنُ عن المجموعات الصغيرة في الكنيسةِ بطريقة تُؤكِّدُ للمُشاركين المُحتَمَلين بأنَّهم لن يُطالَبوا بالالتزام أو التعهُّد نحو أيِّ أمرٍ تقريبًا. فمَثَلًا، قد يَلتَحقُ المؤمنونَ بدراسةٍ ما لمُدَّة ثلاثة أشهر ثُمَّ يُسْمَح لهم بالانضمام إلى مجموعةٍ أخرى. وإحدى النَّتائج المؤسفة لهذا الأسلوب هو أنَّ الكثيرَ من المؤمنين لا يَحْظَون بأيَّة فُرصة لتَقوية رَوابط المُساءَلة الرُّوحيَّة مع مؤمنين آخرين، مع أنَّ هذه الرَّوابط مُهمَّةٌ جدًّا لنُموِّ كُلِّ مؤمن.

وهناك نَتيجةٌ مؤسفةٌ أخرى لعَدَم وجودِ أساسٍ لاهوتيٍّ سليم عن الألَم والمُعاناة وهي أنَّنا نُعاني أكثر ممَّا ينبغي عندما نُواجهُ الألَم أو الإحباط. فحيث إنَّنا نعيشُ في هذا العالَم الخاطئ، يجب علينا أنْ نَتوقَّع الألَمَ والمُعاناة. فأحدُ الأمور التي لا مفرَّ منها في الحياة على الأرض هو أنَّه لا يُمكنُ لأيِّ إنسانٍ أن يَتجَنَّبَ

الألَمَ والمُعاناةَ في حياته. وإنْ لَمْ يَتقبَّل المؤمنون المسيحيُّون الألَمَ كشيءٍ يَؤولُ إلى خَيْرهم في نهاية المطاف، فسيَعتَقدون أنَّ هناك خَطْبًا خطيرًا حالَ مُواجَهَتهم لأيَّة مُشكلة. وغالبًا ما تَعمَلُ تَعليقاتُ الآخرين على تَعزيز هذه الفكرة. وعندها، قد يفقدُ هؤلاء ثقتَهم بالله أو بالكنيسة، أو قد يُعانونَ من إحْباطٍ وشَكٍّ لا مُبرِّر لهما. وإنْ كُنتَ تُفكِّر وتَتَصرَّف بهذه الطريقة، فَمنَ المؤكَّد أنَّك لن تَختبرَ الفَرَح الحَقيقيَّ في حياتك!

وهناك نَتيجةٌ مؤسفةٌ ثالثةٌ ناشئةٌ عن عدم وجود أساسٍ لاهوتيٍّ سليم للألَم والمُعاناة وهي أنَّ بعض الأشخاص الذين يُعانون ويتألَّمون قد يتخلَّون عن دعوتهم الشَّاقَّة ويَلجأون إلى خِدمَةٍ أخرى أسهلَ وأيسَر. لكنَّهم، في هذه الأثناء، يكونون مُبتعدين عن أفْضَلِ ما أعَدَّه الله لهم. وهذا يؤدِّي- بدَوره- إلى إضعافِ تأثيرهم من وُجهة النَّظر الأبديَّة. فمَثَلًا، قد يَدعو الله زوجًا وزَوجته إلى الخدمة في وسط أُناسٍ مُعادين للإنجيل. وفي حال أنَّهما لم يَلمسا أيَّ ثَمَرٍ لسنين عديدة، قد يجدان صعوبةً بالغةً في احتمال الإحباط النَّاشئ عن هذه الخِدمة التي تبدو في ظاهرها عَقيمة- لا سيَّما عندما يُعَبِّر الأشخاصُ الذين يَدْعَمون خدمتهم عن رَغبتهم في رؤية نتائجَ مَلموسةٍ وقابلةٍ للقياس. وإنْ لَم يتمكَّن الزَّوجان من احتمال هذا الإحباط، قد يذهبان إلى مكانٍ آخر يبدو أنَّه يُلائمُهما أكثر من المكان الأوَّل. لكنْ رُبَّما كان الله يُريدُهما أنْ يَحْتَملا المَشقَّات في المكان الذي كانا فيه!

أو قد نَجدُ واعظًا ناجحًا اعتادَ لسنواتٍ عديدة أنْ يَعِظَ في رعيَّةٍ صغيرة تتألَّفُ من أشخاصٍ اهتَدَوا إلى السيِّد المسيح من ديانةٍ أخرى. وقد يَتلَقَّى هذا الواعظُ دعوةً للرُّجوع إلى بلده لرعاية كنيسةٍ تَضُمُّ بِضْعَةَ آلافٍ من الأعضاء. قد يبدو- في الظاهر- أنَّ مواهبَه سَتُستَخدَمُ بفاعليَّةٍ أكبرَ بكثير في نطاق الخدمة الجديد. لكنَّ التَّاريخ يَشهَدُ أنَّ الله أرسَلَ بعضَ أعظم المواهب في الكنيسة إلى أصعبِ الأماكن. لذلك، يجبُ على الأشخاص الموهوبين في الكنيسة أنْ يُكَرِّسوا أنفسَهم لِوَضْع استراتيجيَّاتٍ للوصول إلى الشعوب الأكثر مُقاومةً للإنجيل. لكنَّ فَهْمَنا

المغلوطَ للنَّجاح والمواهب يَجعَلُ فَرْزَ مثلِ هؤلاء الأشخاص لمثلِ هذه الخدمة شيئًا يَصْعُب تَبريرُه في وقتنا الحاضر.

لقد رأينا ظَاهرةً مُؤسفَةً عند السريلانكيِّين الذين يَعودون إلى بلدهم بعد دراستهم في الخارج وحصولهم على مؤهِّلاتٍ جَيِّدة في الدراسات اللَّاهوتيَّة. فيَبدو أنَّهم يَبحثون عن خِدمةٍ مثاليَّة يَشعرون فيها بالرِّضى التَّامِّ عن استخدامهم لمواهبهم، ويَحْصُلون مُقابلها على أجْرٍ يُناسب مؤهِّلاتهم. فهُم لا يَعودون من أجل التَّفاني في خدمة شَعبهم. وهذا أمْرٌ مُخزٍ بالفعل! فمع أنَّ هذا التَّفكير كان يُعدُّ أنانيَّةً بَحتَة في وَقْتٍ مَضى، فإنَّه صار في وقتنا هذا يَحظى لا بالقبول فحسب، بل بالاحترام أيضًا!

إنَّ سريلانكا بلدٌ فقيرٌ ولا يستطيع أن يُكافئ مَنْ يُكرِّسون أنفسهم لمواهبهم فقط. فالهيئات التي يَخْدِمُ فيه الخُدَّام غالبًا ما تُطالبُهم بالقيام بأشياءَ يبدو أنَّها تُبْعِدُهم عن دعوتهم الأصليَّة. وهذه الهيئات هي أشبَهُ بالجَسَد. وحيث إنَّ المؤمنَ الحقيقيَّ لا يستطيع أن يَفْصِلَ بين احتياجاته الشَّخصيَّة واحتياجات الجَسَد الواحد، فيجب عليه أنْ يُراعيَ احتياجاتِ هذا الجَسَد وأنْ يُلبِّيها. ومن البَديهيِّ أنَّ الأشخاصَ الذين اعتادوا الفرديَّة المُفرطة في بلادهم المُتْرَفة سيَجدونَ صعوبةً بالغةً في تطبيق ذلك.

لذلك، فإنَّ بعضَ هؤلاء الأشخاص المؤهَّلين والموهوبين يُغادرون سريلانكا بعدَ بضع سنواتٍ من الخدمة ويذهبون إلى بُلدانٍ يَعتقدون أنَّه يُمكنُهم فيها أنْ يَستخدموا مواهبَهم بطريقةٍ أفضل، أو قد يَذهبونَ إلى بلادٍ يَحصلون فيها على رواتبَ أفضل مُقابل خدماتهم. لكنْ غالبًا ما تكونُ الحاجةُ في البُلدان التي تَركوها أعظمَ بكثير من البلدان التي ذهبوا إليها.

وهناك مَن يُنْشِئون هيئاتهم الخاصَّة لكي يَتمَكَّنوا من كتابة الوَصْف الوظيفيِّ الذي يُلائم مُؤهِّلاتهم ومواهبهم، ولكي يَتَخلَّصوا من ذلك الالتزام الصَّعب الذي يُحَتِّم عليهم الخضوعَ للجَسد الواحد. وهناك أشخاصٌ يَختارون أنْ يصيروا

مُستشارين في مجال خبراتهم بحيث يُقَدِّمون معرفتهم المُتخصِّصة إلى العديد من الهيئات والكنائس دون أن يُضْطَرُّوا إلى الخضوع لأيٍّ منها أو للمُساءَلة أمامها.

رُبَّما لاحظتَ أنّي لَم أقْتَبِسْ أيَّةَ آيةٍ من الكتاب المُقدَّس في هذا الفصل. لكنْ إنْ أرَدْتُ أنْ أقتبسَ آيةً أو مَقطعًا من الكتاب المُقدَّس فأختارُ الرِّسالة الثانية إلى أهل كورنثوس كاملةً. وسأبدأ بالمَقطَع الذي يُشير إلى الأوقات العَصيبة التي مَرَّ بها بولُس ورفقاؤه: "فَإِنَّنَا لاَ نُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ ضِيقَتِنَا الَّتِي أَصَابَتْنَا فِي أَسِيَّا، أَنَّنَا تَثَقَّلْنَا جِدًّا فَوْقَ الطَّاقَةِ، حَتَّى أَيِسْنَا مِنَ الحَيَاةِ أَيْضًا. لكِنْ كَانَ لَنَا فِي أَنْفُسِنَا حُكْمُ الْمَوْتِ" (١: ٨-٩). وفي هذه الرِّسالة نَجِدُ خمسَ إشاراتٍ أخرى عن المُعاناة الشَّديدة التي عانَوا منها (٤: ٨-١٢؛ ٦: ٤-٥، ٨-١٠؛ ١١: ٢٣-٢٨، ٣٢-٣٣). وفي هذه الرِّسالة يَتَحَدَّث الرسول بولُس بشأن الشَّوكة التي في جَسَدِه والتي يَصِفُها بأنَّها "مَلاك الشَّيْطَانِ لِيَلْطِمَنِي" (١٢: ١-١٠).

وعلى الرُّغم من كلِّ هذا التَّركيز على الألَم، فإنَّ الفكرة الرَّئيسةَ لرسالة كورنثوس الثانية هي مَجْدُ الخِدْمَة: ابْتِهاج بولُس في الوعظ (The Glory of the Ministry: Paul's Exultation in Preaching). وهناك كتابٌ تَفسيريٌّ لرسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس الثانية يَحْمِلُ هذا العنوان ألَّفه "أ. تي. روبرتسون" (A. T. Robertson).[1] فقد كان لدى بولُس لاهوتٌ عن الألَم يُساعدُه في رؤية بَصيص أمَلٍ بالرُّغم من كُلِّ آلامه. فمثَلًا، هو يَختمُ حَديثه بشأن تَجربة الصَّلاة غير المُستجابة بشأن الشَّوكة التي عانى منها بقوله: "لأَنِّي حِينَمَا أَنَا ضَعِيفٌ فَحِينَئِذٍ أَنَا قَوِيٌّ" (١٢: ١٠). وقد عبَّر بولُس أحسنَ تَعبيرٍ عن بَصيص الأمَلِ هذا في وَسط الآلام من خلال قائمةٍ من العباراتِ المُتناقضة ظاهريًّا في هذه الرِّسالة:

... بِمَجْدٍ وَهَوَانٍ،
بِصِيتٍ رَدِيءٍ وَصِيتٍ حَسَنٍ.
كَمُضِلِّينَ وَنَحْنُ صَادِقُونَ،
كَمَجْهُولِينَ وَنَحْنُ مَعْرُوفُونَ،

كَمَائِتِينَ وَهَا نَحْنُ نَحْيَا،
كَمُؤَدَّبِينَ وَنَحْنُ غَيْرُ مَقْتُولِينَ،
كَحَزَانَى وَنَحْنُ دَائِمًا فَرِحُونَ،
كَفُقَرَاءَ وَنَحْنُ نُغْنِي كَثِيرِينَ،
كَأَنْ لاَ شَيْءَ لَنَا وَنَحْنُ نَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ (٢كورنثوس ٦: ٨-١٠).

وهذا هو الموقفُ الذي يُنْشئُه الفكرُ اللَّاهوتيُّ الكتابيُّ السليمُ عن الألَم والمعاناة لدى المؤمن. وكما قُلنا قبلًا، فإنَّ أكثرَ النَّاس فرحًا في العالَم هُم ليسوا أولئك الذين لم يَختَبروا الألَم؛ بل هُم أولئك الذين لا يهابونَه!

القِسم الثَّاني

الألَمُ يُقرِّبُنا من السيِّد المسيح

"... وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي ..."

كولوسّي ١: ٢٤

الفصل التَّاسع

شَرِكةُ الآلام

في الرِّسالة إلى أهل كولوسِّي ١: ٢٤، يَعْرِضُ الرَّسول بولُس سببَين لِعَدم تَمتُّعنا بالفرح في وَسط الألَم: "الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لأَجْلِكُمْ، وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي لأَجْلِ جَسَدِهِ، الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ". إنَّ بولسَ يَفرحُ، في المَقام الأوَّل، لأنَّه يُكَمِّل نَقائصَ شدائد المسيح. وهو يَفرحُ، في المَقام الثَّاني، لأنَّ هذه الآلام هي لأجل الكنيسة.

ويا لها من عبارة غريبة يَنطقُ بها الرَّسول بولُس هنا! فهو يقول: "وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي". والشيءُ المُؤكَّد هنا هو أنَّ الرَّسول بولُس- الذي تَعَمَّق في التَّعليم عن كفاية المسيح- لا يُمكنُ أن يَعْنِيَ بكلامه هذا أنَّ هناك حاجةً للقيام بالمزيد لِتَكميل ذَبيحة المسيح. أمَّا التَّفسيراتُ الكثيرةُ لهذه الجُملة فيُمكن تَصنيفها في فئتَين رئيستَين:

فالمجموعةُ الأولى من المُفَسِّرين يَرَونَ أنَّ هذه الجُملة تَعني أنَّ هناك نَصيبًا من الألَم الذي ما زال يجب على المؤمنين أن يُكابدوه لإكمال العمل الذي بَدَأ نتيجةَ موتِ السيِّد المسيح. وهناك فئةٌ تقولُ إنَّ هذا الألَمَ كان لازمًا لكي يُقَدِّرَ الناسُ نتائجَ العمل الذي قام به السيِّد المسيح. وهذا يَعني أنَّه مع أنَّ عَمَلَ السيِّد المسيح قد اكْتَمَل، فأنَّ قُبولَ رسالة مُعاناته لَم يَكتَملْ بَعدُ. وقد أرادَ بولُس أنْ يأخذَ على عَاتقه تلك الحصَّة اللَّازمة من الألَم الذي ينبغي احتمالُه من أجل انتشار الإنجيل في العالَم كلِّه. وهناك فئةٌ أخرى أيضًا تقول إنَّ بولُسَ يَتَحَدَّث هنا بشأن حصَّة الألَم التي ينبغي للكَنيسة أنْ تَحتَملَها (والتي تُدعى أحيانًا "الوَيْلات المَسيَّانيَّة") قبلَ أنْ يَنتهيَ الدَّهر ويأتي السيِّد المسيحُ ثانيةً.

ومع أنَّ هناك ما يُؤيِّدُ هذا الرأيَ العامَّ الذي يُنادي به العديدُ من كِبار عُلماء العهد الجديد، فإنِّي أعتقدُ أنَّ للرَّأي الآخر ما يُبَرِّرُه؛ لأنَّه يَتوافَقُ مع تَعليم الرَّسول بولُس عن الألَم. وقد كان هذا هو الرَّأيَ الذي تَبَنَّاه عُلماء العهد الجديد الأقْدَمون مثل "جون كالڤن" (John Calvin) و"متَّى هنري" (Matthew Henry). وفي وقتٍ لاحق، كان أستاذُ العهد الجديد "ديڤيد غارلاند"[1] (David Garland) أحدَ الأشخاص الذي تَبنَّوا هذا الرأيَ أيضًا. وبحسب هذا الرأي، فإنَّ ما يُريد بولُس أنْ يُكَمِّلَه هو خِبْرَتَه الشخصيَّة بآلام السيِّد المسيح. فالسيِّد المسيحُ هو المُخَلِّصُ المُتألِّم. وإنْ أرَدْنا أن نَتبعَه أو أن نكونَ مثلَه، يجب علينا أنْ نَتألَّم كما تألَّم هو. والرَّسول بولُس يُعَبِّر عن رغبته هذه بقوله في مَوضعٍ آخر: "... لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ" (فيلبِّي ٣: ١٠). ويُشير "پيتر أوبراين" (Peter O' Brien) إلى أنَّ بولُس يقولُ هُنا إنَّ اختبارَ قُوَّة قيامة السيِّد المسيح والمُشاركةَ في آلامه هُما جانبان من جوانب مَعرفة السيِّد المسيح.[2]

ويَستخدمُ الرَّسول بولُس كلمةً مَعروفةً في رسالته إلى أهل فيلبِّي ٣: ١٠ وهي "كوينونيا" (koinōnia)؛ وَتَرْجَمَتُها الحَرفيَّة هي "شَرِكَةُ آلامه" (كما وَرَدَت في ترجمة قاندايك-البُستاني العربيَّة). فهُناك وِحدَةٌ عَميقة بالسيِّد المسيح

لا يُمكنُنا أن نَختبرَها إلَّا من خلال الألَم. وقد اكتَشفَ بولس ذلك في بداية حياته المسيحيَّة عندما سَمِعَ يسوعَ يقول: "شَاوُل، شَاوُل! لِمَاذَا تَضْطَهِدُني؟" (أعمال الرُّسُل ٩: ٤). فقد كان شاوُل يَضْطَهِدُ الكنيسة؛ لكنْ مَن تَظُنُّ أنَّه كان يَشعرُ بالألَم؟ لقد اتَّحَدَت الكنيسة مع السيِّد المسيح اتِّحادًا حقيقيًّا من خلال الألَم حتَّى إنَّه عندما كان بولُس يَضْرِب الكنيسة فقد كان- في واقع الأمر- يَضْرِبُ السيِّدَ المسيح. وفي وقتٍ لاحق، تَحَدَّثُ بولُس بِعُمْقٍ بشأن مَعنى أن نكون "في المسيح". وهو يقول في وَصْفه لميراثنا في السيِّد المسيح: "فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ" (رومية ٨: ١٧). فعندما نتألَّم فإنَّنا نَتألَّم مع السيِّد المسيح.

وماذا لو كانَتْ أعظم رغبةٍ في حياتنا هي أنْ نَلْتَصِقَ بيَسوع، ثُمَّ أدرَكْنا أنَّ الألَمَ سيُساعدُنا على تحقيق طُموحِنا هذا؟ إنْ كانَ الأمرُ كذلك، فلن يكونَ الألَمُ مُشكلةً كبيرةً لدينا. فسيَكونُ ذلك شبيهًا بالتَّعب الذي نَختَبرُه لاجتياز امتحان ما أو للفوز بميدالية ذَهبيَّة في الألعاب الأولمبيَّة. وهذا يُذَكِّرُني بالمُبَشِّر الإنجيليِّ والمُصْلِح الاجتماعيِّ الياباني "تويوهيكو كاغاوا" (Toyohiko Kagawa)، والذي عاش في الفترة ما بين ١٨٨٨-١٩٦٠، وسَنَذْكُرُ المزيد عنه لاحقًا. ففي وقتٍ من الأوقات، ظَنَّ تويوهيكو أنَّه أُصيبَ بالعَمى (رُغم أنَّ ذلك لم يَحدُث). وقد كان رَدُّ فعْله على ذلك هو أنَّه قال: "الظَّلام! الظَّلام هو قُدْسُ أقْداسٍ لا يُمكِن لأحدٍ أنْ يَسلبَني إيَّاه. ففي الظَّلام أتقابَل مع الله وَجْهًا لوجْه".[٣]

كذلك، قال مُبَشِّرٌ صينيٌّ أمضى سنواتٍ عديدةً في السِّجن: "إذا قَبِلْتَ الألَمَ الناشئ عن إيمانك كامْتياز، فسيَصيرُ هذا الألَمُ صَديقَك، وهو سيُقرِّبُك إلى الله أكثر فأكثر".[٤] وقد قال قِسٌّ رُومانيٌّ عانى هو الآخر في ظِلِّ النِّظام الشُّيوعيّ: "المؤمنون المسيحيُّون يُشبهون المسامير؛ فكُلَّما ضَرَبْتَهم بقُوَّةٍ أكبر، زادوا نَفاذًا واخْتِراقًا".[٥]

عندما آمن سَنْدَر سِنْغ بالسيِّد المسيح وهو في سِنِّ المُراهقة، سَمَّمَه إخوتُه

وطَرَدوه من البيت. وبعد أن شُفيَ بمُعجزَة، كَرَّس حياته للمُناداة بالإنجيل. وفي أحد الأيَّام كان يَعِظُ بالقُرب من بيت أهله، فَقَرَّر أنْ يَزورَ أباه. لكنَّ قَلبَه انْفَطَرَ حين عامَلَه أبوه كشخصٍ مَنبوذ. فقد أمَرَه أنْ يَجلسَ بعيدًا لكي لا يُنَجِّسَ العائلةَ أو أيٍّ من آنِيَتها. وعندما طلبَ أنْ يَشْرَب، سَكَبَ أبوه ماء الشُّرب في يدَيه وهو يَرفع إبريقَ الماء عاليًا لئلاَّ يلمسَه فيُنَجِّسه!

ويقول سَنْدَر سِنْغ عَنْ رَدِّ فِعْله آنذاك: "عندما رأيتُ أبي يُعامِلُني بتلك الطَّريقة، لَم أتمكَّن من حَبْس دُموعي لأنَّ أبي الذي كان يُحبُّني كثيرًا بات يَكْرَهُني كما لو كُنتُ شيئًا بَغيضًا". وعلى الرُّغم من ذلك الألَم، فقد اختَبَرَ سَنْدَر سِنْغ شَرِكَة آلام السيِّد المسيح فقال: "رُغم كُلِّ ما حَدَث، كان قَلبي مَلآنًا بسلامٍ عَجيب. لذلك، فقد شَكَرْتُ أبي على تلكَ المُعاملة أيضًا... ووَدَّعتُه باحترام، وانْصَرَفْت. وفي أثناء سَيْري في الحُقول، صَلَّيتُ وَشكرْتُ الله، ثُمَّ نِمْتُ تحت شجرة. وفي الصباح، تابَعْتُ السَّير".[٦] والجَدير بالذِّكْر أنَّ والدَ سَنْدَر سِنْغ قَبِلَ السيِّدَ المسيح قبلَ وقتٍ قصيرٍ من وفاته.[٧]

إنَّ التمتُّعَ بعلاقةٍ وَطيدةٍ بالسيِّد المسيح هو أحلى خَبْرة في الحياة وأكثرُها إشْباعًا. والشخصُ الذي يُدركُ ذلك سيَكون مُستعدًّا لفُقدان أيِّ شيءٍ أو التخلِّي عنه في سبيل تَعميق تلكَ الشَّرِكَة الحميمة. وهذا هو ما حدثَ للمُرسَلَين "جون ستام" (John Stam) وزوجته "بيتي" (Betty) اللَّذين خَدَما في الصِّين. فقد قُتِلا على يَد الشيوعيِّين في سنة ١٩٣٤ وهُما في سنِّ السَّابعة والعشرين والثَّامنَة والعشرين. ومن أقوال جون ستام: "حتَّى لو أخَذْتُم كُلَّ ما لَديَّ فإنَّكُم لَن تَحْرِموني من حَلاوة السَّير مع مَلِكِ المَجدِ والتمتُّع بالتَّحَدُّث إليه".[٨]

وإنْ كنَّا مُتَشَوِّقين الى مثْل هذه العلاقة الحميمة بالسيِّد المسيح، فستَنْكَسرُ شَوكَةُ الألَم عندما نَعْلَمُ يقينًا أنَّ هذا الألَم يُعَمِّق هذه العلاقة. لذلك، فنحن لا نَخشى الألَم. بل عندما يأتي الألَم، فإنَّنا نُحَوِّلُه إلى فُرصة لتَحقيق طُموحنا في الاقتراب أكثرَ فأكثر من يسوع المسيح. وقد عَبَّرَ "غراهام كَنْدرِك" (Graham Kendrick) أجملَ

تَعبيرٍ عن هذا التَّوْقِ إلى مَعرفة يسوع في تَرنيمةٍ كَتَبَها بنفسه قال فيها:

كُلُّ مَا أَحسَبُه نَفيسًا وبَنَيْتُ حَياتي عَليه،
وَكُلُّ ما يَبَجِّلُهُ العالَم ويُحارِب لاقْتِنائِه؛
وكُلُّ ما ظَنَنتُه يومًا رِبْحًا، حَسِبْتُه الآن خَسارَة،
لأَنَّهُ فَانٍ وَلا قِيْمَةَ لَهُ بالمُقارَنَةِ بِهذا:

أنْ أعْرِفَكَ يا يَسوع، أنْ أعْرِفَكَ
فَمَا من شَيءٍ أعْظَم من هذا.
أنتَ كُلُّ ما لَدَيَّ، أنْتَ الأفْضَل،
أنْتَ فَرَحي، وَأنْتَ بِرّي،
كَمْ أُحِبُّكَ يا رَبّ!

شَوْقُ قَلبي الآنَ هُوَ أنْ أعْرِفَكَ أكثَر،
وَأنْ أُوجَدَ فيكَ، وَأَصيرَ من خَاصَّتك،
وأنْ أمْتَلِكَ بالإيمانِ ما عَجِزْتُ عن كَسْبِه؛
هبةَ البِرّ التي هي أثْمَنُ من أيِّ شَيءٍ آخَر.

آهٍ كَم أتوقُ لأنْ أعْرِفَ قُوَّةَ حياتِكَ المُقامَة،
وأنْ أعرِفَكَ في آلامِكَ؛
وَأنْ أَصيرَ مِثْلَكَ في مَوتِكَ، رَبّي،
لِكَيْ أحْيا مَعَكَ ولا أرى الموتَ ثانِيَة.[٩]

الفصل العاشر

التَّشَبُّه بالسيِّد المسيح

كنَّا قد خَتَمْنا الفَصلَ السَّابق بِتَرنيمةٍ ألَّفَها "غراهام كَنْدرِك" قال في المَقطع الأخير منها:

وأنْ أَصيرَ مِثْلَكَ في مَوتِكَ، رَبّي،
لِكَيْ أحْيا مَعَكَ ولا أرى الموتَ ثانِيَة.

إنَّ هذه الكلمات تُرينا- من زاويةٍ أُخرى- كيف أنَّ الألَمَ يُقرِّبُنا من يسوع؛ فهو يُساعدُنا على التَّشبُّه به.

قبلَ بِضْع سنوات، بَحَثتُ في العهد الجديد عن جميع الآيات التي تَتحدَّث بشأن يسوع كَقُدوةٍ تُحتَذى. وقد عَثَرْتُ على بعض الجمَلِ والعِباراتِ مثل: "كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي كَمَا أَنَا أَيْضًا بِالْمَسِيحِ" (١كورنثوس ١١: ١). كما إنِّي عَثَرْتُ أيضًا

على آياتٍ أُخرى تُوصينا بأن نَغْفِرَ للآخَرين وأنْ نَتَرَفَّق بهم كما فعلَ السيِّدُ المسيحُ لنا (أفسُس ٤: ٣٢؛ كولوسّي ٣: ١٣). كذلك، فإنَّ يسوع نَفسَه يُوصينا أنْ نَتبَعَ مثالَهُ في غَسْلِ أرْجُلِ التَّلاميذ (يوحنَّا ١٣: ١٤)- أي أن يَخْدمَ بَعْضُنا بَعْضًا. لكنَّ الشيءَ الذي لاحَظْتُه هو أنَّ غالبيَّة الشَّواهد الكِتابيَّة كانت تَتَحَدَّثُ بشأن التَّشبُّه بالسيِّد المسيح في آلامِه.

وأوضَحُ مَثلٍ على التَّشَبُّه بالسيِّد المسيح مَوجودٌ في الرِّسالة إلى العبرانيِّين ١٢: ١-٢ حيث نَقرأُ: "وَلْنُحَاضِرْ بِالصَّبْرِ فِي الْجِهَادِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَنَا، نَاظِرِينَ إِلَى رَئِيسِ الإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ". وغالبًا ما نَتَوقَّف هنا ونَنسى أنَّ الشَّيء المَطلوبَ منَّا هو أنْ نَتألَّمَ مثلما تألَّم يسوع. فَتتمَّةُ الآية تقول: "الَّذِي مِنْ أَجْلِ السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ، احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِالْخِزْيِ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ اللهِ" (عبرانيِّين ١٢: ٢).

ومع أنَّنا نَعرفُ أنَّ يسوعَ قام من الأموات بِنُصْرَةٍ عَظيمة، فإنَّه ليس من السَّهل علينا أن نَتَشبَّه به في موته- ولا سيَّما مع كلِّ هذا التأثير الذي نَتَعَرَّض له بسبب لاهوتِ الازدهار المُنتشر في هذه الأيَّام. فنحن نُصغي إلى واعظين مَشهورين يَعظون بأنَّه ما دام السيِّدُ المسيحُ قد حملَ اللَّعنةَ عنَّا، فقد تَحرَّرْنا من عَواقب اللَّعنة. وعليه، لا يَجدرُ بنا أن نتألَّم. لهذا، فإنَّ كُلَّ مَن يَتَقبَّلون الألَمَ دون مُقاومةٍ يُتَّهمون بضعف إيمانهم. وقد أدْلى الرَّسولُ بُطرس بدَلْوه في هذا الأمر فقال: "فَإِذْ قَدْ تَأَلَّمَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا بِالْجَسَدِ، تَسَلَّحُوا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهذِهِ النِّيَّةِ" (١بطرس ٤: ١). وهناك وابِلٌ من الآراء الغريبة التي تَزعُمُ أنَّه إنْ كنَّا نتألَّم، فإنَّ السَّببَ في ذلك يَرجع إلى اقترافنا للأخطاء أو الخَطايا! لكنَّ الله يُوصينا بأن نُسَلِّح أنفُسنا بفِكْرِ السيِّد المسيح الذي تألَّمَ في الجسد. وإنْ كان يسوعُ قد اختبرَ الألَمَ الجسديّ، فقد نَختبرُه نحن أيضًا. لذلك، يجب علينا أن نبدأ في التَّفكير في الألَم كما افْتَكرَ السيِّدُ المسيحُ فيه. كما يجب علينا أنْ نُواجهَ الألَمَ ونترقَّبَ الخيرَ الذي سيأتي منه.[1]

كنَّا قد ألقَيْنا نَظرةً على كلمات الرَّسول بولُس الواردة في فيلبِّي ٣: ١٠،

ورأينا كيفَ أنَّه يُريد أن يَختبرَ شَركةَ آلام السيِّد المسيح. وهو يَتوسَّعُ في حديثه فيقول: "مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِه". والفعْل المُترجم هنا "مُتَشَبِّهًا" هو "سَمُرفيزو" (summorphizo)؛ وهو يَعني "يُحاكي شَيئًا آخرَ في الشَّكل أو الأسلوب".[٢] وهكذا، عندما نَتألَّم مع السيِّد المسيح، فإنَّنا نصيرُ مُشابهين له.

وتَتَكَرَّر الفكرةُ نفسُها في النَّصِّ المألوف (رومية ٨: ٢٨-٢٩) إذ نقرأ:

"وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِه. لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِه، لِيَكُونَ هُوَ بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ". والخَيْر الذي يُمكنُ أنْ يَتأتَّى من جميع خبراتنا وتجاربنا هو أنَّنا سنَصيرُ مُشابهينَ للصُّورة التي جَعلَنا الله عليها في تَعْيينه المُسبق لنا: أيْ أنْ نُشابهَ صُورَةَ السيِّد المسيح.

ويُواصلُ بولُس حَديثه فيقول إنَّه عند حدوث ذلك، سيَصيرُ يَسوعُ بِكرًا لنا (رومية ٨: ٢٩). لكنْ ألَسْنا نَقرأُ أنَّ يَسوع كانَ وما زالَ "بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ"؟ أجل، إنَّه أخونا البِكْر! لكنْ إنْ لَم نتَصَرَّف مثله، فلن يكونَ كذلك لأنَّنا لن نكونَ على الصُّورة التي يُريدُنا الله أن نكون عليها. وقد يَعني هذا أنَّنا نُعاني من عدم الثَّبات وعدم القُدرة على اختبار المعنى الحَقيقيِّ لأُخُوَّة السيِّد المسيح. أمَّا عندما نصيرُ مُشابهين له، فإنَّه يصيرُ أخًا لنا بكُلِّ ما تحملُ الكلمة من معنى. كما أنَّنا نصيرُ على الصُّورة التي أرادنا الله أنْ نَكون عليها. وعندها، سوف نَختبر السَّلام – أو الكَمال – الذي أرادنا الله أن نَختبره عندما خَلَقَنا.

وقد أَظْهر استفانوس المَعنى الحقيقيَّ للتَّشبُّه بالسيِّد المسيح في آلامه قُبَيلَ اسْتشهاده. فنحن نَقرأُ أنَّ القادةَ الدِّينيِّينَ اليهود "حَنِقُوا بِقُلُوبِهِمْ وَصَرُّوا بِأَسْنَانِهِمْ عَلَيْهِ" (أعمال ٧: ٥٤). لكنْ في الوقت الذي كان فيه استفانوس يَختبر شَركةَ الآلام مع السيِّد المسيح بأقوى صُوَرِها، نَقرأُ ما يلي: "وَأَمَّا هُوَ فَشَخَصَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مُمْتَلِئٌ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، فَرَأَى مَجْدَ اللهِ، وَيَسُوعَ قَائِمًا عَنْ يَمِينِ اللهِ" (العدد ٥٥). في الوقت نفسه، كان أعداءُ استفانوس قد عَزَموا على إعدامه

رَجْمًا. أمَّا استفانوس، الذي كان في تلك الأثناء يَختَبِرُ شَرِكَة الألَم من خلال قُرْب السيِّد المسيح منه، فقد بدأ يَفْعَل ما فَعلَه يسوع عندما صُلِبَ: "فَكَانُوا يَرْجُمُونَ اسْتِفَانُوسَ وَهُوَ يَدْعُو وَيَقُولُ: «أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ اقْبَلْ رُوحِي». ثُمَّ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «يَارَبُّ، لاَ تُقِمْ لَهُمْ هذِهِ الْخَطِيَّةَ». وَإِذْ قَالَ هذَا رَقَدَ" (العَدَدان ٥٩ و٦٠).

لقد فَعَلَ النَّاسُ باستفانوس ما فَعلوه بالسيِّد المسيح. لكنْ لأنَّه اختَبَرَ قُرْبَ السيِّد المسيح في ذلك الوقت، فقد بدأ يَفعل الأشياءَ ذاتها التي فَعَلَها يسوع قبلَ موته.

وهذا يُذَكِّرُني بِرَجُلٍ صينيٍّ يُدعى "تشانغ مِن" (Chang Men) أُصيبَ بالعَمى في الثَّلاثينيَّات من عُمره فصارَ يُعْرَفُ بتشانغ الضَّرير. لكنَّ النَّاس أطلَقوا عليه لَقبًا آخر وهو "وُو سو بو وي تي" (Wu so pu wei te)؛ وكانَ ذلك اللَّقَب يُلَخِّصُ نظْرَة النَّاس إليه. فقد كان ذلك اللَّقَب يَعني "الرَّجُل الخالي من أيِّ صَلاح". فقد كان جيرانُه يُؤمنون بأنَّه أُصيبَ بالعَمى عقابًا له على حياته الشِّريرة. فقد كان الجميعُ يَعرفون أنَّه طَرَدَ زَوجته وابنته من بَيته، وأنَّه يُقامر ويَسرق، وأنَّه زِيرُ نساء. وفي أحد الأيَّام، سَمعَ تشانغ أنَّ بعضَ العُميان نالوا الشِّفاء في مَشفًى للمُرسَلين؛ فذهب إلى هناك للعلاج. وقد حصلَ تشانغ لا على نِعْمَة الإبصار الجُزئيِّ فحسب؛ بل حصلَ على ما هو أفضل من ذلك: نِعْمَة الإبْصارِ الرُّوحِيِّ أيضًا بسبب تَجاوُبِه مع رسالة الإنجيل.

بعد ذلك، أرادَ تشانغ أن يَعْتَمِدَ في الماء، لكنَّ أشخاصًا أخبروه بأنَّ مُرْسَلًا سيَأتي إلى قَريته ويُعَمِّدُه لاحقًا. وعندما جاءَ المُرْسَلُ بعد خمسة أشهر، اتَّضَحَ أنَّ أربع مئة شخص يُريدون أن يَشْهَدوا عن إيمانهم من خلال مَعموديَّتهم بسبب شهادة تشانغ! وفي وقتٍ لاحق، خَضَعَ شانغ لِعَمليَّةٍ أُخرى في مشفًى محلِّيٍّ على أمل أنْ يَتَحسَّن بَصَرُه؛ لكنَّ العمليَّة أفْقَدَتْه القُدرة على الإبصار تمامًا. رُغم ذلك، صارَ تشانغ الضَّرير مُبَشِّرًا مُتجَوِّلًا، وكان يَحْفَظُ عن ظَهْرِ قَلْبٍ العهد الجديد بأكمله

تقريبًا، والكثير من أصحاحاتِ العهد القديم.

وفي نهاية القرن التّاسع عشر قامَتْ ثورة المُلاكمين (The Boxer Rebellion) في الصِّين حين بدأت مجموعةٌ من المُتطرِّفين بمُهاجمة الأشخاص المُرتبطين بالغَرْب. ونتيجةً لذلك، استُشهِدَ مئات المُبشِّرين وآلاف المؤمنين المسيحيِّين. وفي إحدى البَلْدات، ألقى الثُّوارُ القبضَ على خمسين من المؤمنين، وكانوا يَعتزمون قَتْلهم. لكنَّهم سَمعوا أنَّه مُقابل كلِّ مَسيحيٍّ يَقتلونه، سيَظهرُ عشرةٌ في المقابل. لذلك، فقد قَرَّروا أنْ يَقتلوا قائدَ تلك المجموعة وهو تشانغ الأعمى. وحينَ سألَ الثُّوَّارُ المساجينَ عن مكان تشانغ، رفضَ الجميعُ أنْ يَخونوه. وفي وقتٍ لاحق، تمكَّنَ أحد المؤمنين من الفَرار فجاء إلى تشانغ وأخبره بما حَدَث.

حينئذٍ، سَلَّمَ تشانغ نفسه على الفور إلى أولئك الثُّوَّار الذين أمَروه أن يَسْجُدَ لإله الحَرب في مَعبَدهم. وعندما رَفَض ذلك، وضعوه في عَرَبةٍ مفتوحةٍ وطافوا به البلدَةَ في الطريق المؤدِّي إلى مقبرةٍ خارجَ البلدة. وفيما هُم يَطوفون، كان تشانغ يُرَنِّم قائلًا:

يَسوعُ يُحِبُّني، ذاك الذي ماتَ
لكي يَفتحَ بابَ السَّماءِ على مِصْراعَيه؛
سَيغْسلُ خَطاياي،
وَيسْمَحُ لي بالدُّخول.

يَسوعُ يُحِبُّني، وهو سيَبقى
قريبًا منِّي طولَ الطَّريق؛
إنْ كُنتُ أُحبُّه فعند مَوتي
سيَصْحَبُني إلى بَيتي السَّماويّ.

في النِّهاية، ضُربَ عُنُقُ تشانغ بالسَّيْف. وكانت آخر كَلِماتٍ نَطَقَ بها هي: "أبي السَّماوي، اقْبَلْ رُوحي".[٣]

هل تَرى كيف أنَّ الآلامَ جَعَلَتْ تشانغ مُشابهًا للسيِّد المسيح؟ فعندما رأى أنَّ إخوته وأخواته في المسيح في محنَة حقيقيَّة، لَم يَهْرُبْ ولَم يَختبئ في مكانٍ آمنٍ كما قد يَفعلُ الرَّاعي الأجير. بل إنَّه بذلَ نَفسَه عن الخراف- تمامًا كما يَفعَلُ الرَّاعي الصَّالح (انظُر يُوحنَّا ١٠: ١١- ١٥). وقُبَيلَ مَوته، أَنْشَدَ عن قُرْب السيِّد المَسيح وعن رَجائه في أنْ يَستقبله في السَّماء. وقد كانتْ آخر كلماتٍ نَطَقَ بها شبيهةً جدًّا بالكلمات الأخيرة التي نَطَقَ بها يسوع قَبل مَوته.

الفصل الحادي عَشَر

تَنقِيةُ الدَّوافع

يُحاول غالبيَّة خُدَّام الله أنْ يَخدموا بدافعٍ نَقِيٍّ وهو القيام بكلِّ شيءٍ لِمَجْد الله. لكنْ من الصَّعب جدًّا أن نَعرفَ متى تكونُ دوافعُنا نَقيَّةً ومتى تكونُ أنانيَّة. فنَحنُ نُريد أن نقومَ بأفضل عَمَلٍ مُمكنٍ في كلِّ ما نفعلُه لأجل الله. لكنْ لماذا نُريد القيام بذلك؟ هل لأنَّنا فقط نُريد لله أنْ يتمَجَّد، أم أنَّ هناك أيَّ قَدْرًا، ولو ضئيلًا، من الطُّموح الأنانيِّ الذي يَدفعنا لأنْ نكونَ أفضل من الآخرين؛ أو هل هناك أيُّ طُموحٍ آخر لا يَليقُ بالإنجيل؟

ولأنَّه من العَسير علينا أنْ نُمَجِّد الله بكلِّ ما تحملُ الكلمة من مَعنى في كلِّ ما نَفعل، فغالبًا ما يَسمَحُ الله لنا ببعض التأديب لمُساعدتنا على تَنْقيَة دوافعنا. ونقرأُ في الرِّسالة إلى العبرانيِّين ١٢: ٣-١١ حَديثًا مُطَوَّلًا بالكيفيَّة التي يؤدِّبُ فيها الله الذينَ يُحبُّهم لكي يَتنمُّوا في النِّعمة.

ويُعَلِّمُ يَعقوبُ المبدأَ نَفسَه إذْ يقول: "اِحْسِبُوهُ كُلَّ فَرَحٍ يَا إِخْوَتِي حِينَمَا تَقَعُونَ فِي تَجَارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ، عَالِمِينَ أَنَّ امْتِحَانَ إِيمَانِكُمْ يُنْشِئُ صَبْرًا" (يعقوب ١: ٢-٣). فالتَّجارِبُ إذًا تَمتَحِنُ إيمانَنا! وهذه الآية تُشَبِّهنا بالمَعادن التي تُوضَعُ في النَّار لتَنْقيَتها من الشَّوائب العالقة فيها.

في مؤتمرٍ دَوليٍّ عُقِدَ مُؤخَّرًا، كُنتُ قد قَدَّمْتُ سلسلةً من الرَّسائل وَزَّعتُها على عِظَتَيْن. في العظَة الأولى، لم أكنْ مُتأكِّدًا تمامًا من الوقت المُخَصَّص لي. وعندما أدركتُ ذلك في أثناء حديثي، كان ينبغي لي أن أُسرعَ قليلًا كَي أُنْهيَ عظَتي في الوقت المحدَّد. ولا أدري كيف بدأتُ أتكلَّم بسرعة. ولأنَّ الإنكليزيَّة لَم تَكُنِ اللُّغَةَ الأُمَّ لغالبيَّة الحضور، فقد وَجدوا صُعوبةً في فَهْم ما قُلتُه. وبسبب تَوتُّري، فَقَدْتُ شُعوري بالحرِّيَّة في أثناء حديثي. وحال انتهائي، أدركْتُ أنَّ الرِّسالة لم تُفْهَم جيِّدًا. وبعد انتهاء جميع المُتكلِّمين، جاءَ بعض الأصدقاء الذين كانوا حاضرين، والذين أدرَكوا أنَّ أدائي لَم يَكُن جيِّدًا، وَقَدَّموا إليَّ بعضَ النَّصائح الكفيلة بتَحسين أدائي في العِظَة الثانية.

ذهبتُ إلى غُرفتي وأنا مَهزومٌ من الدَّاخل. فلم يكنْ ثَمَّة شيءٌ أخشاه في حياتي أكثرَ من أن أخْدمَ من دون تلك الحرِّيَّة النابعة من يَقيني بأنَّ مِسْحَةَ الرُّوح القُدُس تُرافِقُني. وفي الحقيقة أنِّي لم أشعُرْ بذلك الشُّعور في تلك الأُمسيَّة. لذلك، فقد أرسلْتُ رسالةً نَصيَّةً إلى زَوجتي وطَلَبتُ منها أن تتَّصل بي. وعندما اتَّصَلَتْ أخبَرتُها بما حَدَث، وطَلَبْتُ منها أن تُخبرَ أصدقائي كي يُصَلُّوا لأجل عِظَتي الثانية في صَباح اليوم التَّالي. كما طَلَبْتُ منها أنْ تُصَلِّيَ لأجلي قبلَ أن تُنهيَ المُكالمة. وفي تلك الليلة، راجَعْتُ بِجِدٍّ عِظَتي الثَّانية وحَذَفْتُ أجزاءً منها كي لا أُضطرَّ إلى التكلُّم بسرعة مرَّة أخرى. وفي صباح اليوم التالي، سارَ كُلُّ شيءٍ على ما يُرام. وقد جاءَني الأصدقاء نفسهم الذين قَدَّموا إليَّ تلك النَّصيحة في الليلة الماضية وَعَبَّروا عن فَرَحهم لأنَّ الله استخدمَ تلك العظة.

وفي أثناء تَفكيري في ذلك، حاولْتُ أنْ أفهم ما حَدَث. حينئذٍ، تَذَكَّرْتُ أنِّي

التَقَيتُ في الأيَّام القليلة التي سَبَقَت المؤتَمر العديدَ من الأشخاص الذين أخبروني بمَدى إعجابهم بكُتُبي وعِظاتي التي قَدَّمتها في العديد من المؤتمرات. وعندها، أدركتُ أنَّي أُصِبْتُ بالغُرور. فقد أرَدْتُ أن تكون عِظَتي في ذلك المؤتَمر مُميَّزة. لكنَّ دافِعي تَحَوَّلَ من التَّوق الشَّديد إلى تمجيد السيِّد المسيح إلى الرَّغبة المُلحَّة في أن يَرى النَّاسُ قُدراتي كواعظٍ ومُعَلِّمٍ للكتاب المُقدَّس. وقد قادَني ذلك الدَّافع إلى الوَعظ بقُوَّتي الذاتيَّة فقط لأنَّ الله لا يُعطي مَجدَه لآخَر. ولو أنَّ مثلَ هذه المواقِف تَغلغَلتْ في داخلي لصارَتْ خِدمتي عاجِزَةً عن إرضاءِ الله، ولَمَا بَقِيَتْ مِسحَتُه عليَّ!

لقد سَمَحَ الله لي، بمُقتضى نِعمته الغنيَّة، بأنْ أُخفقَ في عظَتي تلك لكي يُنَقِّيَ دَوافعي. وقد وَبَّخْتُ نفسي وشَكَرْتُ الله على تأديبه لي قائلًا: "شُكرًا يا رَبّ؛ فقد كُنْتُ بحاجةٍ إلى ذلك!" ورغم عدم نَقاوةِ دوافعي، فإنِّي رَجَوْتُه أن يُساعدَني حتى أسعى إلى تَمجيده في كُلِّ ما أفعل.

وإنَّه لَمِنَ المُحْزن حقًّا أنْ نَعرفَ أنَّ سببَ غالبيَّة المشاعر المُزعِجة التي نَختَبِرُها نحو المؤمنين هو أنَّ البعضَ يَتصرَّفون بدوافعَ غير نقيَّة. فمثلًا، إذا عانى المؤمنُ بسبب ظُلم الآخرين فإنَّه لا يَهدَأ له بالٌ إلَّا عندما تَثبُتُ براءَتُه ويعرفُ الجميعُ أنَّ الذين ظَلَموه كانوا على خطأ. وفي أحيان أخرى، قد يَكونُ السَّبب في وجود المشاعر المُضطربة هو أنَّ البعضَ يَطْمَحون لِتَوَلِّي مَنْصِبٍ ما في الكنيسة. ومن المؤسف حقًّا أن نَرى الطريقةَ التي يُنتَخَبُ بها القادةُ البارزون في بعض الكنائس حول العالَم. فهناك مَن يَدفَعون الرَّشاوى للنَّاس كي يَنتخبوهم! وهناك مَن يَلجَأون إلى الغِشِّ والخِداع لضمان حُصول أحد المُرَشَّحين على مزيدٍ من الأصوات. وهُناك مَن يَنشرون الفضائحَ عن المُرَشَّحين الآخرين لكي يَضْمَنوا فوزَهم في الانتخابات الكَنسيَّة. ناهيك بأنَّ كثيرين يَلجأون إلى المحاكم بسبب قضايا تافهةٍ دون أنْ يَكترثوا إلى حقيقة أنَّ تلك المُشاجرات التي تَجري بينهم على مَرأى من النَّاس تُلحِقُ الإهانة باسْم السيِّد المسيح. ولا أُخفي عليكم أنَّ جسدي يَقْشَعِرُّ عندما أُفكِّر في ما سيَحدُث لهؤلاء النَّاس يوم الدَّينونة!

كان "ألبرت أوزبورن" (Albert Osburne) أشهرَ كاتبِ ترانيم في إحدى الهيئات المسيحيَّة التي تُعرف باسم "جيش الخلاص" (Salvation Army). وعندما كان خادمًا شابًّا في لُندن، حَدَثَتْ نَهْضَةٌ روحيَّةٌ في المنطقة التي كان مَسؤولًا عنها. حينئذٍ، جاء أحدُ الخُدَّام الآخرين وقال له إنَّ القادةَ يُخَطِّطون لتَقسيم منطقته، ثُمَّ تَوَسَّلَ إليه كي لا يَسمحَ بحدوث ذلك. وقال له إنَّ الله يُبارِكُ منطقته ببَرَكة لا توصَف، وإنَّ تقسيمها سيُعيق عَمَل الله. أخيرًا، قال ذلك الخادم لألبرت أوزبورن: "أعتقدُ أنَّه يجب عليك أنْ تُحارب هذه الفكرة". حينئذٍ، رَدَّ أوزبورن قائلًا: "أوه، لا! فيجب عليَّ أنْ أفعلَ مشيئةَ الله وأنْ أحترمَ قادَتي. لن أفعلَ ذلك!"

رُغم قرار أوزبورن الحاسم ذاك، سُرعان ما بدأ بمُجادلة قادَتِه بسبب تلك الفكرة. وقد اعتَرَفَ في وقتٍ لاحق بأنَّ السَّبب الحقيقيَّ في مُعارضته لهم هو أنَّه شَعَرَ بأنَّه قد فَقَدَ جُزءًا من مكانته وسلطَته. بل إنَّه قال حَرفيًّا: "لقد بدأتُ- عن جَهْلٍ- بالمُحاربة لا من أجل مَلكوت الله، بل من أجل مَنْصبي في ذلك الملكوت. ومن ثَمَّ، فقد أحْزَنْتُ الرُّوح القُدُس". ثُمَّ أضافَ قائلًا: "وعندما يَحْزَنُ الرُّوح القُدُس، فإنَّه يُغادِر". وتابعَ قائلًا إنَّه رُغم قيامِه بمهامِّ الخدمة التي كانت تُوكَلُ إليه، فإنَّه كان يَشْعُر ببُعدِه عن الله. فقد بَدَأتْ مَظاهرُ الموتِ في التسلُّل إلى حياته ممَّا جَعلَه يُحِسُّ بالفراغ من الدَّاخل.

وفي أحد الأيَّام، تَعَرَّض أوزبورن لحادث سَيْر أَلْزَمَه السَّريرَ لوقتٍ طويل. وعندها، بدأ الله بالتَّعامُل معه. وفي يوم ما، سَمعَ صَوْت تَرْنيم في الغُرفة المجاورة لغُرفته في المشفى. وقد وَصَفَ شعُورَه آنذاك فقال: "لقد سَمعْتُهم يَتَرَنَّمون عن أمجاد الله فبدأَ قَلبي يَرْنو- من جَديد- إلى تلك العلاقة الحميمة بالله. وعندما رَفَعْتُ قَلبي بالصَّلاة تائبًا، وَجَدْتُ الغُفرانَ من الله. كما أنَّ رُوحَ الله جاءَ وَحَلَّ في قَلبي ثانيةً". وكم نَشْكُر الله لأنَّ حياةَ أوزبورن قد انتَهَتْ نهايةً حَسَنَة. فهو ما يَزال مؤلِّفَ ترانيمَ مَحبوبًا حتَّى يَومنا هذا.[1]

الفصل الثّاني عَشَر

الخِزْيُ والكرامة

أحَدُ أصعب جوانب المُعاناة في حياة المؤمنين هو احتِمالُ العار! في الوقت الحاضر، أنا أقرأُ في سِفْر أيُّوب في وقتِ تأمُّلي الشخصيّ. وعندما أقرأُ أحاديثَ أصدقاء أيُّوب الأربعة وأحاولُ أنْ أضَعَ نفسي مكان أيُّوب. أعتقد أنَّ العارَ الذي أحَسَّ به أيُّوب كان يَفوقُ الاحتمال! فعندما نُعاني ونَجِدُ أُناسًا يُقَدِّرون التَّضحيات التي قُمنا بها؛ ويُعْجَبون بنا وبتكريسنا، فإنَّ التضحية تُصيرُ أكثر احتمالًا. لكنَّ الأمرَ يصيرُ شاقًّا حَقًّا إذا كان الناس يَعتقدون أنَّنا نتألَّم بسبب حماقتنا، أو أنَّنا نُعاقَب بسبب اقترافنا لخطيَّةٍ ما رُغمَ إصرارنا على أنَّنا لَم نَقْتَرِفْ سوءًا.

نَقرأُ في عبرانيِّين ١٣: ١٢-١٣ أنَّ مثالَنا الأعلى في احتمال العار هو يسوع: "لِذلِكَ يَسُوعُ أَيْضًا، لِكَيْ يُقَدِّسَ الشَّعْبَ بِدَمِ نَفْسِهِ، تَأَلَّمَ خَارِجَ الْبَابِ. فَلْنَخْرُجْ إِذًا إِلَيْهِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ حَامِلِينَ عَارَهُ". ويجب ألَّا نَنْسَ بتاتًا أنَّه كما أنَّ الطَّريقةَ

التي استَخدَمَها يسوعُ لتَخليصِنا كانتْ مُخْزِيَةً في نَظَرِ الكثيرين، يجب على خُدَّام السيِّد المسيح أنْ يُواجِهوا هذا الخِزْيِ هم أيضًا.

لهذا، فإنَّ كاتبَ الرِّسالة إلى العِبرانِيِّين يُطالب قُرَّاءَهُ بالخروج [إلى السيِّد المسيح] "خارجَ المحَلَّة". فكما أنَّ اليهودَ رَفضوا يسوعَ وطَردوه، قد يُواجِهُ المسيحيُّون الرَّفْض من أهلهم وشَعبهم. وهذا هو ما يَخْتَبرُه كثيرٌ من المؤمنين في وقتنا الحاضر. فنحن- المؤمنين المسيحيِّين السريلانكيِّين- نُحِبُّ أُمَّتنا. ورُغم أنَّنا نُواجِهُ مُشكلاتٍ جسيمةً في هذا البلد، فقدِ اخترْنا أن نَبقى بين شَعبنا من دون أنْ نَضْعُف أمام إغراءات فُرَص العَيش في بُلدان أخرى. وعندما تفوز سريلانكا بمباراة كريكيت، فإنَّنا نَفرحُ ونَحتفل كأيِّ شَعْبٍ آخر. مع ذلك، كثيرًا ما نُتَّهم بأنَّنا أُلعوبةٌ في يَدِ القوى الأجنبيَّة التي تحاولُ غَزوَ أُمَّتنا (باستخدام وسائل الضَّغط الاقتصاديَّة والعَسكريَّة) على غِرار ما فعلَتْهُ في الماضي بعض الأُمم التي يظُنُّ البعضُ أنَّها كانت "مَسيحيَّة". لهذا، مع أنَّنا نُحِبُّ أمَّتنا ومُستعدُّون للتألُّم لأجلها، فإنَّ الكثيرينَ يَنْعَتونَنا بالخَوَنة لأُمَّتِنا. وهذا- في حَدِّ ذاته – مُؤلِمٌ جدًّا!

لطالَما تَعَجَّبتُ ممَّا كتبَه أحَدُ أعظم أبطال الكنيسة في التَّاريخ- وهو الرَّسول بولُس. فعندما كان يَخْضَع للمُحاكمة في روما في الفترة الأخيرة من حياته، لم يَأْتِ أحَدٌ من مُؤمني كنيسة روما لمُساندته والوقوف إلى جانبه. وفي رأيي، فإنَّ ٢تيموثاوس ٤: ١٦ هي إحدى الآيات الأكثر مأساويَّةً في الكتاب المُقدَّس بأكمله: "فِي احْتِجَاجِي الأَوَّلِ لَمْ يَحْضُرْ أَحَدٌ مَعِي، بَلِ الْجَمِيعُ تَرَكُونِي. لا يُحْسَبْ عَلَيْهِم!"

لكنَّنا نُدركُ اليوم، بعد عشرين قَرنًا، أنَّ العَارَ ليس من نَصيب بولس؛ بل هو من نَصيب أولئك الذين تَخَلَّوا عنه. وقد قِيْلَ عن يسوع: "...الَّذِي مِنْ أَجْلِ السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ، احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِالْخِزْيِ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ اللهِ" (عبرانيِّين ١٢: ٢). فقد اسْتَهانَ يَسوعُ بالعَار لأنَّه كان يَعلَمُ أنَّ الفَرَح آتٍ لا مَحالَة في النِّهاية. ومن الواضح أنَّ كلمةَ "مُستَهينًا" أو "هازِئًا" (كما ورد في

التَّرجمة التفسيريَّة) هي كلمةٌ قويَّةٌ ومُعَبِّرة. فيَسوع لم يَحتَمِلِ الخِزْيَ بمَشَقَّة؛ بل نظرَ إليه باستِخفافٍ لأنَّه كان مُتَيقِّنًا من النِّهاية المجيدة.

ويمكنُنا نحن أيضًا أنْ نَفعلَ الشيءَ نفسَه عندما نُقاسي الهوانَ بسبب أمانتنا للسيِّد المسيح. فبَعدَ أنْ تَحَدَّث يسوع- في الأصحاح الثَّاني عشر من إنجيل يوحنَّا- بشأن الطَّريقة التي سيتَمَجَّد بها في موته، فإنَّه يُشَجِّع تلاميذَه على الإتْيان بثَمَرٍ كَثير بأنْ يموتوا كما تموتُ حَبَّة الحِنْطَة (يوحنَّا ١٢: ٢٣-٢٥). ثُمَّ يَتحدَّثُ يسوع بشأن الشَّرِكَة التي يمكنُنا أنْ نتَمتَّع بها معه في غَمرَةِ الألَم: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي فَلْيَتْبَعْنِي، وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضًا يَكُونُ خَادِمِي" (العَدَد ٢٦). ثُمَّ يَصِفُ يسوعُ الكَرامةَ التي تَتَأتَّى من خدمة الله: "وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي يُكْرِمُهُ الآبُ" (العَدَد ٢٦). أمَّا هذا التَّكريم فسَنَحْصُل عليه في الوقت الذي يُعَيِّنُه الله.

فأحيانًا، قد يُعطينا الله هذا التَّكريم في أثناء حياتنا على الأرض- تمامًا كما حَدَثَ مع أيُّوب. وفي مُطْلَق الأحوال، يجب أن نَتيَقَّنَ بأنَّ التَّكريم سيَكون من نَصيب الأمناء في يوم الدَّينونة. وهناك عاملٌ مُهِمٌّ يُساعدنا على احتمال الخزي وهو التطلُّع إلى الإكرام الذي سَنَحصُل عليه في النِّهاية. وفي الواقع أنَّ عَقيدةَ الدَّينونة تُساعِدُنا على تَجَنُّب المَرارة في أثناء خدمتنا ليَسوع في هذا العالَم المُلَوَّث بالخطيَّة.[1] فعندما نَرى أنَّ الظَّالمين وعَديمي المَبادئ يَنْجَحون، وأنَّنا نُقاسي الخِزْيَ والعارَ بسبب إخفاقنا النِّسْبِيِّ رُغم أمانتنا لِدَعْوَتِنا، فمنَ السَّهل علينا أنْ نَسقُط في فَخِّ المَرارة.

هُناك شُعورٌ بالعدالة في أعماقنا يُخبرنا بأنَّ الأخيار يجب أنْ يُكافَأوا، وأنَّ الأشرار يجب أن يُعاقبوا. لكنْ عندما نَرى العَكس يَحْدُث، فمنَ الطَّبيعيِّ أن نَغضَب. مع ذلك، يجب علينا أنْ نَحترسَ من الوقوع في فَخِّ المَرارة لأنَّ المَرارة يُمكن أنْ تَسلبَنا فَرَحَنا وأن تَؤثِّرَ سَلبًا في فاعليَّة خدمتنا للرَّبّ. وللأسف، فإنَّ خُدَّامًا كثيرين يُعانون من الغضب الشديد بسبب ظُلْم وقعَ عليهم وجَعَلَهم فريسةً له. ومن شأنِ هذا أن يَجعلَهم مُقعَدينَ عاطفيًّا ورُوحيًّا. لذلك، يجب على أمثال هؤلاء

أن يَتذكَّروا أنَّ الفَصلَ الأخير من حياتهم لم يُكْتَبْ بَعْد!

كان أحدُ المُرسَلين الذين خَدَموا الربَّ بأمانةٍ لسنواتٍ عَديدة عائدًا إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة على السَّفينة نفسها التي عاد على مَتْنها رئيس الولايات المُتَّحدة بعد زيارةٍ قصيرةٍ إلى أفريقيا. وعلى النَّقيض من التَّرحيب الحارِّ الذي لقيَه الرَّئيس، فإنَّ أحدًا لَم يَأتِ لاستقبال خادم الربِّ أو التَّرحيب به. عندها، شَعَرَ خادمُ الربِّ بالحُزن والألَم في أعماقه، وسألَ الله عن سبب هذا الاستقبال الحافل برئيس البلاد بعد عَودته سالِمًا إلى الوطن عَقِبَ رِحلته القصيرة تلك، وعن سبب عدم وجود أيِّ تَرحيبٍ به بعد تلك السِّنين الطويلة التي قضاها في الخِدمة المُضَحِّية! في تلك اللَّحظة، كَلَّمَ الله الخادمَ في قَلبه قائلًا: "لكنَّك لم تَرجِعْ إلى وَطَنكَ بَعْد".[٢]

لقد قال بولُس: "لأَنَّ خِفَّةَ ضِيقَتِنَا الْوَقْتِيَّةَ تُنْشِئُ لَنَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ثِقَلَ مَجْدٍ أَبَدِيًّا" (٢كورنثوس ٤: ١٧). وفي الحقيقة أنَّ قوائم المُعاناة العديدة الواردة في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس، بما في ذلك القائمة الواردة في هذا المقطع (الأعداد ٨-١٦)، تُبَيِّن أنَّ الرَّسول بولُس تألَّم أشَدَّ الألَم. لكنْ بالمُقارنة بالمجد الذي يَنتظرنا، يُمكننا أنْ نَصِفَ تلك الآلام المُبرِّحة بأنَّها "صُعوباتٌ بَسيطَةٌ عابِرَة" (التَّرجمة التَّفسيريَّة).

كانت "آمي كارمايكل" (Amy Carmichael)، وقد عاشت في الفترة ما بين ١٨٦٧-١٩٥١، واحدةً من أعظم المُرْسَلين الأبطال في القرن الماضي. فقد أنقَذَتْ عشراتِ الأطفال في الهند ممَّن تَخَلَّى عنهم آباؤهم وأمَّهاتهم ليَعيشوا حياة ذُلٍّ ومَهانةٍ في المَعابد. وقد نَجَحَتْ آمي في تَوفير بيوتٍ سعيدةٍ لهؤلاء الأطفال ليَعيشوا فيها ويتَرَعْرعوا. وفي إحدى المرَّات، قالت آمي: "لدينا الأبديَّةُ بكاملها للاحتفال بانتصاراتنا، لكنْ ليس لدينا سوى بِضْعِ ساعاتٍ قبل غروبِ الشَّمس لتَحقيق الفوز".

وهكذا، فإنَّ التفكيرَ في الكرامة التي سنَحصُل عليها في المستقبل يُساعدُنا

بطريقتَين: الأولى هي أنَّه لن يَبْقى لدينا سَبَبٌ للوُقوع في فَخِّ المرارة بسبب نجاح الأشرار؛ والثانية هي أنَّنا سنَجدُ الدَّافعَ الكافي لدَفْع الثَّمَن الباهظ للخِدمة. وإنْ لَم نُعَلِّم المؤمنين عن السَّماء والجحيم والدَّينونة، فيَجب ألَّا نُدهَشَ حين نَرى فئةً قليلةً منهم مُستعدَّةً لدَفْع تلك النَّفَقَة العالية للخِدمة التي يقومون بها. فمع أنَّ المالَ والتخطيطَ الجيِّد يُساعدان في إعداد برامجَ ضخمةٍ ومُثيرةٍ للإعجاب، فإنَّهما لا يُساعدان في إعداد خُدَّامٍ مُستعدِّين لدَفْع التكلفة الباهظة اللَّازمة للحُصول على حصادٍ دائم وَوَفير!

الفصل الثَّالث عَشَر

اتِّحادُ المؤمن والسيِّد المسيح

قَليلٌ من الأبطال عانوا- طوال التَّاريخ الإرساليّ- مثلما عانى الطَّبيب "ديڤيد ليڤنغستون" (David Livingstone)، وعاش في الفترة ما بين ١٨١٣-١٨٧٣. مع ذلك، يُقال إنَّه حَتَّى في الفترة التي تَنامى فيها العداء للغَرْب في أفريقيا إلى أقصى الحدود، كان النَّاس يَتفوَّهون بكَلام معسولٍ طيِّب بشأن ليڤنغستون. كان ليڤنغستون مُستَكشفًا عَرَّفَ العالَمَ الخارجيَّ بالأجزاء الداخليَّة من أفريقيا. وكان يَرمي من وراء ذلك إلى تحقيق هَدفَين: الأوَّل هو استكشافُ المناطق الداخليَّة منها لكي يَتمكَّن المُرسَلون من تَوصيل الإنجيل إلى النَّاس هناك. والثَّاني هو فَتْحُ أفريقيا على التِّجارة المَشروعة وإنهاء تجارة العَبيد المُرَوِّعة. وقد أسْهَمَتِ التَّقارير التي كتبَها إسهامًا كبيرًا في إلغاء الرِّقِّ في العالَم الغربيّ.[١]

تَعَرَّضَ ليڤنغستون لمصاعبَ جمَّة في حياته. فقد عَضَّه أسَدٌ من يده فَأصابها

بالشَّلل. كما أنَّ زوجتَه ماتَتْ في أحد الحقول هناك. وغالبًا ما كان وَحيدًا في أسفاره. والمَنْزِلُ الوحيدُ الذي بَناه قدِ احترق. وكثيرًا ما كان جسدُه هزيلًا بسبب الديزنطاريا والحُمَّى. وذاتَ مَرَّة، قال له أحدهم إنَّه ضَحَّى كثيرًا لأجل الإنجيل. فرَدَّ قائلًا: "تضحية؟ إنَّ التَّضحيةَ الوحيدةَ هي أن يَعيشَ الإنسانُ خارجَ مَشيئة الله". وعندما سُئِلَ عن الشيء الذي ساعدَه على الرُّغم من المشَقَّات الكثيرة، قال إنَّ صَدى كلماتٍ يسوعَ كان يتردَّدُ في أُذنَيه دائمًا، حتَّى في أوقات مَرضه الشَّديد، وهو يقول: "وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (متَّى ٢٨: ٢٠). وقد قال ليڤنغستون ذات مَرَّة: "من دون المسيح، لا أخطو خُطوةً واحدةً؛ أمّا مع المسيح فأَذهبُ إلى أيِّ مَكان!"

قُلنا، في الفُصول الأخيرة، إنَّ الألَم يُقَرِّبُنا إلى السيِّد المَسيح. وَحُضور السيِّد المسيح هو الذي يهَبُنا الشَّجاعةَ للاستمرار بالرُّغم من الألَم. وقد قال الربُّ: "لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ" (عبرانيِّين ١٣: ٥؛ انظُر أيضًا: يشوع ١: ٥). وهذا يُذَكِّرُني بيوحنَّا الذَّهَبِيِّ الفَم (عاش نحو سنة ٣٤٤/٣٥٤-٤٠٧م) الذي رُبَّما كان أعظمَ واعظٍ في الكنيسة في القُرون العديدة الأولى. وقد أطلَقَتِ الكنيسة عليه لَقَبَ "الذَّهَبِيِّ الفَم" بسبَبِ فَصاحَتِه في الكلام. وكان يوحنَّا الذَّهَبِيُّ الفَم واعظًا لا يَخشى شيئًا أو أحدًا بِمَن في ذلك الإمبراطور الذي كان يعيشُ في المدينة نفسها ("القُسطنطينيَّة"). وقد فعلَ يوحنَّا الكثير لمحاربة الفَقْر؛ بل إنَّه باعَ بعض نَفائِس الكنيسة لكي يُطْعِمَ الفُقراء. لهذا، فهو لَم يكنْ محبوبًا من كَثيرين.

وذات مَرَّة، سَمعَ يوحنَّا أنَّ الإمبراطور يُهَدِّد بِسَجْنه، فقال إنَّ الربَّ سيَكون معه في السِّجْن. ثُمَّ قال الإمبراطور إنَّه سيُجَرِّدُه من جميع مُتلكاته، فكان رَدُّه: "لا يُمكنك أن تَحْرِمَني من كُلِّ ما أملُك؛ فَكَنْزي في السَّماء حيث لا سُلْطان لك!" ثُمَّ قال الإمبراطور: "سأنْفيكَ إذًا إلى أبْعَدِ رُكْنٍ في الإمبراطوريَّة". (وفي وقتٍ لاحق، نفى الإمبراطورُ بالفعل الفَم إلى جَزيرةٍ نائية). مع ذلك، قال يوحنَّا إنَّ أبعَدَ بُقعَةٍ في العالَم هي جُزءٌ من ملكوتِ مُخَلِّصِه، وإنَّ الربَّ سيَكون هناك أيضًا.[٢]

إنَّ حُضورَ الله مَعَنا عندما نُواجِهُ كَراهيَة الآخرين، ورِياءَهم، وشَرَّهم، واضطهادَهم، هو أحدُ الأشياء التي تُساعدُنا في تَجنُّب المرارة في حياتنا. وحين نَنظُر إلى يسوع فإنَّ قلوبَنا وأذهانَنا تَنتَعِشُ لأنَّنا نَرى مَحبَّةً أعظم من كُلِّ كَراهِيةٍ في العالَم! ونحن نَعلمُ أنَّ داود كَتَبَ المزمور ٢٧ في وقتٍ كان يَمُرُّ فيه بتَجارِبَ مريرةٍ بالفعل. بل إنَّه يَقول في المزمور إنَّ أباه وأُمَّه قد تَرَكاه (العدد ١٠). وقد كان الحلُّ الذي اقتَرَحَه داود لمشكلاته مُفيدًا ومُنيرًا لعُقولنا حيث إنَّه يقول: "وَاحِدَةً سَأَلْتُ مِنَ الرَّبِّ وَإِيَّاهَا أَلْتَمِسُ: أَنْ أَسْكُنَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِي، لِكَيْ أَنْظُرَ إِلَى جَمَالِ الرَّبِّ، وَأَتَفَرَّسَ فِي هَيْكَلِهِ" (العدد ٤). فقد أراد أن يَنْتَظِرَ في مَحضَرِ الربِّ وأن يُطيلَ النَّظَر إلى جَماله له المجد. فهذا التَّحديقُ يُطَهِّرُ حياتنا من الآلام التي أصابَتنا، ويُنعِشُها بسبب فَيضِ مَحَبَّة الله في القلب.

وقد عَبَّرَ غراهام كَندرِك عن هذه الفكرة في إحدى ترنيماته فقال:

لُطْفُكَ يا رَبُّ
يُذيبُ كُلَّ مَرارَةٍ لَدَيَّ؛
نَعَم يا رَبُّ، أنا أُقْبَلُ حُبَّكَ.
جَمالُكَ يا رَبُّ
يُزيلُ كُلَّ بَشاعَةٍ فِيَّ؛
نَعَم يا رَبُّ، أنا أُقْبَلُ حُبَّكَ.[٣]

وفي اللازِمَة المُوسيقيَّة، تَتَكَرَّر الكلمات "نَعَم يا رَبُّ، أنا أُقْبَلُ حُبَّكَ" مَرَّتين. وهذا التَّكرار يَمْنَحُ الشُّعور بالمُكوثِ في مَحْضَر الله والتلذُّذ بجُرْعَةٍ مُشْبِعَةٍ من مَحبَّته وعِنايته.

قال أحدُ الأشخاص إنَّه يجب علينا أن نَنْظُر نظرَةً خاطِفَةً إلى مُشكلاتنا، وأنْ نُطيلَ النَّظَر إلى يَسوع. ولا بُدَّ لي من الاعتراف بأنِّي عادَةً ما أُعطي المُشكلاتِ الكبيرةَ التي تُواجِهُني أكثر من مُجَرَّد نَظرة خاطفة. والمَراثي التي نَجِدُها في الكتاب المُقَدَّس تُوحي بأنَّ جميعَ النَّاس، بِمَنْ فيهم رِجالُ الله العُظماءُ القِدِّيسون،

تَصارَعوا لبَعض الوقت ضدَّ الألَم الذي عانَوا منه. لكن ما إن يَنتهي الرِّثاء وينقشع الضَّباب من أمام عُيوننا بِفَضْل تَعزية الله لنا حتَّى نَتَمَكَّن من التَّفَرُّس في يَسوع. وهذا التَّفَرُّس هو الذي يُنْعِشُ نُفوسنا، ويُزيلُ المَرارَة من حَياتنا لِيَستبدِلَ بها فَرَحًا عَجيبًا نَاشئًا عن يَقيننا بأنَّ الله يُحِبُّنا حُبًّا جَمًّا.

وتَحْضُرُني هُنا قصَّة "كوري تن بوم" (Corrie Ten Boom) وأُختها "بيتسي" (Betsie) اللَّتين أمْضَتا بضعَ سنواتٍ في السِّجن، ثُمَّ بضعَ سنواتٍ في أحد مُعَسكَرات الاعتقال في الحرب العالميَّة الثانية لأنَّ عائلتهما ساعَدَت بعض الأعداء. ونتيجة لذلك، ماتَتْ أُمُّهما على الفور، ثُمَّ مات والدهما في السِّجن. أمَّا أخوهما فأُطلقَ سَراحه بعد أنْ أمضى بعض الوقت في السِّجْن. لكنَّ الأُختين كوري وبيتسي عانَتا أشَدَّ المُعاناة في ذلك المُعسكر. وفي وقتٍ لاحق، ماتت بيتسي هناك، وصارَتْ كوري مُبَشِّرَةً مُتَجوِّلَةً وكاتبةً بعد إطلاق سراحها. لكنْ قبل موت بيتسي، اعتادَتِ الأختان أن تقولَ الواحدة للأخرى عندما تبدأ المرارة بالتَسَلُّل إلى حياة إحداهما: "لِنَشْكُر الله على رومية ٥: ٥". وهذه الآية تقول إنَّ "مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا". وعندما كانت الأُختان تَتَعَرَّضان لِشَرِّ الأشرار، كانَتِ الواحدةُ تُذَكِّرُ الأخرى بأنَّ محبَّةَ الله التي انسكبَتْ في قَلبَيْهِما أعظم من شَرِّ العالَم.

وفي أحد الأيَّام، مَرِضَت بيتسي في مُعَسكَر الاعتقال وصارت هزيلةً جدًّا؛ بل إنَّ دَمًا كان يَخْرُجُ من فمها عندما كانت تَسْعُل. وفي الحقيقة أنَّها لَم تَتعافَ من ذلك المرض. وفي ذلك الوقت، كان قد حُكِمَ على الأُختين بقَضاء وقتٍ طويلٍ في جَرْفِ التُّراب (كنوعٍ من الأشغال الشاقَّة). وذاتَ مرَّة، كانت بيتسي ضعيفةَ الجسَدِ فلم تَقْوَ على العمل. لاحَظَ الحارسُ أنَّها لا تَعمَلُ فسألها عن السَّبب. وبسبب وقفَتها المُرتَخية وصوتِها الضعيف، ظَنَّ الحارسَ أنَّها تَسخر به أو تَرُدُّ عليه بِوَقاحة. فما كان منه إلَّا أن انفَجَرَ غاضبًا وجَلَدَها بالسَّوْط إلى أن انْسَلَخَ جِلْدُ رَقَبَتِها وسالَ دَمُها. وحين رَأَتْ كوري ذلك، حَمَلَت المِجْرَفَة واتَّجَهت صَوْب

الحارس لتَضربَه بها. وعندما رأتْها بيتسي صاحَتْ قائلةً: "لا تَنْظُري إليَّ يا كوري! انظري فقط إلى يسوع".

إنَّ رُؤيتنا لتلك المَحبَّة التي جَعَلَتْ مُخَلِّصَنا يَموتُ طَوْعًا لأجلِنا تَكفي لإزالة الآلام النَّاشئة عَنِ إساءات الآخرين. فاتِّحادُنا بالسيِّد المسيح يُساعِدُنا لا في الحُصول على القوَّة اللاَّزمة لاحْتمال الضَّربات التي نَتَلَقَّاها فحسب؛ بل أيضًا على اختبار مَحَبَّته بطريقةٍ عَجيبةٍ تُبَدِّدُ كُلَّ مَرارَةٍ في حَياتنا.

القسم الثّالث

آلامُنا تُساعدُ الكنيسة

"... لأَجْلِ جَسَدِهِ، الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ"

كولوسّي ١: ٢٤

الفصل الرَّابع عَشَر

الألَمُ ونُموُّ الكنيسة

لقد تأمَّلنا في المفاهيم الضمنيَّة لإقرارَين جازمَيْن عن الألَم والفرح وَرَدا في كولوسِّي ١: ٢٤: "الآنَ أَفْرَحُ فِي اَلاَمِي لأَجْلكُمْ، وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ المسيح فِي جِسْمِي لأَجْلِ جَسَدِهِ، الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَة". المَفهوم الضِّمنيُّ الأوَّل هو أنَّ الألَمَ والفرحَ عُنصران مُهمَّان في الحياة المسيحيَّة. والمفهوم الضِّمنيُّ الثاني هو أنَّنا نَفرحُ في الضِّيقات لأنَّ هذه الضِّيقات تُساعدُنا في التقرُّب أكثر فأكثر إلى السيِّد المسيح من طريق تَكميل خِبرتنا الشخصيَّة بشدائد المسيح. وهناك سببٌ آخرُ للفَرح وَسطَ الألَم مذكورٌ في الآية نفسها. فبولس يقول إنَّه فَرِحَ لأنَّ آلامَه هي "لأَجْلِ جَسَدِ [المَسيح]، الذي هُوَ الكَنيسَة". لهذا، فنحن فَرِحون أيضًا لأنَّ آلامَنا تُفيدُ الكنيسة.

كثيرًا ما يَقولُ مُرشدي "روبرت كولمان" (Robert Coleman) إنَّ أحدَ

الأمور المُهمَلَة في الدراسات الحديثة التي تَتناول نُموَّ الكنيسة هو أنَّها لا تَتَطَرَّق إلى الدَّور البارز الذي لَعِبَهُ الألَم في نُموِّ الكنيسة. لكنَّ شهادةَ الكتاب المُقدَّس والتاريخ الكَنَسيِّ تُرينا أنَّه قَبل حُدوث أيِّ نُموٍّ واضح للكنيسة، كثيرًا ما كان بعض المُؤمنين، ولا سيَّما القادة، يُواجهون ظروفًا مؤلمةً. ويتَّضِحُ هذا المبدأ من خلال ما يقوله الرَّسولُ بولُس في ٢كورنثوس ٤: ٨-١١. فهو يُشارِكُنا قائمةً مُدهشةً من المُعاناة التي مرَّ بها فيَقول:

> مُكْتَئِبِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لكِنْ غَيْرَ مُتَضَايِقِينَ. مُتَحَيِّرِينَ، لكِنْ غَيْرَ يَائِسِينَ. مُضْطَهَدِينَ، لكِنْ غَيْرَ مَتْرُوكِينَ. مَطْرُوحِينَ، لكِنْ غَيْرَ هَالِكِينَ. حَامِلِينَ فِي الْجَسَدِ كُلَّ حِينٍ إِمَاتَةَ الرَّبِّ يَسُوعَ، لِكَيْ تَظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضًا فِي جَسَدِنَا. لأَنَّنَا نَحْنُ الأَحْيَاءَ نُسَلَّمُ دَائِمًا لِلْمَوْتِ مِنْ أَجْلِ يَسُوعَ، لِكَيْ تَظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضًا فِي جَسَدِنَا الْمَائِتِ.

ثُمَّ يُتابع قائلًا: "إِذًا الْمَوْتُ يَعْمَلُ فِينَا، وَلكِنِ الْحَيَاةُ فِيكُمْ" (العدد ١٢). وهكذا، من خلال الموت الذي يَختَبِرُه القائد، فإنَّ الأعضاءَ يَختبرون الحياة.

وفي يومنا هذا، نرى أنَّ مُؤمنين كثيرين في العديد من الدُّوَل قد تبارَكوا بانتمائهم إلى كنيسةٍ أعضاؤها كُثُر. لكنْ غالبًا ما يَنسى هؤلاء أنَّ الشُّهودَ الأوائلَ الذين كَرَزوا بالإنجيل لشَعبهم اضطرُّوا إلى دَفْع ثَمَنٍ باهظ قبلَ أن تَبدأ الكنيسةُ بالنُّموِّ. وقِصَّتي المُفَضَّلة، في هذا السِّياق، هي قصَّةُ المُرْسَلين الميثودِيِّين الذين جاءوا إلى سريلانكا قبلَ قرنَين تقريبًا.

كان ذلك الفريقُ الإرساليُّ يَخْدمُ بقيادة الدكتور "ثوماس كوك" (Dr. Thomas Coke)، والذي عاش في الفترة ما بين ١٧٤٧-١٨١٤م، وقد كان مُسنًّا آنذاك. وكان للدُّكتور كوك دَورٌ رياديٌّ في العمل الميثوديِّ في أمريكا الشماليَّة مع فرانسيس أوزبري (Francis Asbury). بعد ذلك، ساعدَ كوك في بَدْء العمل الإرساليِّ في جُزُر الهند الغَربيَّة وأفريقيا، كما أنَّه كان قائدًا لقِسْم الإرساليَّات في

الكنيسة الميثوديَّة في بريطانيا. وعندما كان في مُنتصف الستِّينيَّات من عمره، أذاعَ كوك النَّبأ بأنَّه يُريدُ الذهاب إلى سِيلان (وهو الاسم الذي أطلَقَتْه القوى الأجنبيَّةُ على سريلانكا آنذاك). لكنَّ النَّاسَ اتَّهَموه بأنَّه يريدُ بناءَ مَملكته الشخصيَّة، وبأنَّه صار خَرِفًا بسبب الشَّيخوخة. وعندما حَضَر كوك المؤتَمر السنويّ، اقتَرَحَ مَرَّةً أخرى أن يَقوم بحملةٍ كرازيَّة في سريلانكا؛ لكنَّ اقتراحَه رُفِضَ. على الرُّغم من ذلك، بَقِيَ كوك مُصِرًّا على تحقيق ذلك الحُلُم. وبعد عِدَّة مُحاولات، نَجَحَ كوك في إقناع بعض الشَّباب الأغرار (عَديمي الخِبرة) وزَوجاتهم على التَّعَهُّد بالانضمام إليه في تلك الرِّحلة التبشيريَّة. وقد تَعَهَّد بالتبرُّع بكلِّ ثَروَته لتلك الرِّحلة. وأخيرًا، وافَقَ المؤتَمرُ على اقتراحه.

وفي صَباح أحد الأيَّام، بعد أنِ انطلَقَتِ السَّفينتان اللَّتان أبْحَروا بهما وصارَتا في المحيط الهندي، عُثِرَ على كوك مَيِّتًا في مَقصورته. وكانت جميعُ الأموال المُخَصَّصة لتلك الرِّحلة التبشيريَّة مُسَجَّلة باسمه. وهكذا، لم يَعُدْ هناك قائدٌ للرِّحلة، ولا مالَ لمُتابعتها! حينئذٍ، قال أحدُ أفرادِ الرِّحلة ويُدعى بينجامين كلو (Benjamin Clough): "الموضوع كُلُّه يَتَعَلَّق بالثِّقَة الآن". وفي وقتٍ لاحق، ماتَتْ زَوجةُ فَرْدٍ آخرَ في المجموعة، وهو وليَم أولت (William Ault)، وهُم في عُرْض البحر. أخيرًا، وَصَلَ خمسةُ مُرْسَلين أغرار إلى شواطئ سريلانكا وذهبوا ليَخدموا في أربعة أجزاء مُتفرِّقة من البلد.

ذَهَبَ وليَم أولت إلى الجُزء الشرقيِّ من سريلانكا. وعلاوةً على المُشكلات الصحِّيَّة التي كان يُعاني منها عند وصوله، كانَتِ المنطقة التي ذَهبَ إليها ما تزال تُعاني من آثار جَفافٍ ووبإٍ أصاباها مؤخَّرًا. وعلى الرُّغم من تَدَهوُر حالته الصحِّيَّة، فإنَّه بدأ بتعلُّم اللُّغة التاميليَّة السَّائدة هناك. وسُرعان ما بدأ بالكرازة بالإنجيل، وأنشأ كنيسةً وبعضَ المدارس. ويُمكنُ القول إنَّ وليَم عاش بصحَّةٍ جيِّدةٍ نسبيًّا لمُدَّة خمسة أشهُر، وإنَّه عانى من حالة المَرَضِ الشديد لمُدَّة ثلاثة أشهر.

وهكذا، فقد مات وليَم بعد ثمانية أشهر فقط من وصوله إلى هناك. لكنَّه

مات بعد أن نجحَ في إنشاء ثمانية مدارس وكنيسةٍ واحدة يَصِلُ عدد أعضائها إلى نحو ١٥٠ عُضوًا. وتُعَدُّ إحدى المدارس التي أنشأها، وهي "كُليَّة باتيكالوا المركزيَّة" (Batticaloa Central College)، أقدمَ مدرسةٍ كبيرةٍ مَوجودة في البلد. وقد وُضِعَ مؤخَّرًا تمثالٌ لوِليَم أولت في مدينة باتيكالوا التي هي أكبرُ مدينةٍ في شرق سريلانكا. وإذا تَجَوَّلتَ اليومَ في الطُّرق الرئيسية في شرق سريلانكا، ستَجدُ أنَّ في المنطقةِ عددًا كبيرًا من الكنائس الميثوديَّة. فالميثوديُّون هم أكبرُ طائفة بروتستنتيَّة هناك.

وقَبْل موت وليَم أولت، كان قد كَتَبَ تَرنيمةً نقْتَبِسُ منها الكلمات التالية:

آسِيا تُحَيِّي يَوْمَ النَّهضة
وتَفْرَحُ بِهَيْمَنَةِ المَسيَّا عليها
وَتَمُدُّ يَدَيْها إلى اللّهِ.

وهكذا، رُغم الآلام والمَرَض، فإنَّه تَطَلَّعَ إلى المستقبل ورأى ذلك اليومَ الذي سيَفْتَقِدُ الله فيه ذلك البلد.

وقد ماتَ سبعةَ عشرَ مُرسَلًا في السَّنوات الاثنتَين والخمسين الأولى للإرساليَّة الميثوديَّة في سريلانكا. ومع أنَّنا لا نَعرفُ أعمارَ ستَّةٍ من هؤلاء لدى موتِهم، فإنَّنا نَعرفُ أنَّ ثمانيةً منهم كانوا دُونَ سِنِّ الثَّلاثين عندما انتهَتْ حياتُهم على الأرض.[١]

وقد تَكَرَّرَ الشيءُ نفسُه مَرَّاتٍ عَديدة- ولا سيَّما في الكنائس في نيجيريا وكوريا الجنوبيَّة. فهذان البَلدان يَضُمَّان بعضَ أكبر الكنائس في العالَم وأنْشَطِها في وقْتِنا الحاضر. وقدِ انطلق مئاتُ المُرسَلين من هذين البلدَين إلى بلادٍ أخرى. لكنْ في السَّنوات الأولى من العمل الإرساليِّ هناك، عانى المَسيحيُّون أشدَّ المعاناة؛ بل إنَّ كثيرين استُشْهِدوا.

ويَجْدُر بنا أن نَعرفَ أنَّ كلمة "شَهيد" مُشتَقَّة من الكلمة اليونانيَّة

(marturia) والتي تَعني "شاهِد". وهذا يَعني أنَّ الشَّهادةَ تَنْطَوي على الألَم. فبعدَ أن تَحَدَّث كاتبُ الرِّسالة إلى العِبرانيِّين (الأصحاح ١١) بشأن أبطال الإيمان الذين تألَّموا كثيرًا بسبب إيمانهم، فإنَّه يَصِفُهم بأنَّهم "سحابَةٌ من الشُّهُود" (٢١: ١). وهذا يَعني أنَّ آلامَنا هي وَسيلةُ شَهادَةٍ تُساعدُ الكنيسةَ على النُّموّ.

وهناك طُرُقٌ عَديدةٌ تَنْتَفعُ بها الكنيسة من آلام المؤمنين. وسنُلقي نَظرةً على بعض هذه الطُّرُق في التأمُّلات القليلة القادمة. وأوَّل نُقطة سنتطرَّق إليها هي أنَّ الألَمَ يُساعدُ في خَلْق الظُّروف الملائمة لانتشار الإنجيل.

فَسِفْرُ أعمال الرُّسُل يُدَوِّن أنَّه بعد استشهاد استفانوس: "حَدَثَ فِي ذلكَ الْيَوْمِ اضْطِهَادٌ عَظِيمٌ عَلَى الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي أُورُشَلِيمَ". ونتيجة لذلك: "تَشَتَّتَ الْجَمِيعُ فِي كُوَرِ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ، مَا عَدَا الرُّسُلَ" (أعمال ٨: ١). لكنْ سُرْعان ما يُخْبِرُنا البشير لوقا (كاتب سِفْر الأعمال) بأنَّ "الَّذِينَ تَشَتَّتُوا جَالُوا مُبَشِّرِينَ بِالْكَلِمَةِ" (٨: ٤). وهكذا، فإنَّ أولئك اللاجئينَ راحوا يَشْهَدون عن المسيح.

وفي مَوْضِعٍ آخر، يُدَوِّن لوقا واحدًا من أبرز الأحداث في تاريخ الكنيسة وهو تأسيس أوَّل كنيسةٍ يونانيَّة في أنطاكية. وقد شاءَ الله لتلك الكنيسة أن تصيرَ مَركزًا من أبرزِ المراكز المسيحيَّة في العالَم. ومن المُدهش أنَّ لوقا يَقْرِنُ هذا الحَدَث العظيمَ بموت استفانوس: "أَمَّا الَّذِينَ تَشَتَّتُوا مِنْ جَرَّاءِ الضِّيقِ الَّذِي حَصَلَ بِسَبَبِ اسْتِفَانُوسَ فَاجْتَازُوا إِلَى فِينِيقِيَةَ وَقُبْرُسَ وَأَنْطَاكِيَةَ" (١١: ١٩). ويبدو أنَّ ما قَصَدَه هنا هو أنَّ الشَّتاتَ الذي حَدَثَ بعد استشهاد استفانوس كان عاملًا رئيسًا في الأحداث التي أدَّتْ إلى هذه القَفْزَة الهائلة في حياة الكنيسة عندما حَمَلَ المؤمنون رسالةَ الإنجيل إلى غير اليهود.

ومن المُلاحظ هنا أنَّ لوقا اختارَ كلمةً مُعيَّنةً في أعمال ٨: ١ و٤، وأعمال ١١: ١٩ لوَصْف تَشَتُّت الكنيسة. فهو يَستخدمُ كلمة "دياسبيرو" (diaspeiro)؛ وهي الكلمةُ نفسها المُستخدمَةُ للحديث بشأن بَذْر الحُبوب (أو نَثْرِها). ويُمكننا أنْ نَتخيَّل المشاعرَ التي انْتابَتْ هؤلاء المؤمنين الأوائل عندما اضطرُّوا إلى مغادرة

وطنهم الحبيب. فمن المؤكَّد أنَّ الأطفالَ تَحَيَّروا مِمَّا يَجري. أو لَعلَّهم سألوا آباءهم وأُمَّهاتهم عن سبب عدم مُساعَدة يسوع لهم إنْ كان حيًّا حقًّا. لكنْ في نَظَر لوقا، لم يكنْ هؤلاء المؤمنون الأوائل لاجئين؛ بل كانوا مُرْسَلين. فقد عَمِلَ موت استفانوس وما أعْقَبَهُ من اضْطهادٍ للمؤمنين على تَوفير المُناخ الملائم لنُموِّ الكنيسة بطُرُق جديدة ومُدهشة.

وهذا يُذَكِّرُني بقِصَّةِ عائلةٍ بكاملها آمنت بالسيِّد المسيح في إحدى القُرى الهنديَّة الهندوسيَّة. ونتيجةً لذلك، قال أهلُ القرية لتِلك العائلة إنَّ الآلهةَ ستُعاقبهم لأنَّهم تَرَكوها. وبعد فترةٍ قصيرةٍ من معموديَّتهم في الماء، مَرِضَ أحدُ أبناء تلك العائلة. حينئذٍ، قال أبناءُ القرية إنَّ سَبَبَ ذلك المَرَض هو انتقام الآلهَة. جاء أفرادُ العائلة إلى الكنيسة وطَلَبوا من إخوتهم وأخواتهم في الإيمان أن يُصَلُّوا لأجل الصبيِّ لَعَلَّ الله يشفيه- ولا سيَّما أنَّ اسْمَ الله صار على المِحَكِّ. لكنَّ صحَّة الطِّفل لَم تَتَحَسَّن بعد الصَّلوات؛ بل إنَّه مات بعد فترةٍ قصيرة. وكانت تلك هي أوَّلَ جنازةٍ مَسيحيَّةٍ تُقام في تلك القرية. وفي ذلك اليوم، رَأى جَميعُ أهل القرية بوضوحٍ أنَّ المؤمنَ هو شَخْصٌ تَحَرَّر من الخوف من الموت، وأنَّ له رَجاءً في القيامة. وقد كان لهذا تأثيرٌ كبيرٌ في أهالي القرية مِمَّا أدَّى إلى انفتاح قلوبهم على رسالة الإنجيل وقبولِ كثيرين منهم للسيِّد المسيح نتيجةَ مَوت ذلك الطِّفل.[٢]

الفصل الخامس عَشَر

إعلانُ بشارة الإنجيل

إنَّ إحدى الأفكار الأهمِّ في إنجيل يوحنَّا هي أنَّ يسوعَ أعلنَ مجدَ الله. وعندما تُستخدَمُ كلمةُ "مَجْد" لوَصْف الله فإنَّها تَعني إظهارَ عَظَمَته واستحقاقه للعبادة. ويقول يوحنَّا في مُقدِّمة إنجيله: "وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا" (١: ١٤). وهو يقول أيضًا إنَّ يَسوع "أَظْهَرَ مَجْدَهُ" من خلال المُعجزة الأولى التي أجراها (٢: ١١).

لكنَّ أكْمَلَ إعلانٍ لمجد الربِّ كان على الصَّليب. ومن الواضح أنَّ إنجيلَ يوحنَّا يَصِفُ الصَّليب قياسًا بالمجد. والدَّليلُ على ذلك هو أنَّ يسوعَ يقول في إحدى نقاط التحوُّل الحاسمة في خدمته مُشيرًا إلى مَوته: "قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ الإِنْسَانِ" (١٢: ٢٣). بعد ذلك، فإنَّه يَتحدَّث بالكيفيَّة التي يجب بها لحبَّة الحنطة أن تموتَ لكي تأتيَ بثمرٍ كثير. وربَّما كانتْ أفضل عبارة تُلَخِّص

طبيعة الله هي "المَحَبَّة المُقَدَّسة" (أو أنَّه مُملوءٌ "نِعْمَةً وَحَقًّا" كما وَرَدَ في إنجيل يُوحنَّا ١: ١٤). فمن خلال مَوت يسوع، نَرى قداستَه ظاهرةً ظُهورًا نابضًا بالحياة حين يُعَبِّر الله عن بُغْضِهِ للخطيَّة بأن يطلُبَ أثْمَنَ ذَبيحةٍ يُمكن تقديمها- مَوت ابنه الأزليّ. كما أنَّنا نرى مَحبَّة الله بأوضح صُوَرِها من خلال إرساله لابنه الوحيد لكي يَدفَعَ أجرةَ خطايانا وَيُحرِّرَنا من الشُّعور بالذَّنْب.

وفي الكنيسة الباكرة، كان من المعلوم لدى الجميع أنَّ الشَّهادةَ تُظْهِرُ للنَّاس عَظَمَةَ الإنجيل. فما يَحدُثُ عادةً هو أنَّ الناسَ يَضْجَرون من أسلوبِ الحياة المُعاصر الأجوَف الذي يُرَكِّز على الذَّات، ويبدأون في التَّساؤل عمَّا إذا كانوا قد خُلِقوا لِهَدَفٍ أسْمى وأرْفَع. وعندما يَرون مدى تَمَسُّك المؤمنين المَسيحيِّين بعقيدتهم واستعدادهم لاحتمال الألَم في سبيلها، ربَّما تتشَكَّلُ لديهم نظرةٌ جديدةٌ بالكامل عن عَظَمَة الإنجيل.

في سنة ٣٢٠م تقريبًا، كان "قُسطنطين" (Constantine) هو إمبراطورَ الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الغربيَّة، وكان "ليسينيوس" (Licinius) هو إمبراطور الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشرقيَّة. ومع أنَّ ليسينيوس كان قد وَقَّعَ مَرسومًا يَقضي بالتَّسامح مع المسيحيِّين والسَّماح لهم بممارسة إيمانهم، فإنَّه راح يضطهدُهم. وكان ليسينيوس قد أمَرَ جُنودَه بإنكار المسيحيَّة وإلَّا فسيُعاقبهم حتَّى الموت. وفي سبسطية (Sebaste) الأرمنيَّة (وهي جُزءٌ من تُركيَّا اليوم)، رَفَضَ أربعون جُنديًّا أنْ يُنكروا المسيحيَّة. ولأنَّهم كانوا جُنودًا أكْفاء، لم يَشَأ قائدُهم أنْ يقتلَهم. ومع أنَّه جَرَّب معهم أساليبَ التَّهديد والوَعيدِ والضرب، فإنَّه أخفَقَ في تغيير مَوقفهم. وفي إحدى اللَّيالي، جُرِّدَ هؤلاء الجنود من ملابسهم وأُرغموا على النُّزول في بُحيرة مُتجمِّدة، ثُمَّ قيل لهم: "لن تَخرُجوا من هذه البُحيرة إلَّا إذا أنْكَرْتُم إيمانكم". ولتَحفيزهم أكثر، أشْعَلَ الحُرَّاسُ نارًا على مَقربة مِن البُحَيرة، كما وضعوا هناك أيضًا حَمَّامات ساخنة، وبطَّانيات، وملابس، وأطعمة وأشْرِبَة ساخنة.

في النِّهاية، بقيَ تسعةٌ وثلاثون رَجُلًا في البُحيرة المُتجمِّدة؛ لكنَّ رَجلًا واحدًا

أنكرَ إيمانه ونَجا بحياته. وكان أحدُ الحُرَّاس الواقفين عند شاطئ البُحيرة قد تأثَّر جدًّا بصمود هؤلاء المؤمنين؛ فما كان منه إلَّا أنْ تَجَرَّد من ملابسه وانضمَّ إلى الآخرين ليُكَمِّلَ عَدَدهم إلى الأربعين من جديد! وفي الصَّباح، كان هؤلاء الأربعون قد استُشهدوا تَجَمُّدًا.[1]

وتَقول إحدى الرِّوايات إنَّ هؤلاء الجنود كانوا يَترنَّمون طوال الطَّريق إلى البُحيرة بأنَّهم أربَعون رَجلًا لن يُنكِروا يسوع؛ بل سَيَعْبدونَه إلى النِّهاية. وعندما أنْكرَ ذلك الجُنديُّ إيمانه، صارَتِ التَّرنيمة تقول: "تِسْعَةٌ وثلاثونَ رجلًا". لكنْ عندما انْضَمَّ الحارسُ إليهم، راحَ يُرَنِّمُ قائلًا: "أربَعونَ رَجُلًا..." فقد رأى ذلك الحارسُ مجدَ الإنجيل من خلال استعدادِ هؤلاء الجُنود للتألُّم لأجْل السيِّد المسيح.

وقد كتبَ عالمُ الاجتماع "رُدْني ستارْك" (Rodney Stark) كتابًا رائعًا بعنوان "بُزوغُ المَسيحيَّة" (The Rise of Christianity) يَصِفُ فيه كيف أنَّ المسيحيَّةَ بدأت بمجموعةٍ صغيرةٍ من المُؤمنين في أرض فلسطين، ثُمَّ تَحوَّلتْ إلى أكبر جماعةٍ في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة في فترةٍ قصيرةٍ نسبيًّا. وهو يَستعرضُ بعضَ العوامل التي يَرى أنَّها أسهمَتْ في هذا الإقبال الهائل على السيِّد المَسيح فيقولُ إنَّه كان هناك وباءانِ خطيران مُتَفَشِّيان في العُصور الأولى. فإنْ شُفِيَ المَرضى منهما، فهناك أملٌ كبيرٌ في نجاتهم. لكنْ في حال إصابة أحَد أفراد العائلة بأيٍّ من هذين الوباءَين، غالبًا ما كان أفرادُ العائلة يَتركونَ ذلك الشخصَ دون عناية؛ بل إنَّهم كانوا يَهجرون بيوتَهم إلى أماكنَ غير مُصابة بالوباء. أمَّا المسيحيُّون فلم يكونوا يَفعلون ذلك. لذلك، فقد كان عددُ المَسيحيِّين الذين نَجَوا أكبر من عدد غير المسيحيِّين. كما أنَّ المؤمنين اعتَنَوا بالمَرضى الذين تَخَلَّى عنهم أفرادُ عائلاتهم. ويقول ستارْك إنَّ استعدادَ هؤلاء المؤمنين لاحتمال المُعاناة في سبيل رعاية المرضى لَعِبَ دَورًا في تَحَوُّل عددٍ كبيرٍ من الأشخاص في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة إلى السيِّد المسيح.[2]

وفي وقتنا الحاضر، يَنظُرُ الكثيرون إلى الإنجيليِّين نظرةَ ازْدراءٍ حاسبين أنَّهم أشخاصٌ غير مُتناغِمين مع النظرة التَّعدُّديَّة "التَّقَدُّميَّة" من نحو الدِّين.

والسَّبب في ذلك هو أنَّ هؤلاء يَدَّعون "بِعَجرَفةٍ" أنَّهم يتَميَّزون في إيمانهم عن الآخرين. لكنْ يجب علينا ألَّا نَنسى أنَّ هذه العقيدة شَقَّت طريقَها وصمدَتْ في عهد الإمبراطوريَّة الرومانيَّة في القرن الميلاديِّ الأوَّل رُغم أنَّ المُجتمعَ آنذاك كان مُجتمَعًا مُتَعَدِّد الدِّيانات كما هي حال مُجتمعاتنا اليوم. ولأنَّ المؤمنين كانوا نَشِطين في الكرازة بالإنجيل، فقد عانَوا هم أيضاً من الاحتقار والاضطهاد. لكنَّهم احتَمَلوا الاضطهادَ بفَرَح، فكانوا أنوارًا اجتَذَبَتِ النَّاسَ إلى السيِّد المسيح. ويُمكنُنا أن نَرى هذا يَحدُثُ مع قائد المئة الذي شَهدَ مَوت يسوع فقال مُتعجِّبًا: "حَقًّا كَانَ هذَا الإِنْسَانُ ابْنَ اللهِ!" (مرقس ١٥: ٣٩).

فَهل يَرى الناسُ حَقًّا أنَّنا نَتألَّمُ لإظهار الحَقِّ المُعلَن في الإنجيل؟ أخشى أنَّ كلَّ ما يرَونَه هو أنَّنا نُصارِعُ لحماية نفوذنا وكبريائنا، وأنَّنا نُناضِلُ لاسترجاع حُقوقنا بدلًا من أنْ نَهتمَّ بإظهار المَحَبَّة لأعدائنا. وتَحضُرُني الآن قِصَّةُ ذلك المؤمن الذي اعتُقلَ بسبب إيمانه بالسيِّد المسيح. وعندما سألَه الموظَّف الحكوميُّ قائلًا: "ما الذي يُمكن لإلهك أنْ يَفعلَه من أجلك الآن؟" كان رَدُّ المُؤمن عليه بالقول: "يُمكنُه أنْ يَمنَحَني القُوَّةَ اللَّازمة كي أغفرَ لك!".

في أثناء ثورة المُلاكمين في الصِّين في بداية القرن العشرين، تَعَرَّض مئات المُرْسَلين للقتل، وَدُمِّرَتِ العديدُ من المُمتلكات التابعة لهيئاتهم الإرساليَّة. وفي وقتٍ لاحق، وُقِّعَتْ مُعاهدةٌ تَقضي بدَفْع تَعويضاتٍ للأجانب الذين تَعَرَّضوا للخسائر. لكنَّ هيئةَ هَدْسون تايلور (Hudson Taylor) للعَمَل المُرسليِّ في الصِّين تَنازَلَتْ عن التَّعويضات التي كانت من حَقِّها.[٣] وبسبب ذلك الموقف، عَبَّر حاكمُ الصِّين عن عَظيم امتنانه ممَّا أدَّى إلى تَمجيد اسم يَسوع.[٤]

إنَّ المُعاناة تَجعلُ الأشياءَ المُهِمَّة في الحياة تَطْفو على السَّطح. ففي وَسْط الألَم، يمكنُكَ أن تَرى الأشياءَ التي يحيا النَّاس لأجلها. وكما هو واضحٌ، فإنَّ غالبيَّةَ الناس يخافون الألَمَ ويبذلون جَهدهم لتجنُّبه. لكنْ ماذا لو رأى الناسُ أنَّ المؤمنين يَمتلكون إيمانًا يُساعدُهم على مُواجَهة الألَم بفَرَح؟ من المؤكَّد أنَّهم

سيَجلسون ويُدَوِّنون المُلاحظات. وعندها، سيُضْطَرُّ الكثيرونَ إلى التَّفكير بجِديَّةٍ في ما قاله يَسوعُ المسيح!

كان أحدُ المُرسلين الأتقياء قد خَدَمَ الله بأمانةٍ ولفترةٍ طويلة في وسط مجموعةٍ من الأشخاص الذين أغلَقوا أبوابَ قلوبهم في وجه السيِّد المسيح. لكنَّ هذا الشخصَ لَم يَرَ أيَّ شخصٍ يأتي إلى السيِّد المسيح طوال خدمته في وسطهم. وبعد مَوته، ذهب مُرْسَلٌ شابٌّ وَحَلَّ مَحلَّه. وقد دُهِشَ الخادم الجديد حين رأى أنَّ جميعَ الناس تقريبًا تجاوَبوا مع رسالة الإنجيل. وحين سألهم عن سبب عدم تَجاوُبِهم مع رسالة الإنجيل في أثناء الفترة التي قَضاها ذلك المُرسل العظيم في وسطهم، أجابوه قائلين إنَّ ذلك المُرْسَلَ العجوزَ كان قد أخبرَهم بأنَّهم إنْ آمنوا بالسيِّد المسيح فلن يَهابوا الموت. ومع أنَّهم أُعجبوا بذلك، فإنَّهم أرادوا أنْ يَتَحَقَّقوا من صِدْق قَوله. لذلك، فقد انتظروا إلى ما بعد وفاته. وعندما شاهدوا بأُمِّ أعيِنِهم أنَّه لَم يَكُن خائفًا من الموت، كان ذلك كافيًا لإقناعهم بقبول السيِّد المسيح!

الفصل السَّادس عَشَر

مع النَّاس في خَندَقٍ واحد*

كنَّا قد بدأنا الفَصل السَّابق بالإشارة إلى مُقَدِّمة إنجيل يوحنَّا، ولا سيَّما يوحنَّا ١: ١٤ ''وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا''. ومن بين الأشياء القَيِّمَة التي نَجدُها في هذه الآية هو ما يُعرَف بعقيدة التجسُّد. فالكَلِمَةُ [يَسوع] العظيم والمُرتَفع المذكور في بداية الأصحاح صارَ شخصًا عاديًّا كسائر البَشَر. والتجسُّدُ يَعني ''حُلولَ اللهِ أوِ الرُّوحِ في جِسْمٍ بَشَرِيّ''.[١] فلكَيْ يَتَمَكَّنَ يَسوع من تخليصنا، صارَ كواحدٍ منَّا.

---

* حريٌّ بالذِّكْر هنا أنَّ الكاتبَ استَخدَمَ في عنوان هذا الفصل الكلمةَ الإنكليزيَّة (Identifying)، وهي تُترجَمُ في العربيَّة إلى ''التوحُّد'' أو ''التَّماهي''، أي أن تضَعَ نفسَك وسط الناس وتعيش أحوالَهم. وقد اختارَ مُترجمُنا الفاضل ألَّا يتقيَّدَ بالتَّرجمة الحرفيَّة، بل اختارَ عنوانًا في العربيَّة حملَ بين ثناياه بلاغةً محبَّبة. وارتأيْنا، توخِّيًا للدِّقة، نَقْلَ هذه الملاحظة (الناشر).

وفي وقتٍ لاحق، بعد تَجَسُّده، قال يسوع لأتْباعِه: "كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا" (يوحنَّا ٢٠: ٢١). وهكذا، فقد جاءَ يسوعُ إلى العالَم لكي يُخَلِّص البشريَّة. ويجب علينا نحن أيضًا أنْ نذهبَ إلى العالَم حاملين رسالةَ الخلاص. لكنَّ غالبيَّة الناس الذين يحتاجون إلى الخلاص هُم ليسوا مِثلنا. لذلك، كما أنَّه كان ينبغي ليسوعَ أنْ يَصير كواحدٍ منَّا لكي يُتَمِّمَ خَلاصَنا، ينبغي لنا نحن أيضًا أنْ نصيرَ مثلَ النَّاس لكي نَحْمِلَ لهم رسالةَ الخلاص. ومع أنَّ الخلاصَ امتيازٌ عظيم، فإنَّه مسؤوليَّةٌ كبيرةٌ أيضًا. وهناك الملايين من الأشخاص الذين لا يَعرفون الخلاصَ الذي نَعرفُه نحن. لهذا، يجب علينا أنْ نُعَرِّفهم برسالة الإنجيل. لكنْ بسبب اختلافهم الشَّاسع عنَّا، فإنَّ الاقترانَ بهم هو تَحَدٍّ لا يُستهان به. ولا نُخطئ إنْ أسمَيْنا هذه الخِدمة "خدمة التَّجَسُّد".

وقد وَصَفَ الرَّسول بولُس محاولاته للاقتران بالنَّاس بالكلمات التالية:

> فَإِنِّي إِذْ كُنْتُ حُرًّا مِنَ الْجَمِيعِ، اسْتَعْبَدْتُ نَفْسِي لِلْجَمِيعِ لأَرْبَحَ الأَكْثَرِين. فَصِرْتُ لِلْيَهُودِ كَيَهُودِيٍّ لأَرْبَحَ الْيَهُودَ. وَلِلَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ كَأَنِّي تَحْتَ النَّامُوسِ لأَرْبَحَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ. وَلِلَّذِينَ بِلاَ نَامُوسٍ كَأَنِّي بِلاَ نَامُوسٍ- مَعَ أَنِّي لَسْتُ بِلاَ نَامُوسٍ لِلّهِ، بَلْ تَحْتَ نَامُوسٍ لِلْمَسِيحِ- لأَرْبَحَ الَّذِينَ بِلاَ نَامُوسٍ. صِرْتُ لِلضُّعَفَاءِ كَضَعِيفٍ لأَرْبَحَ الضُّعَفَاءَ. صِرْتُ لِلْكُلِّ كُلَّ شَيْءٍ، لأُخَلِّصَ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَوْمًا.
>
> (اكورنثوس ٩: ١٩-٢٢).

وأصعبُ شيءٍ وَجَدتُه في هذه القائمةِ هو قَول بولُس إنَّه صارَ كَضَعيفٍ لِيَرْبَحَ الضعَفاء. فنحن جميعًا نُحبُّ أنْ نَظهرَ بمظهر الأقوياء، وأنْ نكونَ مُسيطرين على كلِّ شيء، وأنْ يَسيرَ كلُّ شيءٍ كما نتمنَّى. لكنَّ طريقَ الإنجيل ليس هكذا. فمنَ الشَّائع أنْ نَسمعَ الناسَ يقولون إنَّهم يَبحثون عن كنيسةٍ يستريحُ بالُهم فيها. لكنِّي أعتقدُ أنَّ هذا القَولَ مُخْزٍ! فمَن الذي قال إنَّه ينبغي للكَنائس أنْ تكونَ أماكنَ راحة؟ فالحاجات المُلِحَّةُ في العالَم أهَمُّ بكثيرٍ من بَحْثِنا عن الرَّاحة.

وهُناك قصَّةٌ قرأتُها تُوضِحُ فكرةَ التجسُّد هذه. والقصَّة تَتحدَّث بشأن كنيسةٍ تَقَعُ بالقُرب من إحدى الجامعات. وقد كان شَغَفُ تلك الكنيسة هو تَوصيلَ رسالةِ الخلاص إلى الطَّلبة غير المُؤمنين في الجامعة. وبينما كانَ راعي الكنيسة يَعظُ في أحد الأيَّام، دخلَ الكنيسةَ شابٌّ شَعرُه طويلٌ جدًّا، ويرتدي ملابسَ بالية، وقد كان حافي القدمَين. وعِوَضًا عن الجلوس على المقاعد المُريحة، جَلسَ ذلك الشابُّ على الأرض. حينئذٍ، نَهَضَ أحدُ قادة الكنيسة من مكانه وتَقَدَّم من ذلك الشابِّ فيما راح أعضاءُ الكنيسة يَترقَّبون ما سيَحدُث. وكان كلُّ ما فعله ذلك القائد هو أنَّه جلسَ إلى جانب الشابِّ إلى أنِ انتهَتِ الخدمة.

أَلَيسَ من المُدهش أنَّ يسوعَ لَم يُطلِع المرأةَ السامريَّة على هويَّته عندما التَقاها، كما أنَّه لَم يَعرِضْ عليها المُساعدةَ لتَخليصها من المأزق الذي كانت فيه؟ (فقد كانت متزوِّجة بخمسة رِجال وَتعيش مع رَجُلٍ ليس زَوجها). وعِوَضًا عن ذلك، كان أوَّلَ شيءٍ قاله لها رَبُّ الكونِ وخالق كل المياه التي في العالم: "أَعْطِينِي لأَشْرَبَ" (يوحنَّا ٤: ٧). أجل! لقد طَلَبَ منها أنْ تُساعدَه بأنْ تُعطيَه شيئًا هو خَلَقَه وله سُلطانٌ كاملٌ عليه! فقد صارَ ضعيفًا ليَربَحَ تلك الإنسانةَ الضَّعيفةَ أخلاقيًّا. ولو لَم يَتعامَلْ معها بتلك الطريقة لخافَتْ منه وابتعدَتْ عنه.

ونَقرأُ في الرِّسالة إلى العبرانيِّين ٢: ١٨ جُملةً مُدهشةً حقًّا: "لأَنَّهُ فِي مَا هُوَ قَدْ تَأَلَّمَ مُجَرَّبًا يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ الْمُجَرَّبِينَ". حاوِل فقط أنْ تَتَخيَّل الآتي: الله العَظيم القُدُّوس يَتألَّمُ عندما يُجَرَّبُ! وما هذه سوى جُملةٍ واحدةٍ فقط تَصِفُ أسلوبَه في التجسُّد. وإليك جُملةً مدهشةً أخرى: "وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ" (فيلبِّي ٢: ٨). لقد ماتَ رَبُّ الحياة. والشَّخص الوحيدُ الذي هو بلا خطيَّة أخَذَ على عاتقه أجرةَ الخطيَّة. لكنَّ أحدَ الأمور الأكثر جاذبيَّةً في يسوع هو أنَّه يَعرف كُلَّ ما نُعانيه. لهذا، فهو قادرٌ على فَهْمِنا في كلِّ تَجاربنا وضيقاتنا. ويجب على الناس أن يَعرفوا هذا عَنَّا نحن المؤمنين المسيحيِّين؛ أي أنَّنا معهم في خَنْدَقٍ واحدٍ في صراعاتهم.

ففي وقتنا الحاضر، غالبًا ما يَنظُر الناس إلى المُؤمنين بِصفَتِهم أشخاصًا يُعارِضونَ كلَّ ما هو خطأ. وفي عالَم يؤثِّر فيه الشرُّ تأثيرًا مُريعًا، سواءٌ أفي الأشياء أم في الأشخاص من حَولنا، فإنَّه يجبُ علينا أنْ نُعارِضَ الخطأَ لكي يظَلَّ هناك بعضُ التَّعقُّل في العالَم. فينبغي لنا أن نَتَصَدَّى للإجهاض، والموادِّ الإباحيَّة، والجنسيَّة المِثليَّة، والزِّنى، وغَيرها. وعندما نَفعل ذلك، سنُعاني ونتألَّم لأنَّ الناسَ سيُعارِضونَنا ويَتَّهِمونَنا بشَتَّى التُّهَم. وعندما نحاولُ أنْ نُساعدَ الأشخاصَ الغارقين في مثل هذه العادات والخطايا، سنُعاني ونتألَّم، بل إنَّنا سَنُرفَضُ على أيدي الأشخاص الذين نحاولُ مُساعدتَهم. لكنِّي أُصلِّي أن تؤدِّيَ آلامنا إلى ربْح النُّفوس للسيِّد المسيح. فَعِوَضًا عن أنْ يَرى النَّاسُ أنَّنا نَتَخبَّطُ ونَصرخ بسبب الطَّريقة التي عُوملنا بها، أرجو من صميم قَلبي أن يرَوا أنَّ تألُّمنا من أجل مبادئنا هو شَرَفٌ عَظيمٌ وَفَرَحٌ لا يُوصَف!

ولكي نَتألَّمَ على هذا النَّحو، يجب علينا أن نَنظُر إلى المُعاناة كأمْرٍ عاديٍّ في حياتنا نحن المؤمنين المسيحيِّين. أفلَمْ يَتنبَّأ يسوعُ نفسُه قائلًا: "فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ" (يوحنَّا ١٦: ٣٣)؟ إذًا، لماذا نَتضايق كثيرًا عندما لا تسيرُ الأمورُ كما نتمنَّى؟ وعندما يتألَّم شخصٌ ما لأجل الإنجيل، لماذا نَستنتج في أغلب الأحيان أنَّه قد ارتكبَ أمرًا خاطئًا؟ قال "جي. كاي. تشيستَرتون" (G. K. Chesterton): "لقد قطعَ يسوعُ لتَلاميذه ثلاثةَ وُعود: أنَّهم لن يَخافوا البَتَّة، وأنَّهم سيَكونون فَرِحين على نَحْوٍ غير عاديّ، وأنَّهم سيواجهون الضِّيقات دائمًا".[٢]

وهكذا، يجب أن يكونَ المؤمنون أُناسًا مُغرَمين بالعمل الإرساليّ. ففي اللحظة التي نأتي فيها إلى السيِّد المسيح، فإنَّنا نصيرُ سُفراءَه في العالَم. وعندها، يجب علينا أن نُحاربَ جميعَ أشكال المُحاباة، والظُّلم، والفَساد، والانحطاط الأخلاقيّ. كما يجب علينا أنْ نُساعدَ المحتاجين. والأهمُّ من هذا كلِّه، يجب ألَّا نَنسى يومًا أنَّ الناسَ من دون السيِّد المسيح سيَهلِكون إلى الأبد. لهذا، يجب علينا أن نَفعلَ كل ما نَقدِرُ عليه لِتَقريبهم من السيِّد المسيح. وينبغي لنا أنْ نسألَ أنفسنا دَومًا:

"كيف يمكنني الوُصول إلى هؤلاء الناس؟" ويجب أن نكونَ مُستعدِّين لدَفْع الثَّمَن من أجل تحقيق ذلك.

كان "جورج هارلي" (George Harley) طبيبًا من الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ذَهبَ مُرسَلًا إلى ليبيريا (في أفريقيا) مع زَوجته الحامِل. وكان قد حَصَل على شهادته في الطِّبِّ البشريِّ من جامعة يال، وشهادة الدكتوراه في أمراض المناطق الاستوائيَّة من جامعة لندن. وقد خَدَمَ في منطقة أدغالٍ نائية وَصَل إليها هو وزَوجته الحامل بعد مَسيرة سبعةَ عشرَ يومًا على الأقدام. وبعدَ أن أمضى خمسَ سنواتٍ هناك، لَم يتَجاوَبْ أيُّ شخصٍ مع رسالة الإنجيل. ومع أنَّهم كانوا يَجتَمعون كلَّ أسبوعٍ للعبادة ويَدعون النَّاسَ إلى الحضور، فإنَّ أحدًا من الأفارقة لَم يَنضَمَّ إليهم. وفي أحد الأيَّام، ماتَ ابنه. وقد اضطُرَّ إلى تَكفين ابنه بنَفسه وحَمْلِ جُثمانه وحدَه إلى مَوقع الدَّفْن. وهكذا، فقد كان هناك بمُفرده باستثناء رَجُلٍ أفريقيٍّ واحدٍ جاءَ لمُساعدته.

وبينما كان هارلي يَرمي التُّراب فوق التَّابوت، غَمَرَه حُزنٌ عميق. فما كان منه إلَّا أنْ دفنَ رأسَه في التُّراب الرَّطِبِ وراح يَبكي. حينئذٍ، تَقَدَّم منه الرَّجلُ الأفريقيُّ الذي كان يُراقبُ ما يَجري وأمسَكَ هارلي من شَعره وتَفَرَّس في وجهه لوقتٍ طويلٍ نسبيًّا. ثُمَّ رَكَضَ باتِّجاه القرية وهو يصيح بأعلى صوته: "الرَّجُلُ الأبيض... الرَّجلُ الأبيضُ يَبكي مِثلنا!" وفي خِدمة يوم الأحد التالي، ازْدَحَمَ المكانُ بالأفارقة.

لقد خَدَمَ هارلي في ليبيريا لخمسٍ وثلاثين سنة. وكانت إنجازاتُه مُذهلةً في العديد من المجالات. فقد رسمَ أوَّل خريطةٍ دقيقةٍ لليبيريا. وقد حازَ أرفعَ وسامٍ في ليبيريا. لكنْ قبلَ أن يَتحقَّقَ ذلك، كان يَنبغي له أنْ يَرى ابنَه يموتُ أوَّلًا. وعندما أشارَ أحدُ الأساقفة من كنيسته الميثوديَّة إلى ذلك أمام الدكتور هارلي، رَدَّ هارلي مشيرًا إلى الله: "كما تَعلَم، فقد كان للهِ ابْنٌ بذلَه أيضًا!".[٣]

وقد تكونُ الحالُ كذلك في مُجتمعاتنا نحن أيضًا. فَقبلَ أنْ يُفتَنَ النَّاسُ

بيَسوع، لا بُدَّ أن يَرَوا أنَّنا نُشاركُهم خبراتِهم وتجارِبَهم. فهناك زوجٌ لا يُحبُّ الكنيسةَ لكنَّه مُغْرمٌ بكُرة القَدَم. وقَبْلَ أنْ يأتيَ إلى السيِّد المسيح، قد يَتعيَّنُ على زَوجته المُؤمنة التي تُحبُّ الكنيسة وتَكره كُرة القَدَم أنْ تُقَرِّر مُشاهدة كُرة القَدَم معه. بل ربَّما ينبغي لها أنْ تُثَقِّفَ نفسَها في كُرة القَدَم لكي تتمكَّن من تَبادُل أطرافِ الحديث معه بشأن هذه اللُّعبة.

في إحدى السَّنوات، كُنتُ على وَشك مُغادرة أحَد مراكز الخدمة خاصَّتِنا إلى مدينتي، كولومبو (عاصمة سريلانكا)، حين سألني أحدُ زُملائي إنْ كان بإمكاني أنْ أنقلَ رسالةً إلى عائلةٍ في قريةٍ كُنَّا نَخدمُ فيها. فقد كانَتِ الرَّسائل تُنقَلُ شخصيًّا لأنَّ الهواتفَ لَم تكنْ مُنتشرةً في القُرى في ذلك الوقت. ومع أنِّي كُنتُ في عَجَلَةٍ من أمري بسبب اجتماعٍ كان ينبغي لي أن أحضرَه في كولومبو، فإنِّي وافقْتُ على حَمْل تلك الرسالة. وحين وَصَلْتُ القرية، دَعَتْني العائلةُ البوذيَّةُ التي حَمَلْتُ لها الرِّسالة إلى تناوُل كوبٍ من الشَّاي. لكنِّي اعتذرتُ وأخبرتُهم بأنِّي لا أستطيعُ ذلك، ثُمَّ غادرْتُ إلى كولومبو. وعندها، ذاع الخَبَرُ في القرية كلِّها أنَّ مديرَ هيئة "شباب للمسيح" جاء إلى القرية لكنَّ كبرياءَه منعَتْه من تناوُل كوبٍ من الشَّاي في أحد منازل القرية.

فَفي ثقافة القُرى لدينا، حيثُ يُعَدُّ حُسْنُ الضِّيافة قيمةً جوهريَّةً، لا يُمكنُك أن تزورَ بيتًا وتُغادرَه دون أن تَتَناوَلَ كوبًا من الشَّاي. وقد أدركْتُ حينها أنَّه ما دامَ وَقتي لم يكنْ يَسمَحُ لي بتَناوُل كوبٍ من الشَّاي مع تلك العائلة، فإنَّه لَم يَكُنْ يَجْدُرُ بي الذَّهاب إلى تلك القرية أصلًا. وهكذا، من الواضح أنَّ أهلَ القُرى لا يفهمونَ ثقافةَ أهل المُدُن. لذلك، إذا أرَدْنا أنْ نَخدمَ في وسط مثلِ هؤلاء النَّاس، يجب علينا أن نَتخلَّى عن بعض قِيَمِنا المُتَمدِّنةِ كَيلا نُسيء إليهم.

نحن نعيشُ في وقتٍ صارتْ فيه دراسةُ علم الإنسان شائعةً جدًّا حتَّى في الكنيسة. فَقد يُساعدُنا علمُ الإنسان في شهادتنا للسيِّد المسيح؛ لأنَّه يُعَلِّمُنا بعضَ السِّمات الثقافيَّة والسلوكيَّة للنَّاس الذين يَدْعونا الله إلى الخِدمة في وسطهم.

لكنَّ هذا الفهمَ قد يَصيرُ عديمَ النَّفع إن لَم نَقُمْ بخدمة التجسُّد أوِ الاقتران بهؤلاء النَّاس. ويبدو أنَّ هذا الاقترانَ ليسَ بالأمر الهيِّن بتاتًا. فالنَتائجُ تَستغرقُ وقتًا طويلًا. لذلك، قد يَستنتجُ بعضُ خُدَّام الربِّ أنَّ هذا الدَّرْبَ مُحْبِطٌ جدًّا في هذا العالَم السَّريع الذي نعيش فيه. وقد يَعتذرُ الكثيرون عن تَلبية مثل هذه الدَّعوة ويحاوِلون القيام بخدمةٍ أسهل.

لقد ظَنَنْتُ لوقتٍ طويل أنَّ القُدرةَ على التَّعايُش مع الإحباط هي إحدى أهمِّ مؤهِّلاتِ العمل الإرساليّ. أمَّا الآن، فقد صِرْتُ أُدركُ أنَّ هذا يَنطبقُ على جميع أشكال الشَّهادة المسيحيَّة. فالنَّاس بعيدون جدًّا عن طريقة التَّفكير والعَيش التي تُوصينا بها كلمة الله. وهذا يؤدِّي- بدَورِه- إلى عدم تَجاوُبِهم الفوريِّ مع شهادتنا. لهذا، يجب علينا أنْ نَكونَ معهم، وأن نَفهمَهم، وأن نُساعدَهم على فَهْمنا. ومع أنَّ ذلك قد يكون مُحبِطًا، فإنَّه سيَجعَلُهم أكثر استعدادًا للإصغاء إلى الرسالة التي نَحمِلُها وللتَّجاوب معها. وهذا هو ما سيَفتحُ البابَ لتَقديم شَهادةٍ مُؤثِّرة.

الفصل السَّابع عَشَر

كيف نعمِّقُ تأثيرَنا

إحدى الطُّرق الأخرى التي يُسْهمُ فيها الألَمُ في مُساعدة الكنيسة هي أنْ نعمِّقَ تأثيرَنا. ففي أوقاتٍ مُختلفةٍ من تاريخ الكنيسة، صارَ ضَعفُ الإيمان يُهَدِّد بإحداث فوضى عارمةٍ في الكنيسة. فقد صارَ النَّاسُ يَدَّعون أنَّهم أتباعٌ للسيِّد المسيح دونَ أن يَسيروا في دَرْبِ التَّلمذة الحقيقيَّة. كما أنَّهم لم يحملوا صَليبهم في أثناء سَيرهم مع السيِّد المسيح. ويمكنُنا أن نرى هذه المشكلة في العديد من الكنائس حول العالَم. وربَّما كانَتْ أفضل طريقةٍ لتَعميق إيمانِ هؤلاء الأفراد الضَّعيفي الإيمان هي المُعاناة.

ومع أنَّ الأمرَ قد يبدو صعبَ التَّصديق، فإنَّه كان ينبغي ليَسوعَ نفسِه أنْ يتألَّمَ لكي يزيدَ تأثيرُه ويتعَمَّق. فنحن نقرأُ في الرِّسالة إلى العبرانيِّين ٥: ٨-٩: "مَعَ كَوْنِهِ ابْنًا تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ مِمَّا تَأَلَّمَ بِهِ. وَإِذْ كُمِّلَ صَارَ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ، سَبَبَ خَلاَصٍ أَبَدِيٍّ". وهذا لا يعني أنَّ يسوعَ كان عاصيًا في يومٍ من الأيَّام؛ لكنَّه تَعَلَّم

أن يَكونَ مُطيعًا من خلال الألَم والمُعاناة. ومع أنَّه لم تكنْ فيه خطيَّة البَتَّة، فإنَّه صار كاملًا، بمعنًى من المعاني، من خلال مَوته.

ويُوضِحُ "ليون موريس" (Leon Morris) هذه النُّقطة فيقول: "... لقد تَعَلَّم [يسوع] الطَّاعةَ من طريق الطَّاعة الفعليَّة. فهناك جودةٌ مُعيَّنةٌ لكلِّ عملٍ يقومُ به الإنسان؛ وهذه الجودة تنْعدمُ عندما يكونُ الاستعدادُ للعمل هو كلَّ ما لدى المرء. فالبراءة تَختلفُ عن الفَضيلة".[1] وهكذا، فقد كانَتْ هُناك طاعةٌ عميقةٌ ومستوًى جديدٌ من النُّضْج والكمال اللَّذَين لم يكنْ لِيَصلَ إليهما إلَّا من طريق الألَم والمُعاناة.

لاحِظْ أنَّ الآية في عِبرانيِّين ٥: ٨ تَبدأ بالكلمات "مَعَ كَوْنِهِ ابْنًا..." وكما يقولُ موريس: "الكاتبُ لا يقولُ «لأنَّه كان ابْنًا» بل «مَعَ كَوْنِهِ ابْنًا». ففي ضَوء مَنْزِلَة يسوع الرَّفيعة، لم يَكُن أحدٌ يتوقَّع أنَّه سيُعاني".[2] لكنْ في بعض الأحيان، عندما يُعاني أحدُ المؤمنين بسبب أمانته للسيِّد المسيح، قد يقولُ الناسُ له: "أنت لا تَستحقُّ أن تُعانيَ هكذا". لكنَّ الكتابَ المُقدَّس يقول إنَّه لنصيرَ عُظَماء يجب أن نَتألَّم. وينبغي لنا أن نُركِّزَ أنظارَنا على أن نكونَ عُظَماءَ لله، وعلى أن نَسمحَ لله بأنْ يَستخدمنا إلى الحدِّ الأقصى. وإنْ كان الأمرُ كذلك، يجب علينا أن نتقبَّلَ هذا النَّوعَ من الألَم لأنَّه الطَّريق المؤدِّي إلى العَظَمَة.

لا يُمكنُني القولُ إنِّي عانَيتُ كثيرًا في حياتي العائليَّة قبلَ الزَّواج أو بَعدَه. ومع أنِّي أخَذْتُ نَصيبي العادِلَ من المِحَنِ وَالتَّجارب عندما كُنتُ طالبًا، فإنِّي لا أستَطيع أن أقولَ إنِّي عانَيْتُ قبلَ أن أصيرَ خادمًا للرَّبِّ. لكنَّ الله دَعاني لأخْدمَ المُتألِّمين. ومنذُ التِحاقي بخدمة يسوع، كثيرًا ما عانَيتُ وتألَّمت. وأنا أُدركُ الآن أنِّي كُنتُ بحاجةٍ إلى اختبار ذلك الألَم لكي أصيرَ خادمًا أفضلَ للسيِّد المسيح.

ففي إحدى المرَّات، مَرَرْتُ بأزمةِ رَفْضٍ عميقةٍ عندما أساءَ أحدُ الأشخاص تَفسير خِدمةٍ قُمتُ بها بتَضحيةٍ شخصيَّةٍ كبيرة. وقد وَجَدْتُ تصرُّفاته مؤلمةً جدًّا؛ بل إنِّي عانَيتُ من المَرارة لفترةٍ طويلة بسبب ذلك. وبينما كُنتُ في رحلةٍ إلى

الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، اتَّصلْتُ بصديقي الكنديِّ الحَميم "برايَت ستيلر" (Bright Stiller) وأخبرتُه بذلك الألَم الذي كُنتُ أشعُر به. ولا يُمكنُني أن أنسى ما قاله لي. فقد أخبرني بأنِّي سأُدركُ في أحد الأيَّام أنَّ تلك التَّجربة ساعدَتْني كثيرًا على أن أصيرَ خادمًا أفضل للسيِّد المسيح. وبعدَ خمسة عشر سنة من تلك التَّجربة، يُمكنُني أن أقولَ بأمانة إنَّ هذا هو ما حَدَثَ بالفِعل.

ومُنذ ذلك الحين، واجهتُ العديد من التَّجارب الأصعب والأقسى. لكنِّي أعرفُ يَقينًا أنَّ تلك المِحَنَ وَالتَّجارِبَ علَّمَتْني حَقائقَ عميقةً عن الحياة المسيحيَّة والخدمة المسيحيَّة؛ وهي حقائقُ لَم أكنْ لأتَعلَّمَها بأيَّة طريقةٍ أخرى. فقد صرتُ خادمًا أفضلَ بسببها. ويُقال إنَّ مارتن لوثر (Martin Luther) قال إنَّ هناكَ ثلاثَ قواعدَ لفَهْم الأمور اللَّاهوتيَّة فَهْمًا صحيحًا: الصَّلاة، والتأمُّل، والاختبارات الرُّوحيَّة.

وقد قال أحدُ أساتذة الموسيقى في ڤيينا، العاصمة النمساويَّة، عن إحدى طالباته: "إنَّها مُغنِّية مُذهلة، لكنَّ غناءَها يفتَقرُ إلى شيءٍ ما. فقد كانَتِ الحياةُ لطيفةً معها أكثرَ ممَّا يَنْبَغي. لكن إنْ حدثَ في يوم ما أنَّ شَخصًا فطرَ قَلبَها، ستصيرُ أفضَلَ مُغنِّيةٍ في أوروبا!"[٣] وهكذا، فالمُعاناةُ تُساعِدُ في تَعميقِ بَعض الجوانب في شخصياتنا وحياتنا سواءٌ أَخُدَّامًا كُنَّا أم أناسًا عاديِّين.

ويُخبرنا الدكتور "دَنيس كينلو" (Dennis Kinlaw) بشأن زَوجة قِسٍّ صارَتْ مُؤمنةً مُكرَّسةً بالفعل للسيِّد المسيح بعد مَوت زَوجها. فقد صارتْ مؤمنةً مُتَعاطِفةً مع الآخرين ورابحةً للنُّفوس. وعندما سمع الدكتور دَنيس كينلو أنَّها على وشك فقدان بَصَرِها، ذهبَ لزيارتها فقالت له: "دَنيس، هل جئتَ لِتُعَزِّيَني؟" وكان سؤالُها مُوَجَّهًا وكأنَّه اتِّهام. فأجابَها كينلو: "أجل!" فقالَتْ: "هل تُريد أنْ تَحرمَني امتيازَ السَّير مع السيِّد المسيح في الظلام؟ فهناك أسرارٌ يُمكنُني أنْ أتعلَّمَها في الظلام لَم يَكُنْ بإمكاني أن أتعلَّمها في النُّور".[٤]

وهكذا، بعد أن قَضَيْنا وقتًا في التدرُّب كتَلاميذ في مدرسة السيِّد المسيح، فإنَّنا نَتعلَّم ألَّا نُفاجَأ بخَيبة الأمل والألَم. وعندما نُواجِهُ تجربةً ليسَتْ مُتوقَّعةً نَعتقد أنَّنا

لا نَستحقُّها، يجب علينا أن نُدركَ أنَّ الله سمحَ بها لكي يُعطيَنا مزيدًا من العُمق. فإنْ فَكَّرْنا وتصرَّفنا بهذه الطريقة، سنتغلَّب على المرارة التي قد تُرافِقُ خَيبةَ الأمل.

لقد تَخَرَّج ابني وحملَ شهادةً في علوم الحاسوب. لكنْ عندما كان صبيًّا، ارتَكَبَ خطأً أدَّى إلى تَعَطُّل الحاسوب. ولا يُمكنُني أنْ أنسى مِقدار سعادته في تلك اللَّحظة مع أنَّ هذا النوع من المشكلاتِ كان يُحبِطُني جدًّا. فقد قال لي: "أنا أستمتعُ عندما تَحدُثُ مثل هذه المشكلات؛ لأنِّي أتعلَّمُ من خلالها الكثيرَ من الأمور الجديدة عن الحاسوب".

إنَّ إحدى الخِبرات الأكثر إيلامًا في حياة المؤمن المُجتَهِدِ في مساعدة الآخرين هي أن يَرى الأشخاصَ الذين تَعِبَ معهم ولأجلهم يَسقطون في خطايا شَنيعة. لكنَّ هذا يَدفعُنا إلى طَرْح العديد من الأسئلة. وفي أثناء مُحاوَلتِنا العثور على إجاباتٍ لها، فإنَّنا نَتعلَّمُ الكثيرَ من الحقائق المُهِمَّة عن المسيحيَّة. وفي ما يلي بعضُ الأسئلة التي قد نُضطرُّ إلى طَرْحِها:

- في أيِّ شيءٍ أخطأ هذا الشخص؟ لماذا فعلَ ذلك؟
- هل حَدَثَتْ بعضُ الأشياء قبل هذه الخطيَّة الشَّنيعة ممَّا مهَّد الطريقَ لضَعْفه وسقوطه في التَّجرِبة؟
- كيف كان بإمكانه تَجَنُّبُ ذلك؟
- كيف ينبغي لنا أن نُؤدِّبَه؟
- كيف يُمكنُنا أن نَردَّه؟
- كيف يجب عليَّ أنْ أتعاملَ معه الآن؟
- مَنِ الأشخاصُ الذي يجب أنْ يَعرفوا بشأن هذه المشكلة؟ لماذا يجبُ إخبار هؤلاء الأشخاص دون غيرهم؟
- كيف يمكنُني أنْ أتعامَلَ مع خَيبة الأمل المُرافِقة لما حَدَث؟

لقد كُتِبَتْ غالبيَّةُ الرَّسائل في العهد الجديد كرَدٍّ على مُشكلاتٍ مُعيَّنَة.

وفي أثناء صِراع كُتَّاب تلك الرَّسائل مع تلك المُشكلات، ازدادَ فَهمُهم اللَّاهوتيُّ عُمقًا. وهذا يَنطبقُ أيضًا على الرَّسائل العَظيمة التي كَتبَها المُدافِعون الأوائل عن الحَقِّ المسيحيّ. فقَدْ كُتبَتْ غالبيَّةُ تلك الرسائل كرَدٍّ على مُشكلاتٍ في الكنيسة أو خارجها:

- فالرِّسالةُ الأولى إلى مُؤمِني كورنثوس تُبَيِّن أنَّه لَم تكنْ هناك وحدةٌ في الكنيسة، كانت هناك خطيَّةٌ جنسيَّةٌ خطيرة، كما بيَّنَت أيضًا وجودَ دعاوى قضائيَّة بين المؤمنين في المحاكم، وكانت هناك إساءاتٌ لمائدة الربّ، وسوءُ فَهْم للمواهب الروحيَّة، وأنَّ بعضَ المؤمنين لَم يكونوا يؤمنون بالقيامة المُستقبليَّة. لهذه الأسباب مُجتَمعَة، كتبَ الرَّسول بولُس هذه الرِّسالة الزاخرة بالنصائح العمليَّة التي ما زالت مفيدةً جدًّا للمؤمنين حتَّى وقتنا الحاضر.
- والرِّسالةُ الثانيةُ إلى مُؤمني كورنثوس كُتبَت بعد أنِ اختبرَ الرَّسولُ بولُس ألَم الرَّفض القاسي من كنيسةٍ أسَّسَها هو نفسه. لكنْ بسبب هذا الألَم؛ وبسبب التَّعزية التي حَصلَ عليها والشِّفاء الذي اختَبره، فقد عَبَّر عن ذلك بكتابة هذه الرِّسالة التي تُعبِّر تعبيرًا جميلًا عن مجد الخدمة.
- والرِّسالةُ إلى مُؤمني غلاطيَّة لا تَحتوي على الصلاة المُعتادة في مُقدِّمتها. وعوضًا عن ذلك فإنَّ الرَّسول بولُس يقول بعدَ التحيَّة مُباشرةً: "إِنِّي أَتَعَجَّبُ أَنَّكُمْ تَنْتَقِلُونَ هكَذَا سَرِيعًا عَنِ الَّذِي دَعَاكُمْ بِنِعْمَةِ الْمَسِيحِ إِلى إِنْجِيلٍ آخَرَ" (١: ٦). فقدِ انْخَدعَ المؤمنون في غلاطيَّة بالتَّعاليم الخاطئة. وقد كان ردُّ الرَّسول بولُس مثالًا رائعًا على لاهوته العميق النَّابض بالحياة.
- وقد أدَّى انعدامُ الوحدة في الكنيسة في فيلبِّي إلى كتابة أعمقِ تأمُّلٍ عن التجسُّد في الكتاب المُقدَّس بأكمله (فيلبِّي ٢: ١-١١).

ويمكنُنا أن نَسترسلَ في قَوْل المزيد عن الرَّسائل الأخرى أيضًا. لكنَّ النقطةَ

المهمَّةَ هنا هي أنَّه لا تُوجَدُ طُرقٌ مُختصرةٌ لتَعميق إيماننا وتأثيرنا. فإنْ أردْتَ أن يكونَ لك تأثيرٌ عميقٌ في هذا العالَم، فيجب عليك أن تَختبرَ الألَم بنفسك.

الفصل الثّامن عَشَر

الألَمُ والمصداقيَّة

كثيرًا ما تَحَدَّث الرَّسول بولُس بشأن آلامه لأجل الإنجيل كدليلٍ على مِصداقيَّته. وقد قام بولُس بذلك عدَّة مرَّاتٍ في رسالته الثانية إلى مؤمني كورنثوس للدِّفاع عن رسوليَّته التي كانَتْ مَوضع شَكٍّ عند البعض. ومن الأمثلة الجيِّدة على ذلك ما وردَ في الأصحاح ٦، والأعداد ٤-١٠، والتي تبدأ بالكلمات التالية: "بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ نُظْهِرُ أَنْفُسَنَا كَخُدَّامِ اللهِ" (العدد ٤). ثُمَّ يُدْرِجُ بولُس الأسبابَ التي تَجعلُه يتصرَّف كخادم للرَّبّ. وتتألَّفُ قائمةُ الأسباب التي يذكُرها بولُس من ثلاثة أجزاء: ففي الجزء الأوَّل، يَستعرضُ عشرةَ عناصرَ لألَمه ومُعاناته: "فِي صَبْرٍ كَثِيرٍ، فِي شَدَائِدَ، فِي ضَرُورَاتٍ، فِي ضِيقَاتٍ، فِي ضَرَبَاتٍ، فِي سُجُونٍ، فِي اضْطِرَابَاتٍ، فِي أَتْعَابٍ، فِي أَسْهَارٍ، فِي أَصْوَامٍ" (٤-٥). وفي الجزء الثَّاني، يَستَعرض ثمانيةَ عناصرَ لقداسته: "فِي طَهَارَةٍ، فِي عِلْمٍ، فِي أَنَاةٍ، فِي لُطْفٍ، فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ، فِي

مَحَبَّةٍ بِلاَ رِيَاءٍ، فِي كَلاَمِ الْحَقِّ، فِي قُوَّةِ اللهِ بِسِلاَحِ الْبِرِّ لِلْيَمِينِ وَلِلْيَسَارِ" (العددان ٦ و٧). وفي الجزء الثالث والأخير، يَستعرض تسعةَ عناصرَ أخرى لمُعاناته: "بِمَجْدٍ وَهَوَانٍ، بِصِيتِ رَدِيءٍ وَصِيتِ حَسَنٍ. كَمُضِلِّينَ وَنَحْنُ صَادِقُونَ، كَمَجْهُولِينَ وَنَحْنُ مَعْرُوفُونَ، كَمَائِتِينَ وَهَا نَحْنُ نَحْيَا، كَمُؤَدَّبِينَ وَنَحْنُ غَيْرُ مَقْتُولِينَ، كَحَزَانَى وَنَحْنُ دَائِمًا فَرِحُونَ، كَفُقَرَاءَ وَنَحْنُ نُغْنِي كَثِيرِينَ، كَأَنْ لاَ شَيْءَ لَنَا وَنَحْنُ نَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ" (الأعداد ٨-١٠).

وهكذا، فقد دافَع الرَّسول بولُس عن مِصداقيَّته من طريق استعراض تسعة عشر عُنصرًا للألَم، وثمانية عناصر لقداسته. وهاتان هُما الوسيلتان الرئيستان لرِبْح قلوبِ النَّاس الذين نَقودُهم: القَداسة والمُعاناة لأجل السيِّد المسيح.

وقد كتبَ بُولس إلى مؤمني غلاطيَّة الذين ضلُّوا عن الحقِّ بسبب بعض المُعلِّمين الكَذَبة الذي رَفَضوا رسالتَه ورسوليَّته، فقال: "فِي مَا بَعْدُ لاَ يَجْلِبُ أَحَدٌ عَلَيَّ أَتْعَابًا، لأَنِّي حَامِلٌ فِي جَسَدِي سِمَاتِ الرَّبِّ يَسُوعَ" (٦: ١٧). فكما أنَّ "سِمات" أو نُدوب العَبْد تُعلنُ هويَّة سَيِّده، فإنَّ السِّمات التي حَصَل عليها بولُس نَتيجةَ الضَّرب تَشهَدُ عن أصالته كعبْدٍ للسيِّد المسيح.[1]

ويبَدأُ بولُس القِسم العمليَّ من رسالته إلى مؤمني أفسُس بالكلمات التالية: "فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ، أَنَا الأَسِيرَ فِي الرَّبِّ: أَنْ تَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلدَّعْوَةِ الَّتِي دُعِيتُمْ بِهَا" (٤: ١). فحقيقةُ أنَّه سُجِنَ لأجْل الربِّ تُؤهِّله لحَثِّ قُرَّائه على السُّلوك كما يَحقُّ للدَّعوةِ التي دُعوا إليها. أمَّا في وقتنا الحاضر، فقد صار مثلُ هذا الحثِّ شيئًا قديمًا وباليًا في نَظَرِ كثيرين. بل إنَّ البعضَ يَرى فيه نوعًا من العَجرفة- ولا سيَّما أولئك الذين لا يرغبون في الالتزام نحو الحَقِّ المُطْلَق الذي تُعَلِّمه كلمةُ الله.

والأدْهى من ذلك هو أنَّ بعضَ الإنجيليِّين يَخجَلون من مُجرَّد ذِكْر نصائح أسلافهم المُتَشدِّدين الذين تَكَلَّموا بسُلطان؛ لكنَّهم فَعَلوا ذلك بطريقةٍ بَرهَنَتْ على أنَّها عقيمة. وهكذا، فقد كان هناك تَغيُّرٌ في أسلوبِ إعلانِ الحَقِّ في الكنيسة. فيَبدو أنَّ التَّسلية حَلَّتْ مَحَلَّ الشَّغَف كوسيلةٍ لاجتذاب النَّاس إلى الكنيسة.

وللأسف الشَّديد، فإنَّنا نُفْسِدُ الأمرَ من طريق سَماحِنا للشَّغَف بأنْ يَصيرَ مُجَرَّد شكلٍ خارجيٍّ جميلٍ لكنَّه يَخْلو من أيِّ أساسٍ متينٍ من الإخلاص. فقد سَمَحنا لبَعض الوُعَّاظ المشهورين الذين تَخْلو حياتهم من القداسة، والذين يَزدادون ثراءً من الوَعْظ بدلًا من أنْ يُعانوا لأجل الإنجيل، بأنْ يَصيروا مُمثِّلين بارزين للمسيحيَّة. لكنَّ شغفَ الدجَّالين هو شغفٌ زائف. فقد نجح أدولف هتلر في تَضليل أمَّةٍ بكاملها من طريق خطاباته الحماسيَّة. كما أنَّه قادهم إلى القيام بأشياءَ لَم يَتوقَّعوا يومًا القيام بها. لذلك، فقد صارَ النَّاس يَتشَكَّكون في الأشخاص الشَّغوفين في أيَّامنا هذه. فالبعضُ يَرى أنَّ هذا الشَّغفَ ما هو إلَّا وسيلةٌ تسويقيَّةٌ للتَّأثير في النَّاس- تمامًا كما يَفعلُ تُجَّار السيَّارات المُستعملة.

لكنَّ الشَّغَفَ الحقيقيَّ هو سمَةٌ من سِمات الوعظ الكتابيِّ (إرميا ٢٠: ٩؛ يوحنَّا ٥: ٣٥؛ ١كورنثوس ٩: ١٦). كيف يُمكنُنا إذًا أن نَستعيدَ هذا الشَّغَف؟ وكيف يُمكنُنا أنْ نُعيدَ هذا الحَضَّ الحقيقيَّ إلى كنائسنا؟ إحدى الطُّرق الرئيسة هي أن يكونَ لدينا وُعَّاظٌ مُتَحمِّسون للحقِّ الكتابيِّ من خلال عَمَل الرُّوح القُدُس، وأنْ يكونوا مُستعدِّين لدَفْع ثَمَنِ تمسُّكهم بهذا الحقِّ. فالكلمة الإنكليزيَّة "passion" (والتي تُتَرجم "شَغَف") مُشتقَّة من الكلمةِ اللَّاتينيَّة "passio" (والتي تَعني: "الألَم" أو "المعاناة").

عندما قرأ الشابُّ الياباني "تويوهيكو كاغاوا" (١٨٨٨-١٩٦٠) قصَّة صَلْب يسوع للمرَّة الأولى، تأثَّر غايةً في التأثُّر وسأل: "هل صحيحٌ أنَّ أولئك الرِّجال القُساة عَذَّبوا يسوع، وجَلَدوه، وبَصَقوا عليه؟" وقد كانَتِ الإجابةُ التي تَلَقَّاها هي: "أجَل، هذا صَحيح!" وعندها، سأل ثانيةً: "وهل صحيحٌ أنَّ يسوع غَفَرَ لَهُم قبل أنْ يموت على الصَّليب؟" وكانت الإجابة هي: "أجل، هذا صحيح!" حينئذٍ، قال كاغاوا: "يا الله، اجْعَلني مِثْلَ يَسوع". وقد آمن كاغاوا بيسوع وصارَتْ تلك هي صلاتَه الدَّائمة طوال حياته.

ومع أنَّ عائلةَ كاغاوا تَبَرَّأَتْ منه، فإنَّه ظلَّ صامدًا في إيمانه والتَحَقَ بإحدى

كلِّيَّات اللَّاهوت. وفي أثناء دراسته، أُصيب بمرض السلِّ وأوشكَ على الموت. وقد رأى كاغاوا الفَقر، والاستغلالَ، والدَّعارة في المدينة فَفَزِعَ لذلك. وعلى الرُّغم من تَدهوُر حالته الصحِّيَّة، فقد عاشَ في أحياءٍ فَقيرةٍ وكافَحَ لأجْل الفُقراء طوالَ خمسةَ عشر عامًا. وقد صار كاغاوا مُبشِّرًا مَعروفًا ومُصلِحًا اجتماعيًّا مشهورًا.

وبينما هو في زيارةٍ إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، تَكَلَّم في اجتماعٍ فقال أحدُ الحاضرين لزميله: "إنَّه لَم يَقُلِ الكثير، أَليسَ كذلك؟" فأجابه زميله: "أنت مُحِقّ، فهو لم يَقُلِ الكثير؛ لكنْ حين تكون مُعلَّقًا على الصَّليب فأنت لسْتَ مُضطرًّا إلى قَول الكثير".[٢]

إنَّ السُّخرية تَنمو وتَتَفاقَمُ في الكنيسة. وقد رأى المؤمنون الكثيرَ من القادة يُخفقون في العَيش كما يَحقُّ للدَّعوة التي دُعوا إليها. كما أنَّهم رأوا الأنانيَّةَ بأبشع صُوَرها من خلال تَحَوُّل جدول الأعمال المَطروح في الكنيسة إلى جَدول أعمالٍ يَخْدمُ مَصالح القائد الشخصيَّة وليس ملكوتَ الله. وقد رأوا أيضًا أنَّ قادةَ الكنيسة يَستخدِمون الكنيسةَ لتَحقيق الثَّراء من طريق استغلال الأشخاص الضُّعفاء والعاطفيِّين. وقد رأوا بعضَ الوُعَّاظ الذين لا يُمارسون ما يَعِظون به. وقد رأوا قادةً يَدْعون المُؤمنين إلى الالتزام نحو مَهَمَّةٍ ما، ثُمَّ يَستغلُّون الأشخاصَ الذين التزموا نحوَها!

وفي حال استمرار هذا النَّهج، قد يُخَيِّمُ عصرُ الظَّلام على الكنيسة. وإذا استمرَّ القادةُ الذين يُنادون بالحقِّ في عدم تطبيق ذلك الحقِّ في حياتهم الشخصيَّة، سيَنتَهي الأمرُ بالمؤمنين إلى رَفْض الرِّسالة التي يَعظون بها. كيف يُمكنُنا إذًا أنْ نَجعَلَ النَّاسَ يَحترمون الحقَّ في الكنيسة من جَديد؟ إحدى الطُّرق الكفيلة بذلك هي أن نُعلنَ الحقَّ بحكمةٍ وبمسْحةٍ من الرُّوح القدس. وإحدى الطُّرق الأخرى هي أن يَحرِصَ القادةُ على عَيْش الحياة المسيحيَّة بأمانة، وعلى دَفْع الثَّمن اللَّازم للقيام بذلك. فنحنُ بحاجةٍ إلى قادةٍ لديهم الاستعداد الكافي للتَّضحية براحتهم ورفاهيَتهم وسُمعتهم لأجل الحقّ. ونحن بحاجةٍ إلى قادةٍ لديهم القُدرة على

إظهار فَرَح الربِّ في حياتهم في وَسط المُعاناة لأجل الحَقِّ لكي يَشهدوا عن عَظَمَة الإنجيل الذي يُنادون به. فحينئذٍ فقط، سيَستنتجُ النَّاس أنَّه إنْ كان الألَمُ أضعفَ من أنْ يَسلبَنا فرحَنا، فإنَّ حياةَ الطَّاعة لله هي بالفعل أفضلُ طريقةٍ للحياة.

ربَّما يُعاني أحدُ قُرَّاء هذا الكتاب من أجل الحَقِّ ويَجِدُ صعوبةً بالغةً في احتمال الألَم. وربَّما يكونُ هذا الشخصُ المُتألِّمُ هو أنت! بل ربَّما كان الأصعب من ذلك هو أنْ يكونَ النَّاس من حولك يَشعرون بالأسف عليك. وربَّما تُعاني من ظروفٍ صعبةٍ وغير مُريحةٍ بسبب تَمَسُّكك بالسيِّد المسيح. إذا كُنت كذلك، فلا تَستَسلِمْ! "فَلاَ نَفْشَلْ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ لأَنَّنَا سَنَحْصُدُ فِي وَقْتِه إِنْ كُنَّا لاَ نَكِلُّ" (غلاطيَّة ٦: ٩). فكما ترى، فإنَّ الأمرَ لا يَقتصرُ على الحَصاد الذي سنَجنيه، بل إنَّنا سنُساعدُ أيضًا في تَغيير مَوقف الكنيسة من قادتها. كما أنَّنا سنُساعد المؤمنين في تَصديق أنَّ هُناك قادةً يَتَّصفون بالنَّزاهة. وهذا- بِدَوره- سيُساعدُ في حَضِّ كلِّ مؤمنٍ في الكنيسة على التحلِّي بالنَّزاهة في حياته الشخصيَّة.

الفصل التّاسع عَشَر

الالتزامُ يُولِّد التزامًا

نحن نعتمد كثيرًا على المُتطوّعين في خدمتنا في هيئة "شباب للمسيح". وقد تَبَيَّن لنا على مَرِّ السّنين أنَّ المُتطوّعين الأكْفاء لن يظلُّوا مُلتزمين نحو برنامج الخدمة إنْ لَم يَكُن قادَتُهم يَخدمون بِجِدٍّ ويَدفعون ثَمَن هذا الالتزام. أمَّا عندما يَرى المُتطوّعون أنَّ قادتَهم مُلتزمون نحو برنامج الخدمة بِشَغَفٍ، وأنَّهم يُعانونَ كثيرًا بسبب التزامِهم هذا، فسيَجدون الدَّافع الكافي لِدَفْع الثَّمن هُم أيضًا. وهكذا، فإنَّ التزامَ القادة يُفْضي إلى التزام تابِعيهم.

إنَّ الكنيسةَ في وقتنا الحاضر تُعاني من أزمة التزام. فمن الصَّعب أنْ تَجعلَ الناسَ يُكَرِّسون أنفسَهم وطاقتَهم على حسابهم الشخصيِّ في سبيل رُؤية الكنيسة تَنتعش. لهذا، فإنَّ بعضَ الكنائس تُعيِّن خُدَّامًا مُتفَرِّغين لتَوفير الخدمات المُختلفة لأعضائها. لكنَّ هذه ليسَتْ سوى استراتيجيَّةٍ تَسويقيَّة تُساعدُ في النُّموِّ العَدَديِّ

في الكنيسة. لهذا، فإنَّ البعض يذهبون إلى كنيسةٍ مُعيَّنة لأنَّ لديها برنامجًا للأطفال أو الشَّباب، أو لأنَّها تمتلكُ فريقَ تَسبيح بارعًا في الموسيقى والترنيم. والمُشكلة هنا هي أنَّ كثيرين يأتون إلى الكنيسة لا كونَهم خُدَّامًا فيها، بل هم أفرادٌ مُستَهلِكون للخِدْمات التي تُوفِّرُها!

لكنْ عندما نَنظُر إلى الكنيسة الأولى في الكتاب المُقدَّس، نَرى أنَّ آلامَ القادة كانت تُشَجِّع أعضاءَ الكنيسة على الالتزام. فالرَّسول بولُس يقول لمؤمني كنيسة فيلبِّي إنَّ قُيوده "آلَتْ أَكْثَرَ إِلَى تَقَدُّمِ الإِنْجِيلِ" (فيلبِّي ١: ١٢). وهو يُوضِحُ قائلًا: "حَتَّى إِنَّ وُثُقِي صَارَتْ ظَاهِرَةً فِي الْمَسِيحِ فِي كُلِّ دَارِ الْوِلاَيَةِ وَفِي بَاقِي الأَمَاكِنِ أَجْمَعَ" (العدد ١٣). وقد كان لهذا تأثيرٌ إيجابيٌّ في الكنيسة في روما (على الأرجح) حيثُ إنَّه يقول: "وَأَكْثَرُ الإِخْوَةِ، وَهُمْ وَاثِقُونَ فِي الرَّبِّ بِوُثُقِي، يَجْتَرِئُونَ أَكْثَرَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكَلِمَةِ بِلاَ خَوْفٍ" (العدد ١٤). وهذا يُرينا أنَّ جُرأةَ بولُس في السِّجْن شَجَّعَت المؤمنين الآخرين على أنْ يَكونوا جَريئين هُم أيضًا.

بل إنَّ بولُسَ يَقول لمؤمني أفسُس إنَّ آلامَه لأجلهم هي مَجْدهم: "لِذلِكَ أَطْلُبُ أَنْ لاَ تَكِلُّوا فِي شَدَائِدِي لأَجْلِكُمُ الَّتِي هِيَ مَجْدُكُمْ" (أفسُس ٣: ٣١). فعندما يَتألَّم قادَتُنا لأجْلِنا، فإنَّ هذا يَرْفَعُنا وَيُشْعِرُنا بالفَخر.

ويُعَبِّرُ يسوع عن المجد المُتأتِّي من مثل هذه المُعاناة من طريق تَوضيح التَّبايُن بَينَه كراعٍ صالح وبين الرُّعاة المأجورين الذين يُوَلُّون الأدْبارَ عندما تُحيط الأخطار بالخِراف. فالرَّاعي الصَّالح يَموت عن خِرافه (يُوحنَّا ١٠: ١١-١٥). وما أكثرَ الأشخاصَ الذين يأتون إلى كنائسنا في وقتنا الحاضر بعد تَعَرُّضِهم لتَجاربَ مَريرةٍ وَخَيْباتِ أمَلٍ مؤسفة؛ لأنَّ الأشخاص الذين وَثقوا بهم تَخَلَّوا عنهم في أحْلَكِ الأوقات! وقد يكونُ هؤلاء الأشخاص الذين تَخَلَّوا عنهم هُم أهلَهم، أو أفرادَ عائلاتهم، أو مُعلِّميهم، أو زُملاءَهم، أو قادةَ كنائسهم. وبسبب الآلام التي يَشعرُ بها هؤلاء، قد يَجدون صُعوبةً بالغةً في تَصديق أنَّ الله نفسَه يَهتمُّ بأمرهم أو يَعتني بهم بالفعل. وكم يكونُ الأمرُ مُعزِّيًا لهم عندما يُصادفون قائدًا مُلتزمًا بحَقٍّ من نحوهم، أو قائدًا مُستعدًّا لاحتمال

الألَم والتَّعب والخسارة الماليَّة أو أيِّ نوعٍ من المشقَّات لأجلِهم!

وحينَ يَجِدُ الناس مثلَ هذا الالتزام من القادة، سيَتَجاوَبون- هُم أيضًا- بالالتزام من نحو البرامج التي يُقَدِّمها أولئك القادة. فإنْ كانَ القادةُ يَموتون- حَرفيًّا أو مَجازيًّا- من أجل الناس، فسيَموتُ النَّاسُ من أجل الكنيسة. وفي أيَّامنا هذه، ما أكثرَ ما نَسمَعُ القادةَ يتذمَّرون من عدم التزام أعضاء الكنيسة! وقَد يَعقِدُ هؤلاء القادة برامجَ تدريبيَّةً مُنَوَّعةً تزيد أعداد الأعضاء المُلتزمين نحو برامج الكنيسة وَرفْع كفاءَتِهم. وقد تكون هذه البرامجُ مُفيدةً حقًّا؛ لكنِّي أظنُّ أنَّ السرَّ يَكمُنُ في عُمْقِ محبَّة القادة لهؤلاء الأشخاص.

فَإنْ كانوا هُمْ أنفسُهم مُلتزمين، سيُفضي التزامهم إلى التزام هؤلاء النَّاس.

ذات مَرَّة، واجَهْتُ تَحَدِّيًا صَعبًا في أنْ أكسِبَ ثقة زَميلٍ لي في الخدمة كُلِّفْتُ بالإشراف عليه. فالشَّخصُ الذي كان يُشْرِف عليه سابقًا، والذي كانت تربطه به صَداقة مَتينة، كان قد تَرَكَ الخدمة. وقد كان لتلك الواقعة تأثيرٌ مُحْبِطٌ في هذا الزَّميل الذي أتحدَّث بشأنه. وما إنْ تَسَلَّمتُ هذه المَهَمَّة حتَّى أدرَكْتُ أنَّ زَميلي يَفتَقرُ إلى الدَّافع للقيام بعَمَله. وفي الحقيقة أنِّي وزملائي الآخرين في الخدمة لم نَعرفْ ما الذي يَنبغي لنا فِعْلُه. كما أنَّنا فَكَّرْنا في أنْ نَطلُبَ منه أنْ يُقدِّم استقالتَه. وعلى أيَّة حال، فقد تَغيَّر موقفُه بمرور الوقت. وفي الوقت الحاضر، صار هذا الزَّميل خادمًا جديرًا بالثِّقة؛ بل إنَّه قَدَّم تَضحياتٍ كبيرةً لأجل الخدمة. كما صار أحدَ أصدقائي المُقَرَّبين الذين كان لهم دَورٌ كبيرٌ في إظهار نِعمة الله لي بطريقةٍ حيَّة.

وبعد سنواتٍ من تَغيُّر مَوقفه نحو الأفضل، أخبرني بأنَّ أحدَ العوامل الرئيسة في تَغيُّر مَوقفه وسَلوكه هو ما حدثَ يومَ وفاة والد زَوجته. ففي ذلك الوقت، لَم تكنْ علاقته بهيئة "شباب للمسيح" جيِّدة. لكن ما إنْ سَمعْتُ أنا بمَوت والد زوجته حتَّى هَرَعْتُ إليه.

وعندما وَصلتُ إلى هُناك، عَلِمْتُ أنَّ الحُصول على شهادة وفاةٍ لن يكونَ بالأمر السَّهل- ولا سيَّما أنَّ الوفاة حَدَثَتْ في المنزل. وبسبب عُمري وبعض

العوامل الأُخرى، كان وجودي مع العائلة ومساعدتهم في ذلك الأمر مُفيدًا. فعلى الرُّغم من مَشاغلي الكثيرة في ذلك اليوم، فإنّي أمضَيتُ فترةَ الصَّباح كُلَّها مع زميلي في مُراجعة الدوائر الرسميَّة ومُقابلة المسؤولين إلى أنْ حَصَلْنا على شهادة الوفاة. وقد أخبرني زميلي بأنَّ ما فَعلتُه في ذلك الصَّباح كان عاملًا حاسمًا في حَفْزِه على تَغيير مَوقفه من نَحوي.

وفي أيّامنا هذه، هناك كنائسُ كثيرةٌ تَتْبَعُ نَهْجًا مُؤسَّسيًّا في الإدارة يقوم على التَّركيز على تَنفيذ البرامج وتحقيق أهداف الكنيسة. وقد صار الوَصْفُ الوظيفيُّ للقادة يُرَكِّز على المَهامّ وليس على رعاية المؤمنين. وهُناك كِتابٌ منْ تأليف "غلين قاغنر" (Glenn Wagner) يُسَلِّط الضَّوء على هذه الأزمة التي نُواجهها؛ وهو بعنوان "الهَرَب من التَّفكير في الكنيسة كشركةٍ تجاريَّة: عودة القُسُس إلى خِدمتهم" (Escape from Church, Inc.: The Return of the Pastor-Shepherd).[1]

لقد صارتْ فكرةُ وجود قائدٍ يَعتني بمجموعةٍ صغيرةٍ من الأشخاص، ويُعلِّمُهم، ويَهتمُّ بهم- فكرةً رَجْعيَّةً عند البعض. ويبدو أنَّ البعضَ يَنظرُ إليها كمَهَمَّةٍ شاقَّة يَصْعُبُ القيام بها. فالوُعَّاظ لا يُريدون أنْ يُقْحموا أنفسَهم في مَهَمَّةٍ مُحْبطةٍ تَتطلَّبُ منهم قضاءَ ساعاتٍ طويلةٍ في زيارة الأشخاص المُتألِّمين وفي مساعدتهم في حَلِّ مُشكلاتهم. ففي رأيهم، من الأفضل أن يقومَ الاختصاصيُّون بهذا الأمر. فهناك مُشيرون مُتَخَصِّصون وخُبراءُ آخرون لمساعدة النَّاس في حلِّ مُشكلاتهم وفي تسديد حاجاتهم. وهكذا، فقد صارَ الرُّعاةُ يقومون بزياراتٍ راعويَّةٍ فقط. كما أنَّ الوُعَّاظ يُرَكِّزون على الوَعْظ دون سِواه.

على الرُّغم من ذلك، فإنَّ هذا النَّموذج لا يَصْلُحُ للتَّعبير عن الالتزام الحقيقيّ. فحيثُ إنَّ التَّركيزَ يَنْصَبُّ على البرامج والخدمات المقدَّمة إلى المُستهلك، صارَ من السَّهل على النَّاس أن يُغيِّروا كنيستَهم وأن يَبحثوا عن كنيسةٍ أخرى تُقدِّم إليهم برامجَ أو خدماتٍ أفضل. فقد يواظبون على الذَّهاب إلى كنيسةٍ ما لبعض الوقت لأنَّها تُقَدِّم برامجَ مُعيَّنة. لكنْ إنْ شَعَروا بأنَّ ما يَحتاجون إليه في مرحلةٍ ما من

حياتهم مُتوافرٌ في كنيسةٍ أخرى، فإنَّهم لا يَتردَّدون في الانتقال إلى تلك الكنيسة!

وفي الحقيقة، عندما تصيرُ هناك مُبالغةٌ كبيرةٌ في التَّركيز على التخصُّصاتِ في الكنيسة، ستَفقدُ الكنيسةُ بَصيرتَها وقُدرتَها على اختراق قلوب النَّاس ومساعدتِهم في التغيُّر. ومع أنَّ الوعظَ الجيِّد يَتطلَّب دراسةً مُتأنِّيةً للكلمة وللعالَم، وهذا هُو ما يَبْرَعُ فيه الوُعَّاظ المُتخصِّصون في فَنِّ الوعظ، فإنَّ الوعظ الجيِّد يَتطلَّب- في الوقت نفسه- خِبرةً عَمليَّةً في الفَشَل والنَّجاح، وفي الفرح والألَم النَّاشئَين عن الخدمة في وَسَط النَّاس. فمن دون ذلك، قد تَبلغُ العِظاتُ مُستوياتٍ رفيعةً من الجودة والبراعة التِّقنيَّة؛ لكنَّها ستَفتَقرُ إلى البَصيرة والتأثير. فإذا نَظَرْنا إلى عُظماء القادة المسيحيِّين [من أمثال مارتن لوثر، وجون كَلڤن، وأغسطينوس (Augastine)، وجون وسلي (John Wesley)] ممَّن كان لِوَعْظهم ومؤلَّفاتِهم تأثيرٌ هائلٌ في تاريخ الكنيسة، فسنَرى أنَّهم كانوا يَقضون وقتًا طويلًا أيضًا في خدمة الأفراد.

وهكذا، فالقادةُ الكِتابيُّون هُم رُعاةٌ يُحبُّون رَعاياهم ويُبدون استعدادَهم للمَوت لأجلهم. والتزامهم هذا هو الذي سَيُولِّدُ التزامًا لدى تابِعيهم.

الفصل العشرون

تَجنُّبُ الالتزام وتَفادي الألَم

لقد عانَت سريلانكا كثيرًا في السَّنوات الخمس والعشرين الماضية. فقد شَهدَت حَربًا في الشَّمال والشَّرق، وثورةً في الجنوب، وإعصارًا مُدَمِّرًا، والعديد من الفَيضانات والأوبئة. علاوةً على ذلك، فقد اضْطُهِدَ المؤمنون بسبب المُناداة بالإنجيل. وفي بعض الأوقات، يُخبرُني أصدقائي في الخارج بأنَّهم محظوظون لأنَّهم ليسوا مُضطَرِّين إلى التَّعايُش مع كلِّ هذه الآلام. ولا شَكَّ أنَّهم محظوظون! لكنْ إنْ أرَدتُ أنْ أُخبرَهم بالحقيقة كاملةً لقُلْتُ لهم إنَّ أعظمَ ألَم اختبَرتُه في السَّنوات الخمس والعشرين الماضية لم يَكُن بسبب أيٍّ من تلك المصائب التي شَهِدَتْها البلاد. فمع أنَّه كان هناك خوفٌ، وإحباطٌ، وحُزنٌ، وقَلَقٌ؛ فإنَّ أشَدَّ ألَم كان بسبب العلاقات. إنَّه الألَمُ الناشئُ عن التزامك نحو الآخرين. ولا بُدَّ لِلمؤمنين أنْ يواجِهوا ذلك أينَما عاشوا.

وقد كتبَ الرَّسول بولُس في رسائله قوائمَ طويلةً من المحَنِ والشَّدائد التي مَرَّ بها. لكنْ من الواضح- من خلال نَبرَةِ حديثه في المقاطع المُختلفة- أنَّ أعظمَ ألَمٍ جاء نتيجةَ الخطيَّة، والمُعتقدات الخاطئة، والرَّفض من المؤمنين في الكنائس التي أسهَمَ في تأسيسها. بل في الحقيقة كان يَذْكُرُ هذه الآلام في مُعظَم الأحيان لكي يَلتَمسَ من قُرَّائه أنْ يَقبلوه وأنْ لا يَرفضوه ولا يَرفضوا تعاليمه في ضَوء ما عاناه لأجل الإنجيل.

ومهما كانَتِ البلد أو الثقافة التي نعيش فيها، إذا كنَّا مُلتزمين تُجاه النَّاس، لا بُدَّ أنْ نختبرَ الكثيرَ من الآلام. لكنْ عندما عانى بولسُ الرَّفضَ والإساءةَ من الكنائس، لَم يَيأس منهم؛ بل تابَعَ الخدمة التي ائتمَنَه الله عليها. لكنَّه تجادَلَ معهم من خلال رسائله. وقد أَرسَلَ بولُس غالبيَّةَ تلك الرسائل إلى كنائسَ تأسَّسَتْ على يدَيه أو على أيدي رفقائه في الخِدمة. ولأنَّ المؤمنين كانوا أبناءَه في الإيمان، فإنَّ من السَّهل علينا أنْ نَفهمَ سببَ عَدَم استِسْلام بولُس وعدم يأسِه منهم عندما عارَضوه.

لكنَّ المتاعبَ جاءتْ أيضًا من الكنيسة في أورشليم، مع أنَّها لم تَكُنْ مسؤولةً عن اهتدائه إلى السيِّد المسيح. فعندما حاولَ بعضُ الأشخاص في كنيسة أورشليم أن يُقنعوا قادةَ الكنيسة في أنطاكية بضرورة خَتْن الأشخاص الرَّاغبين في قبول السيِّد المسيح مُخلِّصًا لحياتهم، لم يَتجاهَلْ بولسُ الأمرَ ولَم يَتصرَّفْ على هَواه مع المؤمنين في أنطاكية مِمَّن كانَتْ تربطه بهم، هو وبرنابا، علاقةٌ وطيدة. بل إنَّه انطلقَ هو وبرنابا على الفَور في رحلةٍ طويلةٍ وشاقَّة إلى أورُشليم (التي كانت تَبعُدُ مسافةً لا تَقلُّ عن ستِّ مئة كيلومتر) لمُعالجة تلك المسألة. وقد أسفَرَ ذلك عن أهمِّ تَطوُّرٍ لاهوتيٍّ في تاريخ الكنيسة؛ الأمرُ الذي ساعدَ على تَحَرُّر الكنيسة من اليهوديَّة العرقيَّة وانفتاحها لتَصيرَ مُجتمعًا يَضُمُّ جميعَ النَّاس دون استثناء (أعمال الرُّسُل ١٥).

ولا نُخطئُ إنْ أطلَقْنا على جيلِنا لَقَب "جيل الأسْبِرين"؛ لأنَّ النَّاسَ صاروا مُعتادين تبَلُّد الأحاسيس وتَجنُّب الألَم. وللأسف الشديد، فإنَّ حالَ خِدمتنا صارتْ كذلك أيضًا. وأحدُ مَظاهر ذلك هو أنَّ المؤمنين لا يُبْدونَ التزامًا

قويًّا نحو المجموعة التي يَنْتَمون إليها، ولا يَتقَرَّبون كثيرًا من الأشخاص الذين في المجموعة نَفْسها. فإنْ حافَظْنا على مسافةٍ آمنةٍ بيننا وبين النَّاس، سنَتجنَّبُ الكثيرَ من الألَم.

وفي الحقيقة لقد تَعلَّمْنا- إمَّا من خلال التَّلقين وإمَّا من خلال خبراتنا الشخصيَّة المؤلِمة- أنْ نُبْقِيَ علاقاتِنا في مُستوًى قابلٍ للسَّيطرة. ولا شَكَّ أنَّ هذا تَصَرُّفٌ حكيمٌ إلى حدٍّ ما. فقد نَتورَّط عاطفيًّا في حياة الآخرين إلى الحدِّ الذي تصيرُ فيه مُشكلاتُهم سببَ شَلَلٍ لحياتنا. على الرُّغم من ذلك، فإنَّ الالتزامَ الصَّادق يَتطلَّب منَّا أن نَقتربَ منهم إلى حدٍّ قد يُعَرِّضُنا للأذى من قِبَلهم هُم شخصيًّا.

وقد لا نُخطئ أيضًا إنْ أسمَيْنا ثقافتنا "ثقافة التخلُّص من الأشياء بعد استعمالها". فنحن مُعتادون أن نتخلَّصَ من الأشياء التي لا نُريدها. فقد نرى أنَّ إصلاحَ الأشياء التَّالفة قد يُكَلِّفُ مبلغًا كبيرًا من المال؛ لهذا فقد يكون من الأسهل لنا أن نَتخلَّصَ منها. ففي إحدى رحلاتي إلى الغَرب، كُنت أستَعدُّ للتحدُّث بموضوع حَتميَّة تَعَرُّضنا للضَّغْط والتوتُّر في الخدمة. وفي هذا الوقت، أخبرَني ثلاثةُ أشخاصٍ بالكيفيَّة التي بها تَمكَّنوا من تَحرير أنفسهم من مَواقفَ قد تُسَبِّبُ توتُّرًا شديدًا: فقد تَرَكَ الشخصُ الأوَّل كنيستَه بسبب مُشكلةٍ صعبةٍ فيها. وتركَ الشخصُ الثاني الهيئةَ المسيحيَّة التي كان يَخْدمُ فيها بسبب أمرٍ مُشابه. أمَّا الشخص الثالث فكانَتِ امرأةً تركَت زَوجها وتحرَّرَتْ من زواجٍ مؤلم. وفي كُلِّ حالةٍ من هذه الحالات الثلاث، كنت أسألُ نفسي ما إذا كانت مشيئة الله لهؤلاء هي أن يَبقَوا في أماكنهم عِوَضًا عن تَرْك الكنيسة، أوِ الهيئةِ المسيحيَّة، أوِ الزَّوج!

ولا بُدَّ من الاعتراف بأنَّ هناك توتُّرًا نَفسيًّا في الخدمات المسيحيَّة لا مُبرِّر له. فيَجبُ علينا أن نَتعلَّمَ الحفاظَ على فرحنا في الربِّ حتَّى عندما تَسوءُ أحوالُ الخدمة. وبلا شكّ، هناك مَواقفُ تُحتِّمُ علينا المُغادرةَ من مُنطلَق إيماننا بأنَّ الله يُريدُنا أنْ نكونَ موجودين أو نَخدمَ في أماكنَ أخرى. وفي بعض الأحيان، قد يكونُ الفراق مؤلِمًا جدًّا- ولا سيَّما في البداية. فحتَّى بولُس وبرنابا افتَرَقا بعد سنواتٍ من

الخدمة المُثمِرة معًا. ومع أنَّهما، كما يتَّضح، قد استِعادا صَداقتَهما الوَطيدة لاحقًا (١كورنثوس ٩: ٦)، فإنَّ الفراقَ كان مؤلِمًا وقاسيًا (أعمال ١٥: ٣٦-٤١).

ويَصفُ بولس الإجهادَ البدنيَّ والنفسيَّ الناشئَ عن الالتزام من نحو الخدمة فيَقول: "عَدَا مَا هُوَ دُونَ ذلِكَ: التَّرَاكُمُ عَلَيَّ كُلَّ يَوْم، الاهْتِمَامُ بِجَمِيعِ الْكَنَائِسِ. مَنْ يَضْعُفُ وَأَنَا لاَ أَضْعُفُ؟ مَنْ يَعْثُرُ وَأَنَا لاَ أَلْتَهِبُ؟" (٢كورنثوس ١١: ٢٨-٢٩). فقد كان بولُس يُكَرِّسُ نفسَه بالكامل للخدمة ممَّا جعلَه مُعرَّضًا للألَم. ويُمكنُنا أن نَستَشعرَ ألمه وهو يقول لمؤمني كورنثوس: "فَمُنَا مَفْتُوحٌ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْكُورِنْثِيُّونَ. قَلْبُنَا مُتَّسِعٌ. لَسْتُمْ مُتَضَيِّقِينَ فِينَا بَلْ مُتَضَيِّقِينَ فِي أَحْشَائِكُمْ. فَجَزَاءً لِذلِكَ أَقُولُ (كَمَا لأَوْلاَدِي): كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا مُتَّسِعِينَ" (٢كورنثوس ٦: ١١-١٣). ويُمكنُنا أنْ نَرى كم أنَّ الرَّسولَ بولس كان مُعَرَّضًا للألَم أيضًا من خلال حديثه مع مؤمني غلاطيَّة: "يَا أَوْلاَدِي الَّذِينَ أَتَمَخَّضُ بِكُمْ أَيْضًا إِلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ. وَلكِنِّي كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ حَاضِرًا عِنْدَكُمُ الآنَ وَأُغَيِّرَ صَوْتِي، لأَنِّي مُتَحَيِّرٌ فِيكُمْ!" (غلاطيَّة ٤: ١٩-٢٠).

وفي ما يلي بعضُ الطُّرُق التي قد تُساعدُنا على تَجَنُّب الألَم الناشئ عن الالتزام:

- عندما يَقع أحد المؤمنين في خطيَّةٍ جَسيمة، يُمكننا أنْ نَتركَه يُغادرُ دون أنْ نَمرَّ نحن وإيَّاه بعمليَّة التأديب الكنسيّ، والشِّفاء، والردِّ بكلِّ ما تشتمل عليه من مَشقَّاتٍ وآلام.
- عندما نُواجِهُ مشكلةً مع المجموعة التي نَنتمي إليها، يُمكنُنا أن نتركَها وننضَمَّ إلى مجموعةٍ أخرى دون التصدِّي للمشكلات والاحتمال إلى حين التوصُّل إلى حلٍّ ما.
- عندما يُشَكِّك النَّاس في ما نَفعله، يُمكننا أنْ نَطلُب منهم أن يُغادروا ويَذهبوا إلى مكانٍ يَشعرون فيه بمزيدٍ من الارتياح- دون أن نُتعِبَ أنفسَنا في مُناقشة اعتراضاتِهم.
- عندما تُجرَحُ مشاعرنا أو نَنْزعجُ من شيءٍ فَعلَه شخصٌ آخر، يُمكنُنا أن

نَترُكَ الأمرَ على ما هو عليه دون أن نُواجِهَ ذلك الشخصَ بما فَعلَه ودون أن نَسعى إلى إيجاد حلٍّ للمشكلة.

- عندما يُواجِهُ أحدُ الأشخاص في مجموعتنا مُشكلةً خطيرة، يُمكننا أنْ نقولَ له إنَّنا لا نَستطيعُ مساعدتَه لأنَّنا لا نملكُ الوقتَ أو الطاقةَ أو الموارِدَ اللَّازمة للقيام بذلك. (أحيانًا، قد يكونُ من الأفضل لهؤلاء الأشخاص ألَّا نُساعدهم. لكنَّنا نُساعدهم عادةً رُغم أنَّ ذلك قد يكون مُكْلِفًا أو يؤدِّي إلى إجهادنا ونُضوب مواردِنا الشخصيَّة).

- عندما يُعبِّرُ الآخرون عن رَغبتهم في تَرْكِنا وهم مُستاؤون، يُمكننا أن نَسمحَ لهم بذلك دون أن نُتيحَ لهم فُرصةَ التحدُّث بشأن ما يُحزنُهم. (لهذا، أنا أعتقد أنَّ المُقابلاتِ التي تُعقَدُ مع الأشخاص الرَّاغبين في المُغادرة هي مُقابلاتٌ مُهمَّةٌ جدًّا ولا سيَّما عندما يرغبُ أحدهم في المغادرة وهو مُستاء. فإذا تَمكَّنَ ذلك الشخص من التَّعبير عن غضبه، فهناك فرصةٌ عظيمةٌ في أن يُغادرَ المكانَ ويبدأ في المكان الجديد بدايةً جديدةً دونَ مشاعرَ جريحة. أمَّا إن لَم يَحدُثْ ذلك، فقد يَستمرُّ ذلك الشخصُ في التألُّم لفترةٍ طويلةٍ دونَ داعٍ ممَّا سيُعيقُ نُموَّه الروحيَّ والنفسيَّ لاحقًا. وقد يكون من الصَّعب على القادة أنْ يُصغوا إلى تَعبيراتِ الغضب الصَّادرة عن الشخص الذي يَرغب في المُغادرة. لكنَّ ذلك الشخصَ هو الطَّرفُ الأضعفُ والأكثرُ عُرضةً للخَطَر إلى أن يَجدَ مكانًا جديدًا. لذلك، فإنَّ امتصاصَ شحنات الغضب تلك هو أقلُّ ما يُمكننا القيام به لمساعدة مثل هؤلاء الأشخاص على بناء حياتهم من جديد بعد الانفصال المؤلِم).

- إنَّ دعوَتَنا في هيئة "شباب للمسيح" في سريلانكا هي تَوصيلُ رسالة الإنجيل إلى الشَّباب الذين لَم يَسمعوا بالسيِّد المسيح من قبل. لكنَّ مَواقفَ النَّاس والتَّشريعات الحاليَّة تَجعل تلك المَهمَّة شاقَّةً لأنَّ الكَثيرين يَنظرون إلى الكرازة بالإنجيل على أنَّها عمليَّة مَسْحٍ لأدمغة الشَّباب

الأبرياء. وهكذا، ربَّما كان من الأسهل علينا أنْ نُرَكِّز على أيَّة خدمةٍ أخرى غير تدريب المُؤمنين على الخدمة في وسط الشَّباب. وناهيك بأنَّ هذه الخدمَة ستكون آمنةً أكثر، فإنَّها ستَجعَلُنا مَرئيِّين أمامَ عَددٍ أكبر من المسيحيِّين؛ الأمر الذي سيؤدِّي إلى زيادة فُرصتنا في الحُصول على دَعمٍ ماليٍّ أكبر لخدمتنا. لكنْ يجب علينا أن نَبقى مُخلِصينَ لدَعوَتنا والتزامنا في تَوصيل رسالة الإنجيل إلى الأشخاص الذين لم يَسمعوا بها من قبل.

عندما يُفَكِّر الكثيرُ من المؤمنين في الصَّليب الذي يَنبغي لهم أنْ يَحملوه، فإنَّهم لا يَتحدَّثون سوى بأشياءَ مثل الاضطهاد والرَّفض والتَّمييز الذي يواجِهونَه بسبب مبادئهم. لكنَّهم لا يَذْكُرون الأشياءَ التي تَنشأ عن التزامهم من نحو الأشخاص- مثل الإجهاد الناشئ عن مُساعدتنا لهم عندما تكون مشاغلُنا كثيرة، أوِ الألَم الناشئ عن استمرارنا في حُبِّنا لهم رُغم إيذائهم لنا.

وهكذا، يجب علينا أنْ نُدركَ أنَّ التزامنا من نحو النَّاس سيُسَبِّب الألَم للمؤمنين من كلِّ أمَّةٍ وثقافة. وبلا شكّ، لن يَكْتَمِلَ هذا الفصلُ ما لَم أقُلْ إنَّ فرحَ الربِّ الذي يَفوقُ الألَمَ هو الذي يُعطينا القُدرة على احتمال هذا الألَم. وسنَرى في الفصل القادم أنَّ الالتزام يُفضي لا إلى الألم فحسب، بل إلى الفَرح أيضًا!

الفصل الحادي والعشرون

الالتزام والحياةُ المُفعَمة بالفرح

لقد عملْتُ بدوامٍ كاملٍ مع هيئة "شباب للمسيح" لإحدى وثلاثين سنة. وقَبل ذلك، كُنت جُزءًا من هذه العائلة كمُتطوّع لعشر سِنين أخرى. ويُمكنُني أنْ أقول إنَّ أشَدَّ ألَم اختبَرتُه في حياتي جاء من هذه الهيئة. غير أنَّه يَسَعني القَول أيضًا إنَّ أعظمَ الأفراح في حياتي جاءَتْ من هذه الهيئة أيضًا. ولا شكَّ أنَّ أعظمَ أفراح في حياتي جاءَتْ من علاقتي الشخصيَّة بالله، ثُمَّ علاقتي بزَوجتي وأبنائي. لكنَّ هيئة "شباب للمسيح" كانت مَصدَرًا آخَرَ من مَصادِر الفَرَح العَظيم في حياتي!

لقد ذَكَرتُ في فصلٍ سابق تلك التَّجربة التي مَرَرْتُ بها عندما وَعَظْتُ في أحد المؤتمرات ولم تَكُنْ عِظَتي الأولى في الصَّباح مُوَفَّقة. وكان ينبغي لي أنْ أعِظَ مَرَّةً أخرى في صباح اليوم التالي. وعندما أدركتُ أنّي أخفَقْتُ في العِظة الأولى ذَهبتُ إلى غُرفتي وأنا مُضطربٌ ومُتَضايق. وقد اتَّصلتُ هاتفيًّا بزَوجتي ورَجَوتُها

أن تَطلُبَ من أصدقائي أنْ يُصَلُّوا لأجلي فيما أمضَيتُ تلك اللَّيلة وأنا أجاهِدُ في الصَّلاة إلى الربّ. وفي تلك اللَّيلة، تلقَّيتُ رسالةً نصِّيَّةً غريبةً عن الصَّلاة على هاتفي الخلويِّ من شابٍّ كُنت مَسؤولًا عن رعايَته في هيئة "شباب للمسيح". وعندما عُدْتُ من المؤتمر، قال لي ذلك الشَّاب إنَّه استَيقَظَ من نَومه في مُنتصف اللَّيل وهو مُثقَلٌ بالصَّلاة لأجلي. فقد شعرَ بأنِّي في وَرطة (أو بالأحرى أنِّي أواجِهُ تجرِبةً جنسيَّةً قويَّة)؛ ولهذا فقد راح يُصَلِّي بحرارة لأجلي.

وفي صباح اليوم التالي كانت عِظَتي جيِّدة. لكنَّ الأمرَ الذي أفرَحني جدًّا بشأن هذه الحادثة هو أنَّ رَفيقي المحبوب في الخدمة استيقظ في اللَّيل لكي يُصلِّي لأجلي. فَمثلُ هذه الأفراح تُعَوِّض عن الألَم الناشئ عن الالتزام من نحو الخدمة. فالمواقفُ المؤلِمةُ تَترُكُ أثَرَها لفترةٍ طويلةٍ أحيانًا. أمَّا الالتزام فيَجعَلُنا نَصْبر دون أنْ نَستَسلم. فمثلًا، يُمكنُني أنْ أتذكَّر الآن أنِّي كَتبْتُ رسالةَ استقالةٍ عدَّة مَرَّاتٍ على ورق؛ ومرَّاتٍ أكثر في ذهني. لكنِّي لَم أُقدِّم الرِّسالة يومًا لأنِّي لَم أكنْ أستطيعُ الاختباء من حقيقة أنَّ الله دعاني إلى البقاء مع هذه المجموعة، وأنه ينبغي لي أنْ أبقى إلى أن أُدركَ تمامًا أنَّ مشيئةَ الله لي هي أنْ أتركَ هذه الهيئة.

وَللأسف، فقد كان أحدُ الجوانب الأشَدُّ إيلامًا في خدمتي مع هيئة "شباب للمسيح" في هذه السَّنة هو أنَّ التحدِّيات كانت هائلةً جدًّا ممَّا منعَني من تخصيص وقتٍ كافٍ للدِّراسة التي كان لا بُدَّ أنْ أقومَ بها كمُعلِّمٍ للكتاب المُقدَّس. لهذا، فقد كان الوقتُ الذي خَصَّصتُه للدِّراسة هو على حساب أشياءَ أخرى لأنِّي قُمت بذلك في أوقاتٍ كنتُ فيها مُنهَكًا جدًّا. لكنِّي أدركُ أنَّ الصَّلاةَ هي أعظمُ طريقةٍ للاستعداد لتَعليم الكتاب المُقدَّس. والقصَّة التي سَرَدتُها للتَّوِّ تُبيِّن أنَّ هيئة "شباب للمسيح" بارَكَتْني بصلواتها في الوقت الذي كان ينبغي لي فيه أنْ أُجاهِدَ لتَخصيص وقتٍ للجانب الآخر من الاستعداد، وأعني الدراسة.

وفي رأيي الشخصيّ، فإنَّ الرِّسالة الثانية إلى مؤمني كورنثوس تَحتوي على أكثر الكلمات تشجيعًا في ما يَتعلَّق بمَجْد الخدمة المسيحيَّة. لكنَّ الخَلفيَّة التي

قادَتْ بولس إلى كتابة تلك الكلمات المُعبِّرة عن الفرح العظيم بالخدمة هي خَلفيَّةٌ قائمةٌ على الآلام الشَّديدة التي اختبَرَها. فقد تألَّم بولُس أشَدَّ الألَم بسبب الرَّفض الذي واجَهَه في كورنثوس. ويُمكننا أن نَرى لَهفتَه لمعرفة رُدود فِعْل المؤمنين على الرِّسالة التي أرسلَها إليهم من خلال تَوقِه الشَّديد إلى رؤية تيطُس (فَتيطُس هو الذي حملَ رسالة بولُس إلى مؤمني كورنثوس). فهو يقول: "وَلكِنْ لَمَّا جِئْتُ إِلَى تَرُوَاسَ، لأَجْلِ إِنْجِيلِ الْمَسِيحِ، وَانْفَتَحَ لِي بَابٌ فِي الرَّبِّ، لَمْ تَكُنْ لِي رَاحَةٌ فِي رُوحِي، لأَنِّي لَمْ أَجِدْ تِيطُسَ أَخِي. لكِنْ وَدَّعْتُهُمْ فَخَرَجْتُ إِلَى مَكِدُونِيَّةَ" (٢كورنثوس ٢: ١٢-١٣).

أجل، لقد جاء تيطُس حاملًا أخبارًا طيِّبة. لكنَّ بولس لا يَذْكُرُها هنا؛ بل إنَّه يُسارعُ إلى الحديث عن أمجاد الخدمة. وهو يبدأ بالكلمات التالية: "وَلكِنْ شُكْرًا للهِ الذِي يَقُودُنَا فِي مَوْكِبِ نُصْرَتِهِ فِي الْمَسِيحِ كُلَّ حِينٍ، وَيُظْهِرُ بِنَا رَائِحَةَ مَعْرِفَتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. لأَنَّنَا رَائِحَةُ الْمَسِيحِ الذَّكِيَّةِ للهِ، فِي الَّذِينَ يَخْلُصُونَ وَفِي الَّذِينَ يَهْلِكُونَ" (٢كورنثوس ٢: ١٤-١٥). وهو يُواصِلُ الكتابةَ من ٢: ١٤ إلى ٧: ١. وفي الأصحاح ٧، والأعداد ٢-٥، يَذْكرُ بولُس محبَّتَه لمؤمني كورنثوس والفرحَ الذي رافَقَ تلك المَحبَّة رُغم الآلام:

> اقْبَلُونَا. لَمْ نَظْلِمْ أَحَدًا. لَمْ نُفْسِدْ أَحَدًا. لَمْ نَطْمَعْ فِي أَحَدٍ. لاَ أَقُولُ هذَا لأَجْلِ دَيْنُونَةٍ، لأَنِّي قَدْ قُلْتُ سَابِقًا إِنَّكُمْ فِي قُلُوبِنَا، لِنَمُوتَ مَعَكُمْ وَنَعِيشَ مَعَكُمْ. لِي ثِقَةٌ كَثِيرَةٌ بِكُمْ. لِي افْتِخَارٌ كَثِيرٌ مِنْ جِهَتِكُمْ. قَدِ امْتَلأْتُ تَعْزِيَةً وَازْدَدْتُ فَرَحًا جِدًّا فِي جَمِيعِ ضِيقَاتِنَا. لأَنَّنَا لَمَّا أَتَيْنَا إِلَى مَكِدُونِيَّةَ لَمْ يَكُنْ لِجَسَدِنَا شَيْءٌ مِنَ الرَّاحَةِ بَلْ كُنَّا مُكْتَئِبِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ: مِنْ خَارِجٍ خُصُومَاتٌ، مِنْ دَاخِلٍ مَخَاوِفُ.

بعد ذلك، يُخْبِرُنا بولُس بشأن الأخبار التي جَلَبَها تيطُس بشأن رُدود فِعْل مؤمني كورنثوس على رسالته فيقول: "لكِنَّ اللهَ الَّذِي يُعَزِّي الْمُتَّضِعِينَ عَزَّانَا بِمَجِيءِ تِيطُسَ. وَلَيْسَ بِمَجِيئِهِ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا بِالتَّعْزِيَةِ الَّتِي تَعَزَّى بِهَا بِسَبَبِكُمْ، وَهُوَ يُخْبِرُنَا

بِشَوْقِكُمْ وَنَوْحِكُمْ وَغَيْرَتِكُمْ لأَجْلِي، حَتَّى إِنِّي فَرِحْتُ أَكْثَرَ" (العَدَدان ٦ و ٧).

إنَّ الرِّسالةَ الثانية إلى مُؤمني كورنثوس هي مَثلٌ جيِّدٌ على الفرح العظيم الذي نَشعُر به عندما نَلتزم التزامًا عميقًا من نحو النَّاس. صحيحٌ أنَّ هناك آلامًا أيضًا، لكنَّ الفرحَ يُعوِّض عن ذلك. والأشخاصُ الذين لا يختَبرون الفرحَ الناشئ عن الالتزام من نحو النَّاس هم أفقرُ الأشخاص على هذه الأرض لأنَّهم يُضيِّعون على أنفسهم واحدةً من أعظم مُتَع الحياة.

فمَثلًا، فإنَّ فرحَ الزَّواج يتمَثَّل في مَعرفتنا بأنَّنا نُحبُّ شُركاءَ حياتنا بالرُّغم من جميع الأشياء التي تُزعجُنا فيهم. فهناك شعورٌ بالأمان، وشعورٌ بالمحبَّة المُتَبادَلة، وإحساسٌ عميقٌ بالحرِّيَّة التي تُتيح لنا أن نُسَلِّمَ أنفسَنا عاطفيًّا وجسديًّا وجنسيًّا لذلك الشَّخص الذي قَطَعْنا معه عَهدًا مدى الحياة. لهذا فإنَّ العَهدَ الذي يدومُ مدى الحياة هو أحد أسرار الحياة الجنسيَّة السَّعيدة بالفعل.

ويتحدَّث "أتش. نورمان رايت" (H. Norman Wright) في كتابه "مشورة ما قَبْل الزَّواج" (Premarital Counseling) عن شابٍّ وفتاةٍ حَضَرا إليه في أحد الأيَّام طَلَبًا للمشورة قبل زواجهما. وقد كانَتِ الفتاةُ سعيدةً جدًّا. وعندما سألَها نورمان عن سَبَب سعادتها قالت إنَّ خَطيبَها تَصَرَّف بطريقةٍ مُرَوِّعةٍ قبل ثلاثة أيَّام. فقد كان مُعاندًا، ومُشاكسًا، وغريبَ الأطوار. لكنَّها قالت إنَّها بالرُّغم من ذلك كلِّه، فهي مُقتَنعةٌ تمامًا أنَّها تُحبُّه. وقد أضافت قائلةً: "عندما حَدَثَ ذلك، تأكَّدتُ تمامًا بأنَّه حتَّى في الأوقات التي قد يكونُ فيها في أسوإِ حالاته؛ أو في الأوقات التي قد لا أحبُّ فيها تصرُّفاته، فإنِّي مُقتَنعةٌ جدًّا بحُبِّي له".[١] وقد كان هذا سببَ فَرَحٍ عَظيمٍ لها.

وفي الآونة الأخيرة، تَلقَّيتُ رسالةً إلكترونيَّةً تَنقُلُ حال رجلٍ عجوزٍ كان يذهبُ كلَّ صباح لتَناوُل الإفطار مع زوجته التي كانت مُقيمةً في دارٍ لرِعاية مَرضى الزَهايمر. وفي أحد الأيَّام، كان يجبُ عليه أن يُراجعَ عيادةَ الطبيب في الصَّباح. وقد شعرَ الطَّبيب بأنَّ ذلك الرَّجُلَ العجوز في عَجَلةٍ من أمره فسألَه عن سبب عجَلته.

وعندما أخبرَه الرَّجُل بأنَّه ينبغي له الذَّهابُ لتَناوُل الإفطار مع زَوجته، قال له الطَّبيب إنَّه سيَفحصُه سريعًا لكي يَتمكَّن من اللَّحاق بموعده. لكنَّ الرَّجلَ العجوز قال له: "لا بأس إن تأخَّرْتُ قليلًا؛ فزَوجتي لَم تكنْ تَعرفُني خلال السَّنوات الخمس الأخيرة!" تَعَجَّبَ الطبيب وسأله: "وما زِلْتَ تزورُها كلَّ صباح مع أنَّها لا تَعرف مَن أنت؟" فابتَسمَ الرَّجل العجوز وقال: "إنَّها لا تَذكُرُني، لَكنِّي ما زلتُ أذكُرُها!".

هناك لَذَّةٌ رائعةٌ في الالتزام أو التعهُّد. ففي غَمْرَةِ حُزنِ ذلك الرَّجُل لأنَّ زوجتَه لا تَذْكُرُه بسبب مرض الزهايمر، فإنه فَرِحٌ لأنَّه يُحِبُّها إلى المنتَهى.

أمَّا العلاقاتُ العابرَة التي تُمَيِّز مجتمعاتِنا اليومَ فإنَّها تُفْقِد الناس شعورهم بالأمان. فهُم يَخشَون من إقامة علاقاتٍ بالآخرين؛ لأنَّهم يخافون من عَدَم استمرارها، ومن الآلام المُبرِّحَة التي ستَنشأ عن فَسْخها. ومع أنَّنا نُعاني، نحو المؤمنين، من مثل هذه المخاوف، فإنَّنا لا نَسمحُ لها بأنْ تُعَطِّلَ حياتَنا لأنَّنا نَعرفُ أنَّ أهمَّ علاقةٍ في حياتنا هي علاقتنا بالرَّاعي الصَّالح الذي أحَبَّنا وماتَ لأجْلِنا. ومع أنَّنا لا بُدَّ أن نَلتَقيَ رُعاةً أجيرينَ ممَّن يُوَلُّون الأدْبار عندما نكون في أمسِّ حاجةٍ إليهم، فإنَّ الرَّاعيَ الصَّالح يَرعى نفوسَنا ويهتمُّ بنا على الدَّوام.

وعندما يكون لدينا مثل هذا اليَقين، سنُبدي استعدادَنا للمُجازفة بالالتزام من نحو النَّاس والمؤسَّسات. ويا له من شعور مُنعشٍ في عالَمٍ تسودُ فيه العلاقات العابرة! فهذا سيُمَكِّنُنا من استعادة الفرح والشُّعور بالأمان الناشِئَين عن الالتزام والتعهُّد في هذا العالَم الذي نعيش فيه اليوم. كما أنَّ هذا سيَكونُ عاملًا فعَّالًا في الحَدِّ من حالات الطَّلاق التي صارَتْ وبأً ابْتُلِيَ به عالَمُنا. فعندما نُبيِّن للنَّاس ذلك المجدَ الناشئ عن الالتزام الباهظ الثَّمن ونَنجح في تطبيقه في حياتنا المِهْنيَّة وكنائسنا وصداقاتنا، سنتمكَّن حينئذٍ من استعادة ثقافة الالتزام أو التعهُّد بين المؤمنين. وعندما يَتَحقَّق ذلك، سيَتعلَّمُ الناسُ كيفيَّة تَطبيق المبدإِ نفسه على الزَّواج أيضًا.

القسم الرَّابع

خُدَّامُ الكنيسة

... [الكَنيسَة] الَّتِي صِرْتُ أَنَا خَادِمًا لَهَا، حَسَبَ تَدْبِيرِ اللّٰهِ الْمُعْطَى لِي لأُكَمِّلَ لَكُمْ، لِتَتْمِيمِ كَلِمَةِ اللّٰهِ. السِّرِّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ وَمُنْذُ الأَجْيَالِ، لكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ لِقِدِّيسِيهِ، الَّذِينَ أَرَادَ اللّٰهُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ مَا هُوَ غِنَى مَجْدِ هذَا السِّرِّ فِي الأُمَمِ، الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ رَجَاءُ الْمَجْدِ. الَّذِي نُنَادِي بِهِ مُنْذِرِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، وَمُعَلِّمِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، بِكُلِّ حِكْمَةٍ، لِكَيْ نُحْضِرَ كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلًا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. الأَمْرُ الَّذِي لأَجْلِهِ أَتْعَبُ أَيْضًا مُجَاهِدًا، بِحَسَبِ عَمَلِهِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيَّ بِقُوَّةٍ.

كولوسّي ١: ٢٥–٢٩

الفصل الثاني والعشرون

خُدَّامٌ ووُكلاء

أَكتبُ هذا الفصل بعد خمسة أيَّام من عَودتي من مؤتَمرٍ إرساليٍّ كبيرٍ للطَّلبة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة قدَّمتُ فيه أربع عِظاتٍ تفسيريَّة. إنَّ الانتقالَ من واعظٍ إلى قائدٍ هو أمرٌ صعب. فَكَواعظ، إنِّي أُشْبهُ المشاهيرَ في كَوني أُمارسُ مَوهبَتي في التَّعليم وأقومُ بالعمل الذي أُحبُّه في الوقت نفسه. وكَقائد، إنِّي خادمٌ في هيئة "شباب للمسيح" التي أعملُ فيها، وخادمٌ لعائلتي. وكَخادم، يجب عليَّ أن أكونَ مُكرَّسًا لخدمة هؤلاء الأشخاص بأقصى طاقتي. فحاجاتُهم لا تَطفو على السَّطح في الأوقات التي أتمنَّاها أنا؛ بل يجب عليَّ أن أجاهدَ للعثور على وقتٍ للدِّراسة والكتابة. وفي الحقيقة، فقد كتبْتُ هذه الفِقرة في السَّاعة ١٠:٤٥ مساءً بسبب إصراري على البَدء في كتابة هذا الفصل قبل أنْ أخلدَ إلى النَّوم- رُغم أنِّي تأخَّرْتُ يومًا ونصفَ اليوم عن الموعد الذي حدَّدتُه سابقًا للبَدء في كتابة هذا الفصل.

وكما ذَكَرْتُ قبلَ قليل، فإنَّ انتقالي من الوَعْظ إلى القيادة كان أمرًا صعبًا. وقد كُنتُ أشعرُ ببعض الإحباط اليومَ بسَبَب عدم مقدرتي على أن أجدَ الوقتَ اللَّازم للدِّراسة والكتابة. غير أنِّي قرَّرتُ أنْ أُغيِّر طريقتي المُعتادة في الدِّراسة التعبُّديَّة. وهكذا، فقد قرأتُ في كتاب بعنوان "الخدمةُ المُتكامِلة: الانتقالُ من مَسيحيَّةِ خدمةِ الذَّات إلى الخدمة المُضَحِّية" (Full Service: Moving from Self-Serve Christianity to Total Servanthood) لعالم النَّفس والقِسّ "سيانغ-يانغ تان" (Siang-Yang Tan).[1] وقد كلَّمني الله بوضوح من خلال هذا الكتاب. فالدُّكتور تان يَصفُ كيف أنَّ الكنيسةَ تأثَّرَتْ بنَماذج الإدارة والقيادة العَلمانيَّة؛ وقد كان الكثيرُ من هذا التأثير إيجابيًّا. لكنَّه يقول إنَّ أحدَ جوانب الاختلاف الشَّاسع بين الكنيسة والمؤسَّسات أو الشركات التجاريَّة هو مفهومُنا للعَظَمَة. فالعَظَمَة- بمفهومِها الكتابيّ- تَرتبطُ بالخدمة المُضَحِّية. فإذا أرَدْتَ أن تكونَ عظيمًا، يجب عليك أن تَخدمَ الله وشَعبه. وبلا شكّ، فإنَّ اللَّاهوتَ الذي أعتَنقُه- والذي وَضَّحْتُه في القسم الأوَّل من هذا الكتاب- يُعَلِّم أيضًا أنَّ ما أراه الآن مِحْنَةً أو تَجرِبةً سيُنشئُ شيئًا صالِحًا في وقتٍ لاحق. لهذا، لا يَجدُرُ بي أن أكونَ مُحبَطًا.

في الآيات التي تأمَّلنا فيها من الرِّسالة إلى مؤمني كولوسِّي؛ وبعد أن يَقولَ بولس إنَّه تَألَّمَ من أجل الكنيسة، فإنَّه يَصفُ علاقتَه بالكنيسة بالكلمات التالية: "... الَّتِي صِرْتُ أَنَا خَادِمًا لَهَا، حَسَبَ تَدْبِيرِ اللهِ الْمُعْطَى لِي لأَجْلِكُمْ، لِتَتْمِيمِ كَلِمَةِ اللهِ" (١: ٢٥). والكلمة اليونانيَّة المُترجمة هُنا "خادمًا" هي "دياكونوس" (diakonos)؛ وهي الكلمة الإنكليزيَّة ذاتها التي تُتَرْجَم "شَمَّاسًا" (deacon). وهذه الكلمة تُشيرُ "عُمومًا إلى الشخص الذي يَنهَمكُ في القيام بشيءٍ ما بطريقةٍ تَرْجِعُ بالفائدة على شخصٍ آخر".[2] وقد صارَتْ تَعني "خادمًا، أو مُساعدًا، أو شَمَّاسًا".[3] وغالبًا ما كانَتْ هذه الكلمةُ تُستخدَم للإشارة إلى الشخص الذي يَخْدمُ الموائد. وقد استَخدمَ بولس هذه الكلمة تحديدًا لكي يُعَبِّر عن أنَّه كان مُكرَّسًا للقيام بالأشياء التي تَؤولُ إلى خَير الكنيسة.

وفي مَوضعٍ آخر، يَستخدمُ بولس كلمةً يونانيَّةً أقوى وهي "دولوس" (doulos) والتي تَعني "عَبْدًا" ليَصفَ تكريسَه للكنيسة. فهو يقول: "فَإِنَّنَا لَسْنَا نَكْرِزُ بِأَنْفُسِنَا، بَلْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبًّا، وَلكِنْ بِأَنْفُسِنَا عَبِيدًا لَكُمْ مِنْ أَجْلِ يَسُوعَ" (٢كورنثوس ٤: ٥). وأيضًا: "فَإِنِّي إِذْ كُنْتُ حُرًّا مِنَ الْجَمِيعِ، اسْتَعْبَدْتُ نَفْسِي لِلْجَمِيعِ لأَرْبَحَ الأَكْثَرِينَ" (١كورنثوس ٩: ١٩).

وبَعدَ أن يَصفَ بولس نَفسَه بأنَّه "خادمُ" الكنيسة، فإنَّه يقول إنَّه قام بتلك الخِدمة "حَسَبَ تَدْبِيرِ اللهِ الْمُعْطَى لِي لأَجْلِكُمْ" (كولوسّي ١: ٢٥). والكلمة المُترجَمةُ "تَدْبير" تُشير "إلى المسؤوليَّة والسُّلطة والالتزام الذي كان يُعطى لبَعض العبيد الذين كانوا يَعملون في المنازل".[٤] وهذه الكلمة تُذكِّرُنا لا بالخدمة المُتواضعة التي نقوم بها فحسب، بل تُبيِّن هي لنا أيضًا أنَّ هذا العملَ هو "امتيازٌ كبيرٌ وثقةٌ مُقدَّسة".[٥]

وهناك ما يَكفي من الأدلَّة في الكتاب المقدَّس لكي نؤمنَ بأنَّ جميعَ المؤمنين قد تَلَقَّوا دَعوةً ما أو تَسَلَّموا وِكالةً مُعيَّنةً من الله مُباشرةً. وقد يكونُ العملُ مُضنيًا، لكنَّنا رسلُ مَلكِ المُلوك، أو كما يقول الرسول بولُس: نَحْنُ سُفَرَاءُ الْمَسِيحِ (٢كورنثوس ٥: ٢٠). وقد لَمَسَني هذا الحقُّ بقوَّة في إحدى المرَّات عندما اضطُرِرْتُ إلى كتابة رسالةٍ إلى السَّفير البريطانيِّ لتَوضيح مُشكلةٍ تتعلَّق بتأشيرة الزِّيارة التي حَصلتُ عليها للسَّفر إلى المملكة المتَّحدة. فقد خاطَبتُه بعبارة "سعادة السَّفير". وفي ذلك الوقت، كُنتُ أُعِدُّ عِظَةً تَدور حولَ الآية التي يقول فيها بولُس إنَّه سَفيرُ السيِّد المسيح. وعندها، رُحْتُ أفكِّر قائلًا: "هَأَنَذا أخاطِبُ سَفيرَ ملكةِ بريطانيا بلقب «سعادتك». لكنِّي سَفيرُ مَلِكِ مَلِكَة بريطانيا". ويا لَها من فكرةٍ مُدهشةٍ حقًّا!

إنَّ المَهَمَّة المُحدَّدة التي أوكَلَها الله إلى بولُس هي "لِتَتْمِيمِ كَلِمَةِ اللهِ" (كولوسّي ١: ٢٥). ولا شكَّ أنَّ هذا يُشكِّلُ تَحدِّيًا هائلًا في عَصرنا الحاضر، لا سيَّما أنَّ الناسَ لا يُبْدونَ حَماسةً كبيرةً بشأن الحقِّ الموضوعيّ. ولا يَتَّسعُ المَقام

هنا لمناقشة هذا الموضوع. لذلك، سأكتَفي بِذِكْر الجوانب التِّسعة لهذه المَهَمَّة التي أَوكَلَنا الله بها. فهذه المَهَمَّة تَقَعُ على عاتقِ جميع الذين ائتَمنَهم الله على رعاية المؤمنين- ولا سيَّما الآباء، والأمَّهات، ومُعلِّمو مدارس الأحد، وقادة المجموعاتِ الصغيرة، ورُعاة الكنائس. فيَجبُ علينا أنْ نَحْرصَ على تَوصيل كلمة الله بطريقةٍ:

١. صحيحة،
٢. مُقنعة،
٣. مفهومة،
٤. وثيقة الصِّلة بحياتهم،
٥. جَذَّابة،
٦. قابلة للحفظ،
٧. عمليَّة،
٨. شاملة،
٩. مَمسوحة بِمِسْحَة الرُّوح القُدُس.

لهذا، إن كُنَّا خُدَّامًا أو عبيدًا أو وُكلاءَ لله، فينبغي أنْ يَدفعَنا هذا الامتياز وهذا الطُّموح إلى خدمة الأشخاص الذين دعانا الله إلى خدمتهم. لكنَّنا نفعلُ ذلك ونحن نعتقدُ أنَّ أفضلَ ما أعدَّه الله لهؤلاء الأشخاص يَتَعارَضُ مع أفضل ما أعدَّه لنا. فقد لا نَرى دائمًا أنَّ ذلك أفضل لنا. غير أنِّي اكتَشَفْتُ أنَّه غالبًا ما يتعيَّن عليَّ أنْ أُغيِّرَ خُطَطي الشخصيَّة وأنْ أتخلَّى عن الأشياء التي أُفَضِّلُها بسبب حاجاتِ الناس الذين أخدمُهم. ومع ذلك، فإنِّي أرى دومًا- ربَّما بعد ذلك بسنوات- أنَّه على الرُّغم من التَّضحية الكبيرة ظاهريًّا، فإنَّ ما يَسمَحُ الله به هو الأفضلُ لي أنا أيضًا.

كُنت قد شَرَحْتُ في كتابي "الخدمة الموجَّهة نحوَ يسوع" (Jesus Driven Ministry) معنى الخدمة المتَواضِعة التي يقومُ بها الزَّوج وذلك بالاستعانة بالآية

في أفسس ٥: ٢٥ (''أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا''). وقد كَتَبْتُ:

> ربَّما تقول غالبيَّة الزَّوجات: ''أنا لا أريدُ حقًّا أن يموتَ زَوجي لأجلي. لكنْ أرجو أنْ تُقْنعَه بأنْ يُكَلِّمَني! فهو يأتي إلى البيت من عَمَله مُنهَكًا وفي مزاجٍ سَيِّئ حتَّى إنَّه لا يَتفوَّه بكلمةٍ واحدة. بل إنَّه يَثور غاضبًا عندما أحاول أنْ أُكلِّمَه''. إنَّ مثل هذا الزَّوج مُنهَكٌ جسديًّا ومُستَنْزَفٌ عاطفيًّا بعد يومٍ شاقٍّ في العمل. وآخرُ ما يرغب في القيام به هو التحدُّث. لكنْ بسببِ حبِّه لزَوجته، فإنَّه ''يَموت'' عن رغبته في البقاء صامتًا ويتحَدَّثُ إليها. فمن وجهة نَظَره في ذلك الوقت، فإنَّ التحدُّثَ إلى زَوجته هو شَكْلٌ من أشكال الموت![٦]

من المؤسف حقًّا أنَّ تَعليمَنا غير المتوازن عن المواهب الرُّوحيَّة قد أفْضى إلى المُبالَغة في التخصُّص (ولا سيَّما في الغَرب). وكما ذَكَرنا آنفًا، فإنَّ بعضَ الأشخاص يَقضون غالبيَّةَ وقتهم في مُمارسة مواهبهم الرئيسة. لذلك، قد يكون هناك واعظٌ مُتميِّزٌ لكنَّه لا يُخصِّص وقتًا طويلًا لزيارة أعضاء الكنيسة والاهتمام بقادة كنيسته. ومع أنَّ مثلَ هذا التخصُّص قد يؤدِّي إلى تحسين جودة الشيء الذي يُقدِّمه هذا الشخص، فإنَّ التأثيرَ الذي يَتركُه هذا الشخصَ في الآخرين قد يكون أقلَّ ممَّا هو مأمولٌ فيه. فَلِكَي نَتركَ تأثيرًا قويًّا في النَّاس فإنَّنا بحاجة إلى ما هو أكثرُ من الكفاءة المُجرَّدة. فنحن بحاجةٍ إلى اختبار الإحباط العميق الناشئ عن حياة التجسُّد التي نَحياها في وَسط الأشخاص الذين نخدمُهم. فيجب علينا أن نَستخدمَ مواهبنا من خلال حياتنا اليوميَّة التي نَقضيها في رعاية الناس والاهتمام بهم. بمعنى آخر، يجب علينا أن نَفعلَ القليلَ من هذا الشيء والقليل من ذاك؛ مع تخصيص وقتٍ لتَنمية مواهبنا واستخدامها.

وهذا يَنطبقُ على المِهَن الأخرى أيضًا. ففي عَصر المعلوماتيَّة الذي نَعيش

فيه، يمكنُنا أن نَحصلَ على الكثير من المعلومات من خلال البحث الإلكترونيّ. وحيثُ إنَّ النتائجَ التي نتوصَّل إليها بهذه الطريقة غالبًا ما تَخْلو من التَّلامُس مع الناس واحتياجاتهم، فقد يؤدِّي ذلك إلى أخطاءٍ استراتيجيَّةٍ جسيمة. فهناك قراراتٌ نَصنَعُها دون أنْ نأخُذَ في الحسبان تلك العوامل الثقافيَّة التي تؤثِّر في أمزِجة النَّاس. ولِكَي نَتعرَّف إلى هذه العوامل، يجب علينا أن نَقتربَ من النَّاس وأن نَتلامسَ وإيَّاهم.

ويَجْدرُ التَّنويهُ إلى أنَّ الأشخاصَ الذين أحدَثوا فَرْقًا في تاريخ الكنيسة هُم القادةُ الذين كَتَبوا من واقع انخراطهم العميق في خدمة المُجتمع المحلِّيّ. فأُغسطينوس دخلَ سِلْكَ الخدمة الراعويَّة رُغمًا عنه لأنَّه كان يَعرفُ أنَّ تلك الخدمة سَتُبَدِّد حُلُمه في أنْ يَحيا حياةً هادئةً يتمكَّن فيها من الدراسة، والصَّلاة، والتَّعليم، والكتابة. وقد كان مارتن لوثر، وجون كَلڤن، وجون وسلي، وجوناثان إدواردز (Jonathan Edwards) خُدَّامًا فاعلين في مُجتمعاتهم المحلِّيَّة- على غِرار الرَّسول بولس.

كُنت أسمعُ دَومًا أنَّ جون كَلڤن كان أحدَ علماء الكتاب المُقدَّس اللَّامعين؛ لكنِّي دُهشتُ حين قرأتُ هذه الكلمات عنه: "لقد حرمَ نَفسَه النَّومَ. وكان بيتُه مَفتوحًا دَومًا لأيِّ شخصٍ يأتي إليه طلَبًا للنَّصيحة. وكان على اطِّلاعٍ دائم بجَميع شؤون الكنيسة والدولة. وقد كان يزورُ المرضى والمُحبَطين. وكانَ يَعرفُ كُلَّ مواطنٍ تقريبًا".[٧] وقد كَتَبَ كَلڤن ذاتَ مرَّة: "مُنذ مَجيئي إلى هُنا، لا أذكرُ أنِّي حَظيتُ بأكثَرَ من ساعتَين وحدي دون أنْ يُقاطعني أحَد".[٨]

لقد تَبيَّن لنا أنَّ الكثيرينَ ممَّن يعودونَ إلى سريلانكا بعد إنهائهم لدراساتهم العُليا ليسوا مُستعدِّين للإحباط الناشئ عن خدمةِ شَعْبٍ يُعاني أشَدَّ المُعاناة. فهُم يَأتونَ بحثًا عن أفضل فُرَصِ عَمَلٍ مُتاحة؛ لكنَّهم ليسوا مُستعدِّين للمَوت أو حتَّى للإحباط الذي لا مفرَّ منه. كما أنَّ فَهمَهُم للرِّضى عن الذَّات لا يَختلف عن فَهم الأشخاص غير المؤمنين. فهُم يُفكِّرون في ذلك في ضَوء أفضل طريقةٍ لاستخدام

إمكاناتِهم ومَواهبهم وليس في ضَوء ما يُمكنُهم تَقديمه كخُدَّامٍ لله والنَّاس.

لهذا، فإنَّ البعضَ منهم يَتركونَ الخدمة بعد وقتٍ قصير. كما أنَّ البعضَ الآخر يَتحوَّلون إلى العمل كمُستشارين. فهُم يُشاركون خبراتِهم مع الآخرين دون أن يُطبِّقوها هم أنفسُهم من خلال التَّماهي (التوحُّد) مع الناس واحتياجاتهم. وهناك مَن يُنشئون هيئاتهم الخاصَّة لكي يتمَّكنوا من كتابة الوَصْف الوظيفيِّ الذي يُلائِمهم. لكنَّ هؤلاء جميعًا يُخفِقون في تَركِ تأثيرٍ عميقٍ في النَّاس من حَولهم.

وهكذا، ليس هُناك مَفَرّ! فلا يُمكنُنا أنْ نكونَ فاعِلين في الخدمة إلَّا إذا كنَّا مُستعدِّين لأنْ نكونَ خدَّامًا.

الفصل الثَّالث والعشرون

الخدمةُ المُضَحِّية تَنبعُ من النِّعمة

في حين أنَّ غالبيَّةَ الناس يُدركونَ قيمةَ الخدمة المُضَحِّية، فإنَّنا نُدركُ أيضًا أنَّ الكثيرينَ ممَّن يُوصَفون بأنَّهم أمثلَةٌ حيَّة على الخدمة المُضحِّية ليسوا فرحين البتَّة بأدوارهم. ورُغم جدِّهم واجتهادهم، فإنَّهم غاضبون من الداخل. ومع أنَّهم يَبدون مُتَواضعين جدًّا، فإنَّ مشاعرَهم الحقيقيَّةَ تَطْفو أحيانًا على السَّطْح في شكل سَورات غَضَب. وأعتقدُ أنَّ السَّببَ الرئيسَ في ذلك هو أنَّ خدمتَهم المُضحِّية لا تَنبُعُ من النِّعمة. وسأتطرَّق الآن إلى ثلاثة أنواع من المشاعر التي تُرافِقُ الخدمة المُضحِّية الخالية من النِّعْمَة، ثُمَّ سأبيِّن كيف يُمكنُ للنِّعمة أن تُساعدَنا على تَجنُّب مثل هذه المشاعر والأفكار:

الامْتعاض

فالكثيرون ممَّن يَخْدِمون الآخرينَ يُعانون من الامتعاض؛ لأنَّهم يَشعرون بأنَّ الآخرين

يَستغلُّونَهم. فهُم يَعملون بجِدّ، لكنَّهم لا يَنالون التَّقديرَ اللَّازم. ويبدو أنَّ النَّاسَ يَنظرون إليهم وإلى ما يَفعلونَه كشيءٍ مُسَلَّم به. كما أنَّ المسؤولين والقادةَ يَستَمرُّون في جداول أعمالِهم المُزدَحمة ويَستفيدون من هؤلاء الخُدَّام الأُمناء الذين يَعملون من وراء الكواليس دون الاعتراف بِدَورهم الكبير. بل إنَّهم قد يُوَبِّخونَهم ويؤذون مشاعرَهم أحيانًا في حالِ ظهور عَقَباتٍ في طريق شُهرَتِهم. حينئذٍ، فإنَّ هؤلاء الخُدَّام الأُمناء يَشعرون بأنَّ الآخرين يَستغلُّونَهم ويَنتقصون من قَدْرهم.

وأوَّلُ شيءٍ ينبغي لنا أنْ نقولَه هنا هو إنَّ الخدمة الأمينة التي تتمُّ بعيدًا عن الأضواء مُهمَّةٌ جدًّا في نَظَرِ الله. وإنْ كان الأشخاصُ الذين هم في مَوقع مَسؤوليَّة يَتصرَّفون بِخلاف هذه الحقيقة، فهُم مُخْطِئون. فالأعمال التي تَجري وراءَ الكواليس هي أعمالٌ صَعبة- ولا سيَّما في مُجتمعاتنا المُعاصرة التي تَعتمد كثيرًا على وسائل الإعلام، والحمْلاتِ الترويجيَّة، والمظاهرِ الخارجيَّة. ولأنَّ الأشخاصَ المَغمورين قد يَشعرون بعَدم أهمِّيَّتهم، يجب على القادة أنْ يَفعلوا شيئًا لتَقديرهم وإبراز دَوْرِهم.

لكنْ من وجهة نَظَرِ الكتاب المُقدَّس، فإنَّ كلَّ ما نقوم به من أجل الله قد أُعطِيَ لنا بفَضلِ رَحمَتِه (٢كورنثوس ٤: ١). فنحن لا نَستحقُّ هذا الامتياز العظيم في أنْ نكونَ خُدَّامًا عند إلهِ السَّماوات العظيم. وحياتُنا هي أعظمُ دليلٍ على أنَّنا لسْنا أكْفاء لأيَّة مسؤوليَّة يُعهَدُ بها إلينا. لهذا، فإنَّ كُلَّ شيءٍ هو امتيازٌ من الله. وعندما نُدركُ هذه الحقيقة، سنَكون شاكرين لأنَّ الله اختارَ أنْ يَستخدمَنا؛ وهذا- بدَوره- سيُخَفِّف كثيرًا من إحباطنا النَّاشئ عن عدم تقديرنا. وقد يكونُ مثل هذا الإحباط طبيعيًّا لأنَّنا بَشَر. لكنْ عندما نَنظُر إلى إحباطنا في ضَوء معرفتنا بأنَّ كلَّ ما نَفعلُه هو امتيازٌ من عند الله، سنُدركُ أنَّه ليس هناك ما يُبرِّرُ غَضبَنا.

وقد تَحَدَّث الرَّسول بولُس بشأن خدمة المُناداة بالإنجيل التي كان يقومُ بها فقال: "فَمَا هُوَ أَجْرِي؟ إِذْ وَأَنَا أُبَشِّرُ أَجْعَلُ إِنْجِيلَ الْمَسِيحِ بِلاَ نَفَقَةٍ، حَتَّى لَمْ

أَسْتَعْمِلْ سُلْطَاني فِي الإِنْجِيلِ" (١كورنثوس ٩: ١٨). إنَّ أجْرَه هو ذلك الامتياز الذي جَعلَه يُبَشِّر بالإنجيل دون أن يَحصلَ على أيِّ أجْرٍ على هذه الأرض. فَعمَلُ الله عظيمٌ جدًّا حتَّى إنَّ مُجَرَّد الحُصول على فُرصةٍ للمشاركة فيه، دون أجْرٍ (وهو ما يقوله بولس هنا)، هو شَرَفٌ عظيمٌ لا نَستحقُّه. ويَقتَبسُ "روبرت موراي متشيني" (Robert Murray M'Cheyne) القولَ التالي عن شخصٍ يَدعوه "هنري" (ولا أدري إنْ كان يَقصدُ به "ماثيو هنري" (Mathew Henry) مفسِّرَ الكتاب المقدَّس المشهور): "أنا مُستعدٌّ للتَّوسُّل ستَّة أيَّام في الأسبوع لكي يُسمَحَ لي بالوَعظ في اليوم السَّابع".[١]

إنَّ كلَّ خدمةٍ نقومَ بها هي فَيْضٌ من نعمة الله. والشيءُ المهمُّ هو ليس ما نَفعلُه لأجل الله، بل ما يَفعلُه الله لأجلِنا. وهذا هو سرُّ الحياة المُفعَمة بالفرح. لذلك، فإنَّنا نَفعَلُ حَسنًا إذا تَمتَّعنا دَومًا بنعمَةِ الله دون أنْ نَلتَفتَ إلى الوراء لِنَرى ما إذا كان الآخرون قد قدَّروا خدمتنا أم لا.

ومن المُؤسف أنَّ الأخَ الأكبر في قصَّة الابن الضَّالّ، لَم يكنْ يَعرف هذه الحقيقة. فقد غَضِبَ بسبب النِّعمَة التي أظهرَها أبوه من نحو أخيه العائد. وقد تَذَمَّر مُشتَكيًا لأبيه بالقَول: "هَا أَنَا أَخْدِمُكَ سِنِينَ هذَا عَدَدُهَا، وَقَطُّ لَمْ أَتَجَاوَزْ وَصِيَّتَكَ، وَجَدْيًا لَمْ تُعْطِنِي قَطُّ لأَفْرَحَ مَعَ أَصْدِقَائِي" (لوقا ١٥: ٢٩). وعبارة "هَا أَنَا أَخْدِمُكَ"، أو "دوليوأُو" (douleuo) تَعني حَرفيًّا: "لقد عَمِلْتُ عندكَ كَعَبْد". وكما يقول الرَّسول بولُس، فقد أَخَذَ هذا الأخ "رُوحَ العُبوديَّة" وليسَ "رُوحَ التَّبَنِّي" (رومية ٨: ١٥).

وقد يَمضي العُمر كُلُّه دون أنْ نَفهمَ المجدَ الذي لنا نحن أولادَ الله وبَناته. لكنْ كُلَّما زادَ إدراكُنا لهذه الحقيقة، زادَ فرحُنا أيضًا. وعندما نُدركُ أنَّ الله كان- وما زال- صالحًا جدًّا معنا، سنتَوقَّفُ عن التفكير في الثَّمن الباهظ لخدمتنا، وسنبدأُ في اختبار ذلك الفرح الناشئ عن إدراكنا لِنعمة الله العَجيبة.

الجُروح النفسيَّة

إنَّ السَّببَ الثاني في عدم سعادة خُدَّام الربِّ هو عدمُ لُطْف النَّاس معهم وسوء معاملتهم لهم. فعندما نَقوم بأيِّ عمل، لا بُدَّ أنْ نتألَّم. وإنْ كان العملُ ضاغطًا والناس مُتوتِّرون، سيُسيء الناس إلينا. والأسوأ من ذلك هو أنَّ البعضَ سيَستَغِلُّوننا لتَحقيق مآربهم الشخصيَّة ثُمَّ يَطْرَحونَنا عندما لا يَعودون بحاجةٍ إلينا. وقد يَجْرَحُنا البعضُ بسبب غَيرَتِهم أو رغبتهم في مُضايَقَتنا. وإنْ ركَّزْنا على هذه الجُروح التي لَحِقَتْ بنا بعدَ كلِّ هذا الجَهد والتَّعب، سنَشعرُ بالمرارة والتَّعاسة.

غير أنَّ الكتابَ المُقدَّسَ واضحٌ جدًّا في هذا الشأن إذْ يَقولُ الرَّسول بولُس: ''حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدًّا'' (رومية ٥: ٢٠). فقد يكونُ الناسُ سَيِّئين؛ لكنَّ محبَّةَ الله أعظمُ من كلِّ شُرور البشَر. لهذا فإنَّ الرَّسول بولُس يقول: ''لأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا'' (رومية ٥: ٥). والكلمة المُترجَمَة ''انْسَكَبَتْ'' يُمكن أنْ تَعنيَ أنَّ محبَّةَ الله انفجرَتْ كيَنابيع المياه أو كالفَيضان. وأثْمنُ كَنْزٍ في حياتنا هو هذه المحبَّةُ الإلهيَّةُ التي هي أعظمُ من كلِّ شرور العالَم. لذلك، يجب علينا ألَّا نَسمَحَ للأشرار بحِرْماننا من فرحنا. فهذا شَرَفٌ لا يَستحقُّونَه!

إنَّ الأشخاصَ الذين ذاقوا فرحَ الربِّ المُتأتِّي من فَيْض محبَّته سيُناضلون من أجل الاحتفاظ بذلك الفرح حين يتألَّمون. وكما رأيْنا آنفًا، فإنَّ مَعارِكَنا الروحيَّة قد تَنطوي على الحُزن والبكاء. لكن في النِّهاية، ستُشرقُ محبَّة الله كالشَّمس فَتُعزِّي قلوبَنا. وعندها، سيَكونُ تأثيرُ هذه المحبَّة في مَواقِفنا أعظمَ من تأثير شُرور النَّاس.

لهذا، من المُهمِّ جدًّا أنْ نَسمَحَ لنعمة الله أنْ تَشفيَ مَشاعرَنا التي تأذَّتْ بسبب أفعال النَّاس. وقد نَحتاج إلى المُساعدة في احتمال هذا الواقع المؤلِم الناشئ عن تَصرُّفات الآخرين. لكنْ يجب علينا أنْ نَصْبرَ إلى أن نَرى بأمِّ أعْيننا أنَّ مَحَبَّة الله تَشفينا، وأنَّها تُحَوِّل هذا الشرَّ إلى أمرٍ صالح.

الإعْياء

فأحدُ الأشياء التي يَختبرُها الخُدَّام هو الإعْياءُ أو التَّعب الشَّديد. وقد لا يكونُ الإعْياء خطأً في حدِّ ذاته؛ لكنَّنا سنُرجئ مُناقشةَ هذا الأمر إلى الفصل الثامن والعشرين. فنحن نَعرف أنَّ يسوعَ كان يَتعَبُ جدًّا في أغلب الأوقات. لكنْ إذا وَصَلْنا إلى نُقطةٍ نَشعُر فيها بأنَّنا قد استُنْزِفنا ولَم تَعُد لدينا طاقةٌ كافيةٌ لخدمة الآخرين، فهذا يَعني أنَّ الوَضْعَ خطيرٌ ويتطلَّب علاجًا. والحلُّ هو أن نَعمَلَ بقوَّةِ محبَّةِ الله وليس بقوَّتنا الذاتيَّة. "نَحْنُ نُحِبُّهُ لأَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا أَوَّلًا" (١يوحنَّا ٤: ١٩). وقد تَحَدَّث بولُسُ بشأن خدمته فقال: "لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ تَحْصُرُنَا" (٢كورنثوس ٥: ١٤). والفعل المُستخدَم هُنا "يُشير إلى الضَّغط الذي يُقَيِّدُنا، وَيَحْصُرنا، وَيُسَيطر علينا".[٢] فمحَبَّة السيِّد المسيح- أي نعمته العاملة فينا- هي التي تَدفَعُنا إلى الخدمة.

قبلَ بِضْع سنوات، قرأتُ جُملةً كتبَها الواعظُ البريطانيُّ المعمدانيُّ المشهور "فرانسيس دبليو. ديكسون" (Francis W. Dixon)، وهي عبارةٌ لن أنْساها ما حَييت: "أَصْعَبُ شيءٍ يُمكِنُنا القيامُ به هوَ أن نَخدمَ الله بقُوَّتنا الذاتيَّة". لهذا، فإنَّ الأشخاصَ الذين يَفتقرون إلى الشُّعور بالأمان لا يُمكنُهم تَحقيقُ ذَواتهم من خلال الأعمال التي يقومون بها. فهُم سَيَعمَلون ويَعملون دونَ أنْ يَشعروا بالسَّعادة لأنَّ العملَ في هذا العالَم الملآن بالخطيَّة لا يمكنُ أن يكونَ مَصدرًا رئيسًا لتَحقيق الذَّات. بل إنَّ ما يَحدُثُ عادةً هو أنَّ أمثال هؤلاء الأشخاص هم الأكثرُ عُرضةً للإنهاك الشَّديد. وفي رأيي، فإنَّ عدمَ الشُّعور بالأمان يؤدِّي إلى العمل الشاقّ. لكنَّ العملَ الشاقَّ في حدِّ ذاته لا يؤدِّي إلى الإنهاك الشَّديد. وذاتَ مَرَّة قالَتْ لي صديقتي "سوزان بيرلمان" (Suzan Pearlman): "الإنهاكُ الشَّديدُ يَحْدُث عندما تَحترقُ الفَتيلة عِوَضًا عن الزَّيت".

وإحدى النَّتائج المؤسفة الأخرى للعمل الشاقِّ الذي يقومُ به الأشخاصُ الذين لا يَشعرون بالأمان هي محاولةُ تَحقيق الذَّات من خلال إقامة علاقةٍ

بشَخْصٍ من الجنس الآخر خارج إطار الزَّواج. فَبِسبَب العمل المُجهِد الذي يقوم به الزَّوجان، قد يؤدِّي ذلك إلى إهمال بعض الواجبات والمَهامِّ في المنزل. وقد يؤدِّي هذا- بدَوره- إلى بعض المشاعر السلبيَّة والشُّعور بالرَّفْض في البيت. وغالبًا، فإنَّ الأشخاصَ الذين لا يَشعُرون بالأمان، يُواجهون صعوبةً بالغةً في قبول رَفْض الآخرين لهم. فإنْ وَجَدوا في مكانِ عملهم شخصًا يَقبلُهم ويُعجب بهم- خلافًا لشريك الحياة- فسَيَشعرون بتَحقيق الذَّات من خلال ذلك الشخص. وبلا شكّ، فإنَّ النتيجةَ هي علاقةٌ عاطفيَّةٌ أو تَعَلُّقٌ عاطفيٌّ في غير مَكانه.

لذلك، يجب علينا أنْ نَحرصَ دَومًا على استمرار تَدفُّق النِّعمة في حياتنا. ولا شَيء يَضمَنُ لنا ذلك أكثر من قضاء وقتٍ مع الله. فعندما نقرأ كلمةَ الله ونُصلِّي، فإنَّنا نَشْعُر بدَعم الله لنا. وعندها، سنُدركُ أنَّ "الإلهَ الْقَدِيمَ مَلْجَأٌ، وَالأَذْرُعَ الأَبَدِيَّةَ مِنْ تَحْت" (التَّثنية ٣٣: ٢٧). وعندما نَختَبِرُ ذلك الأمان، سنَسعى إليه دائمًا. وفي حال أنَّنا لَم نَتمَكَّن من قضاء وقتٍ مع الله، سنَتألَّم كثيرًا إلى الحدِّ الذي نتُوقُ فيه إلى قضاء ذلك الوقت معه من جَديد. ولن نَشعُرَ بالكفاية إلَّا بعدَ ارتِوائنا. وقد نجحَ ناظمو المزامير في وصْفِ عَطَشِ المؤمنين إلى الله (انظر مثلًا المزمور ٤٢: ١، أو ٦٣: ١).

في اللَّيلة الفائتة، أخطأتُ في ضَبْط مُنَبِّه السَّاعة فنَهضتُ من النوم مُتأخِّرًا وعَجَّلتُ في الخروج من البيت للَّحاق بموعدٍ مُهمٍّ دون أنْ أقضيَ وقتًا مع الله. وفي المساء، تَمَكَّنْتُ من قضاء وقتٍ مع الله دون عجَلَة. وكانَتْ زَوجَتي تُصلِّي هي الأخرى في ذلك الوقت. فقد كان يومُها حافلًا. وقد اتَّفقنا في الرأي بأنَّ الوجودَ في مَحْضَر الله بعيدًا عن مشاغل هذه الحياة هو أمرٌ مُنعشٌ للنَّفس. ولا يَسعُني إلَّا أنْ أعتَرفَ بأنِّي أوشَكْتُ على الالتهاء بأمورٍ أخرى. لذلك، فقد أغلَقْتُ هاتفي الخلويَّ لكي أقاومَ ذلك الإلهاء! وما زلتُ مُقتنعًا جدًّا بالآية التي تقول: "وَأَمَّا مُنْتَظِرُو الرَّبِّ فَيُجَدِّدُونَ قُوَّةً. يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ. يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ. يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ" (إشعياء ٤٠: ٣١).

ولا شكَّ في أنَّ أحدَ الأخطار التي قد يَتعرَّضُ لها المُؤمنُ هي أنْ يَفقدَ رغبتَه في قضاء وقتٍ مع الله. وقد رأيتُ هذا يحدُثُ مع بعض القادة المسيحيِّين المُنهمكين في أشغالِهم. وحتَّى بعدَ انقضاء تلك الأوقات الضَّاغطة، لَم يَعدْ أولئك الأشخاص يَقضون وقتًا مع الله. فقد فَقَدوا ذلك المَذاقَ الرَّائعَ الذي كانوا يَتذوَّقونه في أوقات التأمُّل في الربّ. وهكذا، فقد صارَتْ حياةُ هؤلاء الأشخاص تتَّسمُ بالعَجَلة حتَّى إنَّهم لَم يعودوا يَخْتَلون بأنفسهم. وهُم يُفَضِّلون قضاءَ الوقت في مُشاهدة التِّلفاز أو القيام بأيِّ عمل. لكنْ يُمكنُنا أن نَتخلَّص من هذه الحالة من طريق التَّوبة والتعهُّد من جديد. وينبغي لنا أنْ نَنظرَ إلى هذه المشكلة نظرةً جادةً لأنَّها مُشكلةٌ خطيرةٌ تتطلَّب حلًّا عاجلًا.

ولا يَجدُرُ بنا أن نُدهَشَ حين نَرى أنَّ كثيرين من أبطال الإيمان الذين خَدَموا الله والكنيسةَ بأمانةٍ كانوا يُواظِبون على الصَّلاة هم أيضًا. فقد كان فرانسيس الأسِّيزيُّ يَقضي ساعاتٍ في مَحْضَرِ الله. وقد كان يكتفي أحيانًا بتَرديد كلمة "يسوع" فقط. ومع أنَّنا لا نتَّفقُ مع لاهوت البعض بشأن الصَّلاة، فإنَّنا نَعلَمُ أنَّ الخدماتِ الرائعةَ التي يقومون بها تُقابلُها ساعاتٌ طويلةٌ من التأمُّل والصَّلاة. ويُنْسَبُ القولُ إلى مارتن لوثر إنَّه إذا كانت لديه مَهامُّ كثيرة في أحد الأيَّام، فإنَّه يَقضي وقتًا أطول مع الله لأنَّه يَحتاجُ إلى قُوَّةٍ أكبر للقيام بذلك العمل. ومع أنَّ جون وسلي كان مشغولًا جدًّا على الدَّوام، فإنَّه استمرَّ في الوَعْظ إلى أواخر الثمانينيَّات من عمره. وقد كان يُعرَفُ عنه أيضًا انضباطه الشَّديد في تخصيص وقتٍ يوميٍّ يَقضيه مع الله. وقد قال في نهاية حياته: "لقد تَعِبْتُ في الخِدمة، لكنِّي لَم أتعَبْ منها".

لذا، فلْنحْرِصْ على أنْ تَكونَ خدمَتُنا نابعةً من النِّعمَة.

الفصل الرَّابع والعشرون

نحن أغنياء!

لقد رَكَّزنا في الفصول الأخيرة على الثَّمن الذي تَتطلَّبه الخدمة المُضحِّية. وستَجدُ في هذا الفَصل بَركةً غنيَّةً في ما يتعلَّق بخدمة الإنجيل. ومن المُلائم أن نُناقشَ هذا الأمرَ هنا لأنَّه لا يجوزُ بتاتًا أن نَتحدَّثَ بشأن الثَّمن الذي تَتطلَّبه الخدمةُ دونَ أنْ نَتحدَّثَ بشأن اليَقين بأنَّ ذلك الثَّمن سيَكون مَقرونًا بِفَرحٍ ومُكافأةٍ أعظم.

سِرٌّ مَكْتوم

في كولوسِّي ١: ٢٥، يَصِفُ بولُس مَهَمَّته بأنَّها "تَتْميمُ [أو إعلانُ] كَلِمَةِ الله". ثُمَّ يقول واصِفًا "كَلمةَ الله" هذه التي يُعلنُها بأنَّها: "... السِّرِّ الْمَكْتُوم مُنْذُ الدُّهُورِ وَمُنْذُ الأَجْيَالِ، لكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ لِقِدِّيسِيه" (١: ٢٦). وكثيرًا ما نُفكِّر في السِّرِّ بأنَّه أمرٌ غيرُ معروف أو بأنَّه أمرٌ يُمكن العثور عليه من طريق البحث

والتَّحقيق- كما هي الحال في قصص الغُموض. لكنْ عند استخدام الكلمة اليونانيَّة "موستيريُن" (musterion) والتي تَعني "سرّ" في العهد الجديد، فإنَّها تَعني عادةً "الشيءَ المَخفيَّ أو الذي لا يُمكن اكتشافُه بالطُّرق البشريَّة، لكنَّ الله أعلَنَه لهم".[1] وفي أفسُس ٣: ٣، يَكتبُ بولسُ: "... أنَّه بإعْلاَنٍ عَرَّفَنِي بِالسِّرِّ". وبالإضافة إلى كلمة "سِرّ" (موستيريُن)، نجدُ كلمتَين مُهمَّتَين هُنا وهما: "أبوكَلوبِسِس" (apokalupsis) أيْ "كَشْفٌ، أو وَحْيٌ، أو إعلان"، و"غنوريزو" (gnorizo) أي "يُعَرِّف".

ومن الواضح أنَّ الإنجيلَ هو رسالةٌ يَحتاج العالم إلى سَماعها، وأنَّ الله قد عرَّفنا بهذه الرِّسالة من طَريق الإعلان عن فِكْره بطريقةٍ لا مَجال فيها للخَطأ. ويقول أنصارُ التَّعدديَّة الدينيَّة أنَّ حقيقةَ كُلِّ ديانةٍ تُكتشف بواسطة الخبرة البشريَّة والبحث. لكنْ كما ذَكَرنا قَبل قليل، فإنَّ المَسيحيِّين يَنظرون إلى الحقِّ لا كأمرٍ اكتَشفوه بأنفسهم، بل هو أمرٌ أعلَنَه الله لهم. وقد عبَّر الرَّسولُ بطرس عن هذا بقوله:

> الْخَلاَصَ الَّذِي فَتَّشَ وَبَحَثَ عَنْهُ أَنْبِيَاءُ، الَّذِينَ تَنَبَّأُوا عَنِ النِّعْمَةِ الَّتِي لأَجْلِكُمْ ... الَّذِينَ أُعْلِنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَيْسَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لَنَا كَانُوا يَخْدِمُونَ بِهذِهِ الأُمُورِ الَّتِي أُخْبِرْتُمْ بِهَا أَنْتُمُ الآنَ، بِوَاسِطَةِ الَّذِينَ بَشَّرُوكُمْ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُرْسَلِ مِنَ السَّمَاءِ. الَّتِي تَشْتَهِي الْمَلاَئِكَةُ أَنْ تَطَّلِعَ عَلَيْهَا.
>
> ابطرس ١: ١٠-١٢

إنَّ المُناداة بالإنجيل ليسَتْ بالأمر السَّهل في وقتنا الحاضر. لكنَّنا نفعلُ ذلك من مُنطلق قناعتنا بأنَّ هذه هي رسالةُ الخالق إلى خَليقَته. لهذا، فهي تُلبِّي حاجاتِ النَّاس العميقة، وهي رجاؤهم الوحيد. ومع أنَّهم قد لا يَعترفون بهذه الحقيقة، فإنَّنا نَعلَم أنَّها كذلك وَنَفعلُ كلَّ ما يُمكنُنا فِعْله لمساعدتهم على الإقرار بذلك. ومع أنَّهم قد يَرفضون الرِّسالة ويَضطهدونَنا، فإنَّنا نَعرفُ أنَّ هذه الرِّسالة هي الوحيدةُ القادرةُ على إشباع أعمق أشواق قلوبهم.

إنَّ قَناعتي العميقة بأنَّ ما نُنادي به هو الحقُّ، هي التي تُساعدُني عندما أكونُ مُحبَطًا أو مُنهَكًا، أو عندما أشعرُ بعدم الرَّغبة في الكرازة أو الوَعْظ. فغالبًا ما أفتَحُ دَفترَ مُلاحظاتي بتردُّدٍ وأقرأُ ما كتبْتُه فيه. حينئذٍ، سُرعان ما تَشدُّني حقيقةُ أنَّ ما أُنادي به هو الحقّ. ولا شكَّ في أنَّ هذه الرِّسالة هي الحقُّ، وأنَّها الرَّجاء الوحيدُ للنَّاس الذين أُخاطبهم. وعندها، فإنَّ إحباطي يَتَلاشَى، ولو لِلَحَظاتٍ قليلة، كما يزول تَعَبي فأعودُ إلى مُشارَكةِ رسالة الإنجيل مع الناس بحماسة.

الغِنى

في الأصحاح الأوَّل مِنَ الرِّسالة إلى مُؤمِني كولوسِّي، يُسْهِبُ الرَّسولُ بولس في وَصْفَ السِّرِّ فيقول: "الَّذِينَ [أيْ: القدِّيسين، كما وَرَدَ في العدد ٢٦] أَرَادَ اللهُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ مَا هُوَ غِنَى مَجْدِ هذَا السِّرِّ فِي الأُمَمِ، الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ رَجَاءُ الْمَجْدِ" (العَدَد ٢٧). ونَجدُ هنا إشارةً عابرةً إلى سرِّ الاختيار. فقد "أرادَ اللهُ أنْ يُعَرِّفَ" القدِّيسينَ بهذا "السِّرِّ" العظيم. لكنْ لماذا اختارَنا؟ لن نَعرفَ الإجابة عن هذا السُّؤال في هذه الحياة. فكلُّ ما نَعرفُه هو أنَّ الله أعطانا هذا الامتياز العظيم. وبلا شكّ، فإنَّها مسؤوليَّةٌ عظيمةٌ أيضًا.

لاحِظْ كيف أنَّ بولس يُشيرُ إلى "غِنى مَجْدِ هذا السِّرِّ". وتَرِدُ فكرة غنى الإنجيل خمسَ مَرَّاتٍ في رسالتَي أفسُس وكولوسِّي (أفسُس ١: ١٨؛ ٣: ٨ و ١٦؛ كولوسِّي ١: ٢٧؛ ٢: ٢). وقد قالَ داودُ عن شريعة الله بأنَّها أثمنُ من الذَّهب- الذي هو واحدٌ من أثمن المعادن: "... أَحْكَامُ الرَّبِّ حَقٌّ عَادِلَةٌ كُلُّهَا. أَشْهَى مِنَ الذَّهَبِ وَالإِبْرِيزِ الْكَثِيرِ" (المزمور ١٩: ٩-١٠). وقد يَفْقدُ النَّاس شعورَهم بغِنى نعمة الله في أثناء انشغالهم في البَحث عن أشياءَ مثل الصحَّة البدنيَّة، أو الثروة المادِّيَّة، أو النَّجاح المهنيّ. لكنَّ الإنجيلَ أغنى من هذه الأشياء كُلِّها؛ لأنَّه يُشْبِعُ أعمقَ أشواقِ قلوبنا، ولأنَّه يَحتوي على أعظم وأفضل خُطَّة لِمَا سيَحدُث بعد هذه الحياة.

يُحكى أنَّ موظَّفًا في مَصْلحة الضَّرائب ذَهبَ إلى أحدِ المنازل وطلبَ من

صاحب المنزل كشْفًا بمُمتلكاته. وقد كانَتْ إجابة الرَّجُل على النَّحو التالي:

أوَّلًا، لديَّ حياةٌ أبديَّة.
ثانيًا، لديَّ بيتٌ في السَّماء.
ثالثًا، لديَّ سلامٌ يَفوقُ العقل.
رابعًا، لديَّ فرحٌ لا يُنطَقُ به.
خامسًا، لديَّ مَحبَّةٌ إلهيَّةٌ لا تَسقُطُ أبدًا.
سادسًا، لديَّ زَوجةٌ مخْلِصَة.
سابعًا، لديَّ أبناءٌ يتمتَّعون بصحَّةٍ جيِّدة، وسُعداء، ومُطيعون.
ثامنًا، لديَّ أصدقاء أوفياء.
تاسعًا، لديَّ إلهٌ يَضَعُ على فَمي تَرنيمًا في اللَّيل.
عاشرًا، لديَّ إكليلُ الحَياة.

حينئذٍ، أغلقَ موظَّف الضَّرائب دَفترَه وقال: "سَيِّدي، أنت رَجلٌ غنيٌّ جدًّا، لكنَّ أملاكَكَ ليسَتْ خاضعةً للضَّريبَة!".

وهكذا، يجبُ علينا ألَّا نَتَجاهَلَ الثَّروةَ العَظيمة التي لدينا. ففي بعض الأوقات، قد يُجَرِّدُ النَّاسُ أنفسَهم من هذا الغِنى الحقيقيِّ في أثناء سَعْيِهم وراء الغنى الدُّنيويّ. فهُم لا يَقْضونَ أيَّ وقتٍ مع الله. بل إنَّهم في بعض الأوقات يَعْصون وصايا الله. ومع أنَّهم قد يَنجَحون في حياتهم المهنيَّة ويَتبوَّأون مَناصبَ مَرموقة، فإنَّهم لا يَمتلكون تلك الأشياء التي تُشعرُهم بالرِّضى. وقد قال يسوع: "لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي الإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟" (إنجيل متَّى ١٦: ٢٦). فأعظم غنًى هو هبةُ الخلاص وكلُّ ما يُرافقُها من بَرَكات.

لقد سَمعْتُ مُؤمنين يقولون إنَّ الله لَم يَعتَنِ بهم رُغم أمانتهم له. وقد تتأتَّى مثل هذه الأفكار أو المواقف عندما لا نُدرك غنى نعمَة الله. فالله هو الذي قادَنا إلى

السَّيرِ في الاتِّجاه الآخر بعد أنْ كنَّا مُتَّجهين إلى الجحيم. بل إنَّه أعطانا مكانًا في السَّماء. وبعد هذا كُلِّه فإنَّنا نَتجرَّأُ أن نقولَ إنَّ الله لم يَعْتَنِ بنا! وهذا أشبَهُ بأشخاصٍ مُنطَلقينَ في رحلةٍ غير مُريحَةٍ إلى السَّماء فيَتذمَّرون بأنَّهم لا يَتلكون بعضَ الأشياء التي يَتلكُها أولئك الأشخاص المُنطلقون في رحلةٍ مُريحةٍ إلى الجَحيم. إنَّ الرِّحلةَ هي لِوَقتٍ قصيرٍ فقط. والشيءُ الأهمُّ هُنا هو المكانُ الذي سيَنتهي بنا فيه المطاف نهايةَ الرِّحلة. فإنْ لَم نَلتَفِتْ إلى أبرز الحقائق الكتابيَّةِ عن الأشياء الأهمِّ في الحياة، فقد يَنتهي بنا الحالُ إلى الشُّعور بالحِرمان لأنَّنا لا نَمتلكُ بعضَ البركاتِ الأرضيَّة مثلَ الصحَّة، أو الرَّاحة، أو المال، أو النَّجاح.

وقد أرادَ بولس من مؤمني رومية أنْ يَختبروا عُمْق غنى السيِّد المسيح عندما قال: "وَلْيَمْلأْكُمْ إِلهُ الرَّجَاءِ كُلَّ سُرُورٍ وَسَلاَمٍ فِي الإِيمَانِ، لِتَزْدَادُوا فِي الرَّجَاءِ بِقُوَّةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (رومية ١٥: ١٣). فالفرحُ والسَّلام يأتيان من الإيمان. لهذا، يجب علينا أنْ نُسَلِّم بأنَّ الله صالحٌ ولأنَّه سيَعتني بنا. فحينئذٍ فقط، يُمكنُنا أن نَختبرَ الفرح والسَّلام. وحتَّى عندما تَسوءُ الأحوالُ كثيرًا، يُمكنُنا أنْ "نَزْدادَ في الرَّجاء" وأن نَتطَلَّعَ بشَوقٍ إلى الوقتِ الذي سيُحَوِّلُ فيه الله الأشياءَ السيِّئة إلى أشياءَ جَيِّدة.

وبعد أنْ دَرَسَ الرَّسولُ بولس أسفارَ الكِتاب المُقدَّس وعلاقتها بشعب الله، قال مُتَعَجِّبًا:

> يَا لَعُمْقِ غِنَى اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاسْتِقْصَاءِ! "لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ؟ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيرًا؟ أَوْ مَنْ سَبَقَ فَأَعْطَاهُ فَيُكَافَأَ؟" لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ.
>
> رومية ١١: ٣٣-٣٦

وبعدَ أنْ لَخَّصَ بولس الأحوال التي آلَتْ إلى خلاصِه ودعوته إلى الخدمة، فإنَّه يقولُ بأعلى صَوته: "وَمَلِكُ الدُّهُورِ الَّذِي لاَ يَفْنَى وَلاَ يُرَى، الإِلهُ الْحَكِيمُ وَحْدَهُ، لَهُ

الْكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. آمِينَ" (١تيموثاوس ١: ١٧). وليتَنا- نحن أيضًا- نَعتاد أن نرْفَعَ قلوبَنا بالتَّسبيح عندما نُفكِّر في وفرَةِ غِنانا في السيِّد المسيح.

الفصل الخامس والعشرون

رجاءُ المجد

كُنَّا قد تَحَدَّثنا في الفصل السَّابق كيف أنَّ الإنجيل، الذي يَدعوه بولُس "سِرٌّ مَكْتومٌ"، هو كَنزٌ عظيمٌ يَجعَلُنا أغنياء (كولوسِّي ١: ٢٦-٢٧). بعد ذلك مُباشرةً، يَصفُ بولُس مُحتوى ذلك السِّرِّ فيقول: "... الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ رَجَاءُ الْمَجْدِ" (١: ٢٧).

وعِبارةُ "الْمَسِيحُ فِيْكُم" قَدْ تَعني أنَّ السيِّد المسيح هو في وسطِ المؤمنين، أو أنَّه في داخل المؤمن. أو رُبَّما تكون هذه عبارةً عامَّةً تَحتَملُ المعنَيَين. ومهما كان المعنى المقصود، فإنَّ ما يقولُه بولس هنا هو أنَّ حُضورَ السيِّد المسيح يُضْفي لَونًا ومعنًى على كلِّ شيءٍ في حياتنا. وفي مَوضعٍ آخر، يقول بولُس: "لأَنَّ لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ" (فيلبِّي ١: ٢١). وقد تَناوَلْنا هذه الفكرة، لكنْ بعباراتٍ مُختلفة، في القسم الثَّاني من هذا الكتاب.

كان هناك رَجلٌ عَجوزٌ يعيشُ في "منزلٍ فقير". في ذلك الوقت، كانت مَراكزُ رعاية المُسنِّين تَسمَّى بالمنازل الفقيرة. وكان ذلك الرَّجلُ مُنحَنِيَ الظَّهر وهَزيلًا جدًّا. وعندما سألَه أحدُ الزَّائرين ما إذا كان يُعاني من صعوبةِ العَيش في ذلك المكان، انتَصَبَ العجوزُ وقال: "أنا لا أحيا في هذا المكان الفقير؛ أنا أحيا في الله". وهكذا، فإنَّ حُضورَ الله من خلال السيِّد المسيح يُنيرُ حياتنا ويُضْفي لَونًا رائعًا على كلِّ ما نَفعلُه.

ويوضِحُ بولس أنَّ حُضورَ السيِّد المسيح فينا هو "رَجاءُ المَجْد" (كولوسِّي ١: ٢٧). بمعنًى آخر، فإنَّ حقيقةَ حضور السيِّد المسيح معنا تُعطينا اليَقينَ بأنَّنا سنَختَبرُ في يومٍ ما مِلْء خلاصِنا المجيد.

وفي مَوضعٍ آخر، يقول بولس إنَّ الرُّوحَ القُدُس يقوم بهذه المَهَمَّة. فالرُّوح القُدُس "هُوَ عُرْبُونُ مِيرَاثِنَا، لِفِدَاءِ المُقْتَنَى" (أفسس ١: ١٤). ويَستخدمُ الرَّسولُ بولس تَشبيهًا آخر فيقول: "وَلَيْسَ هكَذَا فَقَطْ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ لَنَا بَاكُورَةُ الرُّوحِ، نَحْنُ أَنْفُسُنَا أَيْضًا نَئِنُّ فِي أَنْفُسِنَا، مُتَوَقِّعِينَ التَّبَنِّيَ فِدَاءَ أَجْسَادِنَا" (رومية ٨: ٢٣). وهكذا، فإنَّ كِلتا هاتين الآيتَين تقولان إنَّ حضورَ الرُّوح القُدُس فينا هو الذي يَمنَحُنا اليَقين بأنَّنا سنَختَبرُ المستَقبَلَ المجيدَ الموعود. وهذا لا يتَعارَضُ مع ما نقوله؛ لأنَّنا نَختَبرُ حُضورَ السيِّد المسيح معنا من خلال الرُّوح القُدُس. وفي الحقيقة أنَّ الكتابَ المُقدَّس يُشيرُ إلى الرُّوح القُدُس أحيانًا بمُصطلح "رُوح المَسيح" (رومية ٨: ٩؛ فيلبِّي ١: ١٩؛ ١بُطرس ١: ١١).

وحيثُ إنَّنا نَختَبرُ يسوعَ من خلال الرُّوح القُدُس في حياتنا اليوميَّة، فهذا يؤكِّد لنا بأنَّنا سنَختَبرُ المجد في السَّماء. كان "إي. ستانلي جونز" (١٨٨٤-١٩٧٣) أحدَ المُرسَلين الأمريكيِّين إلى الهند ممَّن تَركوا أثرًا هائلًا في الكثير من المُثقَّفين في القارَّة الأسيَويَّة. وفي كتابٍ نُشرَ عندما كان في التاسعة والسَّبعين من عُمره، قال: "يسوع المسيح يَعني لي الحياة الأبديَّة. فأنا لا أحصُل عليها في الحياة الآخرة، بل أنا أحياها الآن فيه. أنا مُتَيَقِّنٌ من السَّماء لأنِّي مُتَيَقِّنٌ منه. فإنْ كُنْتَ

فيه فهذا يعني أنَّك في السَّماء أينَما كُنت. لذلك، سواءٌ أَعِشْتُ أم مُتُّ، كما يقولون، فهذا ليسَ بالأمر الذي يُقْلقُني كثيرًا"[1].

إنَّ الفكرةَ الرئيسةَ التي أريدُ أنْ أتركَها مع القارئ في هذا الفصل هي أنَّ التطلُّعَ إلى السَّماء هو شيءٌ مُهمٌّ لا لِفَرحنا فحَسْب، بل لحياتنا بأسْرِها على الأرض. وفي الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب (وهو بعنوان: "الخِزْيُ والكرامة")، قُلنا إنَّ عقيدةَ الدَّينونة يُمكنُ أنْ تُساعدَنا في تَجنُّب المرارة. وأنا أقول الآن إنَّ أحدَ الجوانب الرَّئيسة لحياتنا اليوميَّة مع السيِّد المسيح هي أنَّها تَجعلُنا مُتَيقِّنين بأنَّنا سنَذهبُ إلى السَّماء. وكثيرًا ما يتحدَّثُ الكتابُ المقدَّس بشأن السَّماء والجحيم؛ لأنَّ الفَهْم السَّليمَ للمَصير الأبديِّ هو عاملٌ مُهمٌّ في تَحديد سلوك المؤمن ومَواقِفه. فإنْ عَرَفْنا أنَّ هذه الحياةَ هي مثلُ رحلةٍ قصيرةٍ ستأخذنا إلى بيتنا الأبديِّ، فسيَكونُ طُموحُنا هو أن نَحيا الحاضرَ بطريقةٍ تُؤهِّلنا للذَّهاب إلى ذلك البيتِ الأبديّ. وهكذا، فإنَّ التَّطلُّعَ إلى السَّماء يُساعدُنا على تحديد طُموحاتنا.

فإنْ نَظَرْنا إلى الحياة على الأرض كمَنْزلٍ مُؤقَّت، فلن نَتَضايَقَ من الانتكاسات المؤقَّتة. كما أنَّنا لن نَنْزعجَ كثيرًا عندما نرى أنَّ الأشرارَ يَزدَهرون بسبب شرِّهم في حين أنَّ نَجاحَنا في المُجتمع يواجِهُ عَراقيلَ كثيرةً بسبب رَفْضنا التَّنازُل عن مبادئ الكتاب المُقدَّس. لكنَّ الانزعاج الذي يَشعرُ به المؤمن في هذه الحياة هو أشبَهُ بانزعاج شخصٍ يُنطلِقُ في رحلةٍ قصيرةٍ إلى السَّماء بسيَّارةٍ غير مُريحة. أمَّا الأشرار، فهُم في طريقهم إلى الجحيم مع أنَّهم يجلسون في سيَّاراتٍ مُريحةٍ جدًّا. فتلك الرَّاحة لن تُغيِّرَ حقيقةَ المكان المُرَوِّع الذي يَنطلقون إليه. على نحوٍ مُشابه، نحن نُدركُ أنَّ الخدمةَ المُضَحِّية التي نُقدِّمُها إلى الآخرين ليسَتْ باهظةَ الثَّمن كما يبدو أوَّلَ وهلة لأنَّ هناك مُكافأةً عظيمةً لها في السَّماء. فقد قال يسوع: "طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ، مِنْ أَجْلِي، كَاذِبِينَ. اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُمْ هكَذَا طَرَدُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ" (إنجيل متَّى ٥: ١١-١٢). وهكذا، فإنَّ التطلُّع إلى

السَّماء يُعطينا الشَّجاعة لاتِّباع السيِّد المسيح، ويصيرُ هو الشَّرارةَ التي تُضرِمُ نارَ الفرح العظيم في حياتنا.

ورُبَّما كانت كاتبة التَّرانيم الشَّهيرة "فاني كروسبي" (Fanny Crosby) [١٨٢٠-١٩١٥م، والتي كان اسمها الرسميُّ بعد الزَّواج "فرانسيس جاي. ڤان ألستيان" (Frances J. Van Alstyne)] مَثَلًا جيِّدًا على أهمِّيَّة أنْ يكونَ السيِّدُ المسيح فينا رجاءَ المجد. فعندما كان عُمرها ستَّة أسابيع، أُصيبَت بزُكامٍ خفيفٍ تَسبَّبَ في التِهابٍ في عَينَيها. ولأنَّ طبيبَ العائلة كان خارجَ البلدة في ذلك الوقت، فقد أخَذَها أهلُها إلى طبيبٍ آخر أعطاها دواءً خاطئًا أدَّى إلى إصابتها بالعَمى. وقد تَزوَّجَتْ "فاني" من موسيقيٍّ أعمى ورُزِقا طفلًا واحدًا ماتَ في طفولته. وقد عاشت "فاني" إلى أن بلغَتْ من العُمر الخامسة والتِّسعين، وكتبَتْ أكثرَ من ثمانية آلاف تَرنيمة. وكانت تَرانيمُها تتَّسمُ بالفرح والتَّسبيح- كما هو واضحٌ من ترنيمتَيها المشهورتَين "للهِ المَجْدِ" (To God be the Glory)، و"سَبِّحوه، سَبِّحوه" (Praise Him, Praise Him).

وفي الخمسينيَّات من عمرها، ألَّفَتْ صديقتُها "فيبي پالمر ناپ" (Phoebe Palmer Knapp) لَحْنًا مُوسيقيًّا ثُمَّ جاءت إليها لِتُسْمعَها إيَّاه. قالت لها فاني: "اعزِفيه لي من فَضْلِك!" فعَزَفَتْهُ السيِّدة فيبي وسألَتْها: "ما الذي يَعنيه لك هذا اللَّحن؟" وعندما استدارَتْ، رأت فاني تَسجُدُ على رُكبتَيها؛ فعزفَتِ اللَّحن مرَّةً ثانيةً وثالثة. وأخيرًا، بدأت فاني تُرَنِّم قائلةً: "عِلْمي يَقينٌ، يَسوعُ لي". وبعدَ وقتٍ قصير، سلَّمَتْ فاني كلماتِ التَّرنيمةِ الجميلة كاملةً إلى صديقتها التي ذُهِلَتْ تمامًا. أمَّا كلمات التَّرنيمة فتَقول:

عِلْمي يَقينٌ، يَسوعُ لي:
نِلْتُ اخْتباري بروحِ العَلي!
إرْثُ البَنين رَبّي اشْتَراه،
قَلْبٌ جَديدٌ غَسلُ دِماه.

إنَّ البَيتَين- الأوَّل والثاني أعلاه- يُعَبِّران عن الآية التي نَتأمَّل فيها في هذا الفصل "يَسوعُ فيكُم رَجاءُ المَجْد".

وهي تقول في إحدى ترنيماتها الأخيرة:

سوف يزولُ العُمر
إذْ يُفصمُ حَبلُ الفضَّة
وبعدَ ذا مع سَيِّدي
أُوقَظُ يا لَبَهجَتي
وَجهًا لِوَجهٍ سأراه
وَجهًا لوَجهٍ في سَماه
أشْدو بملْءِ البَهجةِ
مُخَلَّصٌ بالنِّعمةِ.

وذات يوم، قال لها أحدُ خُدَّام الربِّ إنَّه من السيِّئ جدًّا أنَّ الله لَم يُنْعِم عليها بالبَصَر، فَرَدَّت عليه قائلةً: "لو كانَ لي حقُّ الاخْتيار حين كنتُ طفلةً، لاختَرتُ أنْ أكونَ عَمياء... فعندما أذهبُ إلى السَّماء، سيَكونُ أوَّلَ وَجهٍ أراه هو وَجهُ ذاك الذي ماتَ لأجلي![٢]" وسؤالي لك، عزيزي القارئ هو: هل تَلْمَسُ ذلك التَّطلُّعَ المُفعَمَ بالفرح إلى السَّماء؟

يجب أنْ يكونَ هذا هو شَوْقَ قَلْبِ كُلِّ مؤمنٍ بالسيِّد المسيح. لكنْ لكي يكونَ لدينا مثلُ هذا الشَّوق، يجب علينا أن نَتحدَّثَ بشأن السَّماء والجحيم والدَّينونة. فالوُعَّاظُ الذين لا يتحدَّثون بشأن هذه الأمور، والآباءُ الذينَ لا يُخبرون أبناءهم بشأنها إنَّما يَقتَرفون خطيَّةَ الإهمال. فإنْ كانَ الرُّوح القُدُس يَرى أنَّ هذا الموضوع يَستحقُّ الذِّكْر مِرارًا في الكتاب المقدَّس، فمن المؤكَّد أنَّه عاملٌ مُهمٌّ في مساعدتنا على أنْ نَحيا الحياة المسيحيَّة التي يُريدُنا الله أن نَحياها. في ضَوء ذلك، فإنَّ نُدرَةَ الحديث بهذا الموضوع في الكنيسة هو أمرٌ يَدعو إلى العَجَب!

إنَّ أعظمَ أمرٍ في المسيحيَّة هو السيِّد المسيح ذاته. واختبارُنا مع السيِّد المسيح

هو مجرَّدُ تذوُّقٍ مَبدئيٍّ للمَجد الذي يَنتظرُنا. لهذا، ليتَ هذه الحقائق تُؤثِّر بقوَّةٍ في نَهجِنا في الحياة. وليتَ تأثيرها يَفوقُ تأثيرَ الخطيَّة والرِّياء والفَساد المُنتشرةِ في هذا العالَم. ومهما تَحدَّثنا بهذا الموضوع فلن نَفيَه حقَّه. ومع أنَّ حياتَنا ستَنتهي قبل أنْ نَنتهيَ من اكتشاف هذه الحقائق المدهشة، فإنَّ هذا كلَّه هو مُجرَّد ظلٍّ للمَجد الذي يَنتظرُنا، والذي نَتطلَّع إليه بشَوقٍ كبير. لهذا، ليتَ هذه الحقائق تُعَزِّينا في وسط آلامنا، وتَدفَعُنا إلى تقديم المزيد من التَّضحيات في خدمتنا، وتكون مَصدَرًا دائمًا للفَرح في حياتنا.

الفصل السّادس والعشرون

يَسوع: رسالتُنا

كانَ أبي قد سلَّمَ حياته للسيِّد المسيح عندما كان طالبًا جامعيًّا عَقْبَ سَماعه عِظةً للواعظ "إي. ستانلي جونز"، الذي كان مُرسَلًا في الهند كما قُلْنا سابقًا. ويُقالُ إنَّ أيَّ موضوع كان جونز يَتطرَّق إليه أو يُشارك فيه كان يَنتهي بيَسوع. ولو أمكَنَنا أن نَطلُبَ من الرَّسول بولُس أن يُلَخِّصَ لنا رسالتَه بكلمةٍ واحدة، لكان رَدُّه: "يسوع". وفي الحقيقة أنَّ هذا هو ما يقوله بولس بعد قَوله إنَّ السيِّدَ المسيحَ هو رَجاءُ المجد في كولوسّي ١: ٢٧: "الَّذِي نُنَادِي بِهِ مُنْذِرِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، وَمُعَلِّمِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، بِكُلِّ حِكْمَةٍ، لِكَيْ نُحْضِرَ كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلًا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (العدد ٢٨).

وهناك الكثير من الحاجات الماسَّة التي ينبغي لنا الالتِفاتُ إليها. فهناك حاجاتٌ اجتماعيَّة، وحاجاتٌ اقتصاديَّة، وحاجاتٌ أخلاقيَّة، وحاجاتٌ كَنَسيَّة، وحاجاتٌ روحيَّة. ويجب على خُدَّام السيِّد المسيح الأُمناء الذين يُريدون أنْ

يُقَدِّموا يسوع إلى الآخرين تَقديمًا صحيحًا أنْ يُعالجوا هذه الأمورَ في حياتهم الشخصيَّة وفي خدماتهم. كما يجب عليهم أن يَعِظوا المؤمنينَ الآخرين، ويُعَلِّموهم، ويَنصحوهم بشأن هذه الأمور لكي يَعرفوا الطَّريقةَ المسيحيَّةَ السَّليمةَ للتَّجاوُب مع التحدِّيات التي تُواجِههم في الحياة.

لكنَّ المِفتاح لكلِّ شيءٍ هو يسوع. فهو الحقُّ (يوحنَّا ١٤: ٦). ولأنَّه كذلك، يجبُ علينا أنْ نقيسَ كلَّ ما نَفعلُه أو نُفكِّر فيه في ضَوء الحقِّ الكامن في يسوع. وقد قال المُرسَلُ البريطانيُّ السابق إلى الهند والمُتخصِّص في النشاط الإرساليِّ الأسقف "ليسلي نيوبيغن" (Lesselie Newbigin)، والذي عاش في الفترة ما بين ١٩٠٩-١٩٩٨م: "يسوع هو اليُنبوع الذي يَستَقي منه المؤمنُ فَهمَه لكلِّ خِبرته في الحياة؛ ومن ثَمَّ فهو المِعيار الذي يَستخدمُه [المؤمن] للحُكم على جميع طُرُق الفهم الأخرى".[١] لذلك، يجب علينا أنْ نُركِّز دَومًا على يسوع.

لقد كان تشارلز سبيرجن (Charles Spurgeon)، والذي عاش في الفترة ما بين ١٨٣٤-١٨٩٢م، أحدَ أعظم الوُعَّاظ على مرِّ العُصور. وقد وُضِعَتْ عِظاته المطبوعة في ثلاثةٍ وسِتِّين مُجلَّدًا. وهو وَعَظَ في كنيسة "ميتروبوليتان تابرناكل" (Metropolitan Tabernacle) لأكثر من ثلاثين سنة. وقد قال في أوَّل عِظةٍ له في تلك الكنيسة التي كانت قد بُنِيَتْ حديثًا آنذاك:

> ما دام هذا المِنبَرُ قائمًا، أقترحُ أنْ يظَلَّ مَوضوعُ خدمة هذه الكنيسة هو يَسوع المسيح. ومع أنِّي لم أخجَلْ يَومًا من القَول إنِّي من أتْباع المَذهب الكَلفينيّ، فإنَّه إذا طُلبَ إليَّ أنْ أتْلوَ قانون إيماني، فأعتقد أنه ينبغي لي أنْ أقول: "إنَّه يَسوع المسيح". فالإله الوحيد الذي يجب عليَّ أنْ ألتصقَ به وأنْ أرتبطَ به إلى الأبد، بمعونة الله، هو يسوع المسيح! فالسيِّدُ المسيح هو فَحوى الإنجيل وخُلاصته، وهو اللَّاهوتُ بجُملته، وهو التَّجسيدُ الكاملُ للحقِّ الثمين، وهو الطريقُ والحقُّ والحياة بكلِّ ما تَنطوي عليه هذه المفردات من مَعانٍ مَجيدة.[٢]

وبعدَ أكثر من ثلاثين سنة، كانَتْ هذه هي الكلماتِ الأخيرةَ التي نطقَ بها من على مِنبَر الكنيسة نفسها:

> إنَّه [أيْ يسوع] أعظمُ قائدٍ على الإطلاق. فإنْ كُنتَ تَبحثُ عن النِّعمة، أو السَّخاء، أو اللُّطف، أو العَطْف، أو الجُود، أو المحبَّة الوفيرة، فستَجدُها دَومًا فيه. لقد خَدَمتُه على مَدى أربعين سنة ويزيد، فلم أَلْقَ منه سوى المحبَّة. إنَّ خدمتي له هي حياتي، وسَلامي، وفرحي. وكم أتمنَّى أن تَختبروا ذلك بأنفسكم ولو مرَّةً واحدة! وليُساعِدْكم الله على أنْ تَبقوا تحتَ راية يسوع حتَّى ذلك اليوم.[٣]

والآن، لعلَّك أدرَكتَ سببَ أهمِّيَّة هذا الفصل في كتابٍ يَتحدَّث بشأن الفرح والألَم في حياة الخدمة. فقد نُواجِهُ الكثيرَ من الألَم في أثناء خدمتنا لله. وقد يَخيبُ رَجاؤنا بسبب قادتنا، وقد نَحزنُ أو تَنفطر قلوبُنا أو نُصابُ بخيبة الأمل والإحباط والغضب حين نرى أنَّ الأشخاصَ الذين استثْمَرنا وقتَنا وطاقتنا فيهم لا يَرتَقون إلى مُستوى توقُّعاتنا. وقد نجدُ أناسًا يُسيئون فَهمنا أو يَرفضونَنا بالرُّغم من جهودنا المُخلِصة في أن نكونَ خُدَّامًا أمناء. وقد نكتشفُ أنَّ الآخرين يُقَدِّرون خدمات زُملائنا ولا يُقَدِّرون خدماتنا نحن. وقد نُصدَمُ في بادئ الأمر بسبب تعقيدات الأمور الإداريَّة في كنيستنا، ثُمَّ تَتحوَّل تلك الصَّدمَة إلى مَرارةٍ في أفواهنا ونحن نتَساءَلُ بدهشة: "كيف يُمكن لقادةٍ مَسيحيِّين أن يَتصرَّفوا على هذا النحو؟".

وهذا كلُّه قد يَجعلُنا أُناسًا غَضوبينَ أو مُرِّي النَّفس. وعندما يَحدُث ذلك، لن يَقتصرَ الأمرُ على الأذى الذي لَحقَ بنا فحسب، بل إنَّ الرِّسالةَ التي نُقدِّمها إلى الآخرين ستَفقدُ جاذبيَّتَها أيضًا. وهذا يَعني أنَّنا فَشِلْنا في الخدمة.

لكنْ إنْ كان النَّاس يُخَيِّبون آمالَنا، فإنَّ يسوعَ لا يَفعل ذلك. فنعمَتُه أعظمُ من كلِّ خطايانا (رومية ٥: ٢٠)، وهي كافيةٌ لكُلِّ تَحَدٍّ نُواجِهُه (٢كورنثوس ١٢: ٩).

لكنَّ هذه النِّعمةَ ليسَتْ لنا فَحَسْب، بل هي الأملُ الوحيدُ للنَّجاح في خدمة هؤلاء الأشخاص الصَّعْبي المراسِ الذين دُعينا إلى تَلمذَتهم. قبل ساعاتٍ قليلة، كنَّا أنا وزَوجتي نتحدَّث بشأن صعوبة التحدِّي الذي نُواجِهُه في تعليم الصِّدق ونقاوة الدَّوافع لهؤلاء المؤمنين الجُدُد الذين نَخدمُ في وسطهم والذين يَنتَمونَ إلى بيئاتٍ فقيرةٍ جدًّا. فستَكون هناك إخفاقاتٌ كثيرة. لكنْ هناك رجاءٌ أيضًا؛ لأنَّ نعمةَ الله أعظمُ حتَّى من هذه التحدِّيات الهائلة.

قد يَتحتَّم علينا دراسة كيفيَّة الخدمة في وسط أشخاصٍ يَصْعُب التَّعامُل معهم. فيجب علينا أنْ نَتعلَّم أحكمَ استراتيجيَّات الخدمة وأكثرها فاعليَّة. كما يجب علينا دراسةُ الجوانب التي قد تُؤثِّر سلبًا في نُموِّ هؤلاء الأشخاص، كما أنَّ علينا أيضًا أن نُواجِهَ خطاياهم الدَّائمة وأنْ نُخبرَهم بالكيفيَّة التي يَنظر الله بها إلى تلك الخطايا. لكنَّ علينا أنْ نَتذكَّر دائمًا- في أثناء تَعامُلنا وحديثنا معهم- أنَّ يسوع هو رجاؤهم الوحيد.

لقد كَتَبَ صَديقي القِسُّ واللَّاهوتيُّ بيتر لِويس (Peter Lewis)، من نوتنغهام بإنكلترا، كتابًا رائعًا بعنوان "مجدُ المسيح" (The Glory of Christ). وهو يَعرضُ في مُقدِّمة الكتاب شَهادةً كان قد سَمعَها على لسان أحَد الوُعَّاظ في أثناء إجازةٍ قَضاها في ويلز. قال الواعظُ إنَّه عندما كان في الثانيةَ عشرةَ من عمره، كان لديه بطلٌ عظيمٌ في حياته، وقد كان ذلك البطلُ هو لاعبًا رياضيًّا لبَلده يُشارك في بطولات الرَّغْبي والكريكِت. كانَتْ جُدران غُرفة نوم الصبيِّ زاخرةً بِصُوَر البَطَل وقصاصاتٍ من الصُّحف عنه. وعندما صار ذلك الصبيُّ في الرابعة عشرة من عمره، أُتيحَتْ له فرصةُ التعرُّف إلى ذلك البطل الرياضيِّ شخصيًّا. فقد صارا يذهَبان لصَيد السَّمك معًا؛ الأمر الذي أتاح له أن يُراقبَه من زاويةٍ مُختلفة. وقد قال الواعظ: "لقد صِرتُ أعرفُ الرَّجلَ وليس صورته فقط".

وللأسف، لَم يكنْ ما رآه ذلك الصبيُّ مُشجِّعًا. فهو يقول: "كان حجمَه يَتضاءَلُ أمامَ عينيَّ كلَّما ازدَدْتُ قُربًا منه!" وبعد بِضعِ دقائق من حديثه بهذا

الأمر، غيَّرَ الواعظُ نَبرةَ صوته وقال: ”لكنَّ الله قادَ ذلكَ الصبيَّ المُحبَطَ إلى بطلٍ جديد. فقد مَشيْتُ مع يَسوع لخمسٍ وثلاثين سنةً الآن. وفي هذه السِّنين، كثيرًا ما خيَّبتُ أملَه؛ لكنَّه لَم يُخَيِّبْ أمَليَ قطّ! وبِمرور السِّنين، صِرتُ أَعرِفُه أكثر. وكلَّما ازدَدْتُ قُربًا منه، زادَ حَجمُه في عَينيَّ!“

أجل! إنَّ حياةَ الخِدمة قد تَجلِبُ معها الألَم. لكنَّ يسوعَ يظَلُّ رائعًا على الدَّوام. ولأنَّهُ بَطَلُنا، يُمكنِنُا أن نَفرَح!

الفصل السَّابع والعشرون

التَّلاميذُ يُصنَعون ولا يُولَدون

قال جون وسلي ذاتَ مرَّة في مَعْرِض حديثه بشأن استراتيجيَّته التَّبشيريَّة: "لقد عَقَدتُ العَزْم على عدم تَوجيه الضَّربات إلى أيِّ مكانٍ ما لَم أكنْ قادرًا على مُتابَعَة تلك الضَّربات". وهو يعني بذلك أنَّه عقدَ العَزْمَ على عدم الكرازة بالإنجيل في أيِّ مكانٍ ما لم يكنْ واثقًا بوجود الوسائل اللَّازمة لمساعدة الأشخاص الذين نالوا الخلاصَ على أنْ يَصيروا تلاميذَ ناضجين للسيِّد المسيح. ولو كان الرَّسولُ بولس على قَيد الحياة الآن لوافَقَه الرأي.

فبعد أنْ يقولَ بولُس إنَّه نادى بالسيِّد المسيح، فإنَّه يُتابعُ حَديثه بشأن الكيفيَّة التي عمل بها ذلك الأمر وسبب قيامِه به فيَقول: "... مُنْذِرِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، وَمُعَلِّمِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، بِكُلِّ حِكْمَةٍ، لِكَيْ نُحْضِرَ كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلًا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (كولوسّي ١: ٢٨). فيجبُ علينا أنْ نُنذرَ جميع النَّاس. وهذا يعني أنَّه

عندما يُوشك الناسُ على اقتراف خطإٍ ما، يجب أن نُساعدَهم في عدم اقترافِه. ويجب علينا أيضًا أن نُعلِّمَ الآخرين. وهذا لا يعني فقط أن نُقدِّم إليهم النَّصيحة أو أنْ نُعطيَهم بعضَ التَّوجيهات المُحدَّدة بشأن المشكلاتِ التي يواجهونَها الآن، بل أن نُعلِّمهم بطريقةٍ تُسهمُ في تنمية ذهنهم المسيحيِّ؛ لكي يتَمَكَّنوا من النظر إلى كلِّ شيءٍ من وجهة نَظَرٍ مسيحيَّة. بمعنًى آخر، فإنَّنا نُعَلِّمهم ما أسماه بولس كلَّ مشُورةِ الله (أعمال ٢٠: ٢٧).

ويجب القيام بهذه الخدمة "بِكُلِّ حِكْمَةٍ". وكلمة "حِكْمَة" (Sophia) "تُشيرُ لا إلى القُدرة على فَهْم شيءٍ ما فحسب (أعمال ٧: ٢٢)، بل أيضًا على العمل بمقتَضاه (كولوسِّي ١: ٩؛ ٤: ٥). فالتَّطبيق هو ما يُميِّز الحكمة عن المعرفة".[١] ولذا، يجب علينا أنْ نُنذرَ النَّاس ونُعلِّمهم بطريقةٍ عمليَّة. فأنا غير راضٍ عن تجزئة اللَّاهوت إلى لاهوتٍ عقائديٍّ ولاهوتٍ تَطبيقيّ. فيجب أنْ يكونَ اللَّاهوتُ بمُجمله تطبيقيًّا، كما يجب أن يقودَنا اللَّاهوت إلى التَّجاوُب مع ما نتعلَّمُه بأفعالٍ تُمجِّد الله. وهذا هو سببُ قَولنا إنَّ اللَّاهوت يجب أنْ يُفضيَ إلى تَسبيح الله.

في ضَوء ذلك، يجب علينا أنْ نُنذِرَ النَّاسَ ونُعلِّمَهم ونحن نَضَعُ نُصبَ أعيُننا أنَّنا نريدُ أنْ "نُحْضِرَ كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلًا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ". والكلمة المُترجَمة "كاملًا" وهي "تيليوس" (telios) "تَحتمل العديدَ من المعاني مثلَ النُّضج والكَمال".[٢] والمقصودُ هنا هو أن نُعِدَّ مُؤمنين أقوياء يَعرفون كلمةَ الله ويَعيشون بمقتَضاها.

ويُمكنُنا أنْ نَرى أنَّ فكرةَ تأهيل مُؤمنين ناضجين في الكنيسة مُوَضَّحةً تَوضيحًا جيِّدًا في رسائل العهد الجديد رُغم الإقرار بوجود عَقَباتٍ كثيرةٍ في الطَّريق قَدْ تُعثرُ بعض المؤمنين. والآية التي ذَكَرْناها آنفًا تتحدَّث بشأن الإنذار والتَّعليم. وهذا هو ما تَفعلُه جميعُ رَسائل العهد الجديد. فَكتبَة هذه الرَّسائل يُوضِحون الطريقةَ المسيحيَّةَ في مُعالجة بعض القضايا الشائكة. وهُم يَحُضُّونَ المؤمنين على استخدام هذه الطريقة. وأحيانًا، قد يلْجأُ الكتبَةُ إلى صيغة الأمر، أوِ الحَثِّ، أوِ التَّهكُّم. وهُم يَستَعينون بالعهد القديم، والضَّمير، وتعاليم السيِّد المسيح، بل إنَّهم يستعينون

حتَّى بالمؤلَّفات غير المسيحيَّة. وهم يَدْعونَ أيضًا الكنيسةَ إلى تأديب المؤمنين الذين لا يُطيعون هذه الوصايا، وإلى تَوبيخهم في حال تَوانيهم عن مُعالجة الخطيَّة في الكنيسة، التي هي جسد السيِّد المسيح.

وقد كان الرَّسول بولُس في بعض الأحيان مُتَرفِّقًا بهم "كما تُربِّي الْمُرضِعَةُ أَوْلاَدَهَا" (١تسالونيكي ٢: ٧). وهو يُوضِحُ أحدَ جوانب ذلك التَّرفُّق في الآية التي تَليها إذ يقول: "هكَذَا إِذْ كُنَّا حَانِّينَ إِلَيْكُمْ، كُنَّا نَرْضَى أَنْ نُعْطِيَكُمْ، لاَ إِنْجِيلَ اللهِ فَقَطْ بَلْ أَنْفُسَنَا أَيْضًا، لأَنَّكُمْ صِرْتُمْ مَحْبُوبِينَ إِلَيْنَا" (العدد ٨). وهذا يَعني أنَّه تَخَلَّى عن حقِّه في الخُصوصيَّة لكي يَكونَ مُتاحًا لَهم في كلِّ وقت. كما أنَّه يقول إنَّه عامَلَهم كأب: "... كَمَا تَعْلَمُونَ كَيْفَ كُنَّا نَعِظُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ كَالأَبِ لأَوْلاَدِهِ، وَنُشَجِّعُكُمْ، وَنُشْهِدُكُمْ لِكَيْ تَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ للهِ" (العَدَدان ١١-١٢).

لكنْ كما سنَرى في الفصل القادم، فإنَّ إعدادَ تلاميذَ ناضجين للسيِّد المسيح لَهُو مَهَمَّةٌ شاقَّة. بل إنَّها شاقَّة جدًّا حتَّى إنَّ الكنيسةَ عُمومًا تَتجنَّبُها. فقد صار القادةُ يُفكِّرون تفكيرًا تجاريًّا في كلِّ ما يَفعلونه، وهُم يريدون أن تكونَ لديهم أعدادٌ غَفيرةٌ من النَّاس وأنْ يَضَعوا توقُّعاتٍ كبيرةً للنُّموِّ دُونَ أنْ يأخذوا في الحسبان أنَّ إعدادَ تلاميذَ ناضجين للسيِّد المسيح هو عمليَّةٌ شاقَّةٌ وتَنطوي على عقباتٍ كثيرة في الطَّريق. ففي وقتنا الحاضر، قد نَجدُ برامجَ جَذَّابةً تَرمي إلى الوصول إلى ملايين النَّاس من طريق التَّبشير والتَّلمذة. وبلا شكّ، فإنَّ أصحابَ رؤوس الأموال يُعجَبون بهذه المشروعات ويَدعمونها ماديًّا. لكنْ أخشى أنَّ هذه البرامجَ أو الخُطط لا تأخذ في الحسبان العملَ المُضْنيَ الذي تَتطلَّبه عمليَّةُ التَّلمذة من خلال التجسُّد- أيْ من خلال انصهار القادة مع أبنائهم الروحيِّين وخَوْضِ عمليَّةِ النُّموِّ الروحيِّ معهم.

ربَّما لاحظْتَ أنَّ عنوانَ هذا الفصل هو "التَّلاميذُ يُصنَعون ولا يُولَدون".[٣] وقد أخذْتُ هذا العنوان عن كتابٍ كلاسيكيٍّ عن التَّلمذة لمؤلِّفه "والتر هنريكسِن" (Walter Henrichsen). وهناك كتابٌ كلاسيكيٌّ آخرُ بشأن

الموضوع بعنوان "فنُّ التِّلمذةِ المَنسيّ" (The Lost Art of Disciple Making) لمؤلِّفه "ليرُوي إيمز" (Leroy Eims).[٤] وفي الحقيقة أنَّ فنَّ التِّلمذةِ هو فنٌّ مُهمَلٌ يَنبغي لنا أن نَهتمَّ به ثانيةً.

ذاتَ يوم، كُنت أتحدَّث مع راعي كنيسةٍ يَخْدمُ في منطقةٍ نائيةٍ في سريلانكا. وكان مِحوَرُ الحديث هو الصِّراعَ لتَأهيل المؤمنين الجُدُد ليَصيروا مؤمنين أتقياء. وقد تحدَّثنا بشأن أهمِّيَّة شَرْح نَمَط الحياة المسيحيَّة وتَوضيح الأمور غير المقدَّسة التي نراها في الكنيسة. وقد قال لي هذا القسُّ إنَّ غالبيَّةَ رُعاة الكنائس يَتجنَّبون القيامَ بهذا الأمر اليوم لأنَّه يَقودُ إلى أسئلةٍ يَصعُبُ الردُّ عليها. فالنَّاس يأتون إلى السيِّد المسيح لأنَّه يُسَدِّد احتياجاتهم، وليس لأنَّهم يريدون أن يَتقَدَّسوا. فإنْ تَحَدَّثنا بمواضيعَ مُعيَّنةٍ تتعلَّقُ بالقداسة، فسيَنْزَعجون ويَتركون الكنيسة. لذلك، فإنَّ رُعاةَ الكنائس يَتجَنَّبون التَّطرُّقَ إلى مِثْل هذه الموضوعات. لكنْ إذا سَمَحْنا لهذا الأمر بالاستمرار، فستَصيرُ الكنيسةُ جسدًا دونَ رُوح.

ويجب علينا أن نتذكَّر دومًا أنَّ النُّضْجَ لا يَقتصرُ على فئةٍ محدودةٍ من النَّاس. فالهدفُ هو إحضارُ "كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلًا فِي المَسِيحِ يَسُوعَ" (كولوسِّي ١: ٢٨). وتَرِدُ عبارة "كُلَّ إنسانٍ" (panta anthropon) ثلاثَ مَرَّاتٍ في النصِّ اليونانيِّ وبعض التَّرجمات. وفي الواقع العمليّ، قد لا يَصِلُ جميعُ المؤمنين إلى مَرحلة النُّضْج كما هو مُتوقَّعٌ منهم. لكنَّ الحالَ يجب ألَّا تكون كذلك. فلَيس هناك عذْرٌ مَقبولٌ لهذا الأمر. ويجبُ علينا ألَّا نستريحَ قبل أنْ نُعدَّ تلاميذَ ناضجين روحيًّا. وهذه مُشكلةٌ تُواجِهُها الكنائسُ الكبيرةُ ما لَم تَكنْ هناك محاولاتٌ جادَّةٌ لضَمِّ كلِّ مؤمنٍ في الكنيسة إلى مجموعةٍ صغيرة. فبِخِلاف ذلك، سيَصيرُ من السَّهل على النَّاس أنْ يأتوا إلى الكنيسة كمُستَهلكين. وفي هذه الحالة، سيَضيعونَ في الزِّحام ويصيرون مُجرَّد أشخاصٍ مَجهولي الهُويَّة يأتون لحضور البرامج التي تُقدِّمها الكنيسة.

ولا شكَّ في أنَّ الأعدادَ الكبيرةَ مُهمَّة لأنَّها تُمثِّل الناسَ الذين جاءوا استجابةً

لسَماعهم رسالةَ الإنجيل. وهذا هو السَّببُ في أنَّ سِفْر أعمال الرُّسل يَذكرُ مَرَّتين أعدادَ الأشخاص الذين انضَمُّوا إلى الكنيسة (٢: ٤١؛ ٤: ٤). لكنْ يجب ألَّا يَقتَصرَ تَركيزُنا على الأعداد فحَسْب، بل يجبُ علينا أنْ نَحرصَ على حصول كلِّ مؤمنٍ على فرصةٍ للنُّموِّ. فكلُّ فَردٍ مُهمٌّ عند الله؛ ومن ثَمَّ فهو مُهمٌّ عند الكنيسة المحلِّيَّة أيضًا.

لاحَظَ أحدُ خُدَّام الربّ، في أثناء زيارته لعائلةٍ من رَعيَّته، أنَّ ثَمَّةَ الكثيرَ من الأبناء في البيت، فسأل الأمّ: "كم ابنًا لديكم؟" فابتدأت الأمُّ في عدِّ أبنائها على أصابعها قائلةً: "جون، ميري، لوسي، ديڤيد، ..." فقاطَعَها خادمُ الربِّ قائلًا: "لا حاجة لِذِكْر أسمائهم، أريدُ فقط أنْ أعرف عددهم". فأجابتْه الأمّ: "إنَّ لهم أسماءً، لا أرقام!".

وهكذا، يجب الاعتناءُ بكلِّ فَرْد. ويجب ألَّا يَهدأَ لنا بالٌ قبل أن نفعل ذلك. وفي أثناء نُموِّ الكنيسة أو مجموعة المؤمنين، يجبُ وَضْع الخُطط والاستراتيجيَّات التي تَضمَن عدم إهمال أيِّ فَرد. فإنْ لَم نَفعَلْ ذلك، قد تدَّعي الكنيسةُ أنَّها حقَّقتْ نُموًّا؛ لكنَّها في حقيقةِ الأمر لم تَنْمُ بالمَعنى الكتابيِّ للكلمة؛ بل كلُّ ما في الأمر هو أنَّها صارَتْ بَدينة!

إنَّ الفعلَ الذي استخدَمه بولُس لوَصْف الغاية من التَّلمذة هو فعلٌ مُهمّ. فهو يقول: "... لِكَيْ نُحْضِرَ كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلاً فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (كولوسّي ١: ٢٨). وقد أشارَ العديدُ من مُفسِّري الكتاب المُقدَّس البارزين، بمَن فيهم "أف. أف. بروس" (F. F. Bruce) و"پيتر أوبراين"، إلى أنَّ بولس يتحدَّث هنا بشأن المجيء الثاني للسيِّد المسيح. فنحن نَعمَلُ من أجل تحقيق هدفٍ لن يتمَّ إلَّا في نهاية الدَّهر. وسيَكونُ فَرَحُنا عظيمًا في أنْ نقدِّمَ ثَمرَ تَعَبنا إلى الله في يَوم الدَّينونة. ففي ذلك اليوم، سيَكونُ الأشخاصُ الذين استثمَرنا وقتَنا وطاقَتَنا فيهم شَبيهين بمؤمني فيلبِّي الذين وصفَهُم الرَّسولُ بولس بأنَّهم "سُرُورِي وَإِكْلِيلِي" (فيلبِّي ٤: ١).

عندما كانَتِ ابنتي طفلةً صغيرة، كُنتُ أصْحَبُها إلى رياض الأطفال على

درَّاجتي كُلَّ صباح (الدرَّاجاتُ هي وسائطُ النَّقل الاقتصاديَّة التي تَستخدمُها الطبقةُ المتوسِّطة في سريلانكا). وكثيرًا ما كُنتُ أرى سيِّدةً تُحضرُ أطفالَها الأربعة إلى المدرسة في سيَّارتها. وعندما كان الأطفالُ يُغادرون السيَّارة، كان كلٌّ منهم يُمْسكُ من أصابعها إلى حين وصولهم إلى باب المدرسة. وأعتقدُ أنِّي أودُّ أن أذهبَ إلى السَّماء بهذه الطريقة: بأنْ أصحَبَ معي أشخاصًا عديدين استثمرْتُ حياتي فيهم.

لاحِظْ عددَ المَرَّات التي يَرِدُ فيها الحديث بشأن المُكافآت المُستقبليَّة في كتابات بولُس. وفي كولوسِّي ١: ٢٧، كان بولس قد تَحدَّثَ بأنَّ السيِّدَ المسيحَ فينا هو "رَجاءُ المَجْد". والاختبار الرائع الذي لنا في السيِّد المسيح ما هو إلَّا تَذوُّقٌ مَبدئيٌّ لمجد الله. وكثيرًا ما تَحدَّث يسوع أيضًا بشأن السَّماء والجحيم. بل في حقيقة الأمر أنَّ دَعوَتَه الأساسيَّةَ إلى التَّلمذة احتَوَتْ على العديد من الشَّواهد عن الدَّينونة الأخيرة. فبَعدَ أنْ تَحَدَّث يسوع بشأن إنكار الذَّات، وحَمْلِ الصَّليب، واتِّباعه (مرقس ٨: ٣٤)، فقد أشارَ إلى الدَّينونة في الآيات الأربع التي تَليها. ففي مرقس ٨: ٣٥، يقول يسوع إنَّ مَن يُحاولُ أنْ يُخَلِّصَ نَفسَهُ يُهلكُها؛ وهذا يُشيرُ إلى الهلاك الأبديِّ في يوم الدَّينونة. وهكذا هي الحالُ أيضًا عندما تَحدَّث بشأن رِبْح العالَم كُلِّه وخُسران الذَّات في الآيتين ٣٦-٣٧. وفي الآية ٣٨، تَحَدَّثَ يسوعُ بوضوح بشأن مجيئه ثانيةً وبشأن الدَّينونة التي سَتَحِلُّ على الأشخاص الذين استَحوا به. وهكذا، فإنَّ التطلُّعَ إلى السَّماء والخوفَ من الجحيم هُما حافزان مُهِمَّان لقَبول عَرض الخلاص، والنموِّ في النِّعمة، وعَيشِ حياةِ الخدمة.[٦]

هناك قصَّةٌ قديمةٌ عن رجلٍ رأى في حُلُم امرأةً تَحملُ مِشعَلًا وإبريقَ ماء. كان المشعلُ سيُستخدَم لحَرْق مُتَع السَّماء؛ في حين أنَّ إبريقَ الماءِ سيُستخدم لإطفاء نيران جَهَنَّم.[٧] والقصَّةُ تُعَلِّم أنَّه من طريق التَّخلُّص من مثل هذه الدَّوافع الخاطئةِ (وَفْقًا للقصَّة) المُتعلِّقة باشتهاء السَّماء والخَوف من الجحيم، يُمكنُ للناسِ أن يُحِبُّوا

الله لذاته. لكنَّ هذا التَّعليمَ يُناقضُ تعاليمَ الكتابِ المقدَّس. فالسَّماء والجَحيم دافِعانِ مَشْروعانِ لِعبادتِنا وطاعتنا لله.

مُنذ فترةٍ قصيرة، تَحدَّثتُ إلى زَوجات عشرةٍ من العاملين في هيئة "شباب للمسيح". وكان مَوضوع الحديث هو كُلْفَةَ خدمةِ الشَّباب والمكافأة السماويَّة لهذه الخدمة. وفي الحقيقة أنَّ العاملين في الهيئة في سريلانكا يَتقاضَون رَواتب شهريَّة مَعقولة في ضَوء المعايير المحلِّيَّة؛ بل إنَّها أعلى من رواتب العديد من الهيئات المسيحيَّة الأخرى. لكنْ لو أنَّ موظَّفينا عملوا في شركاتٍ تجاريَّةٍ أو في إحدى هيئات الإغاثة الدوليَّة الكثيرة التي جاءت إلى سريلانكا بعد الإعصار الذي ضَربَها، لَتَقاضَوا رَواتب أعلى بكثير. وحتَّى في الأوساط المسيحيَّة، فإنَّ خُدَّام الشباب لا يَتبَوَّأون مَناصبَ كَنَسيَّةً مَرموقة. فبَعدَ خِدمتي لثَلاثين سنة مع قطاع الشباب، ما زال النَّاس يسألونَني متى سأنضمُّ إلى الخدمة!

وقد قالَتْ زَوجة أحدِ خُدَّام الهيئة إنَّ ما يقولُه بعضُ أقربائِها يَجعلُها تَشعُر بالخجل والفشل في الحياة. والسَّبب في ذلك هو أنَّ عائلتَها لا تَمتلكُ الكثيرَ من الأشياء التي تَقترنُ عادةً بالرَّفاهيَة والنَّجاح. لكنِّي ذَكَّرتُ تلك السيِّدةَ أنَّ الكتاب المقدَّس يَتحدَّثُ كثيرًا بشأن العار الذي نَشترك فيه مع السيِّد المسيح، وأنَّ كلمةَ الله تُقَدِّم ذلك العارَ في ضَوء الكرامة التي ستُعطى إلينا في يوم الدَّينونة. وقد تحدَّثنا بهذا الأمر في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب.

كذلك، فقد شَارَكْتُ مع تلك السيِّدة التَّشبيه الذي ذَكَرتُه سابقًا عن أولئك الذين سيَذهبون إلى الجحيم في مركبةٍ مُريحة؛ في حين أنَّ البعضَ سيَذهبون إلى السَّماء في مَركبةٍ غيرِ مُريحةٍ بتاتًا. فمن وجهة نظرٍ سَماويَّة، فإنَّ تَوصيلَ رسالة الخلاص الأبديِّ إلى الشباب لكي تكونَ لديهم حياةٌ طويلةٌ يَقضونَها في خدمة الله هو عملٌ قيِّمٌ جدًّا رُغم أنَّ العالَم لا يَنظرُ إليه بهذه الطريقة.

ولو عَرَفنا قيمةَ مُساعدة الناس على الاستعداد لبَيتِهم الأبديِّ، لأدرَكْنا أنَّ الثَّمنَ الذي نَدفعُه للقيام بهذه الخدمة هو ثَمنٌ بَخْسٌ. لذلك، ما أحْوَجَ الكنيسة

إلى إعادة الوعظ عن السَّماء والجحيم إلى مَنابِرها! فَمِن خلال ذلك، ستُشَجِّعُ الكنيسة الكثيرين على السَّير في طريقِ الطَّاعة التَّامة للسيِّد المسيح وتقديم الخدمة المُضحِّية للبَشريَّة.

الفصل الثَّامن والعشرون

التَّعبُ في إعداد التَّلاميذ

يقول المؤلِّف "كَنت هيوز" (Kent Hughes) في كتابٍ مفيدٍ جدًّا بعنوان "انضباطاتُ إنسانٍ تقيّ" (The Disciplines of a Godly Man)، : "يُقال إنَّ العالَمَ يُديرُه أشخاصٌ مُتعَبون؛ وهذا صحيح! فنحن نَرى أنَّ أمريكا يُديرُها قادةٌ سياسيُّونَ مُتعَبون، وأنَّ الحروبَ تُكسَبُ بواسطة قادةٍ عسكريِّين أعياهُم التَّعب، وأنَّ السَّلامَ يتحَقَّق على أيدي دبلوماسيِّين مُنهكين، وأنَّ القوانينَ يَسنُّها مُشرِّعون تَعبوا في دراستها". وهو يقول وبالطَّريقة ذاتها، فإنَّ "العالَم المسيحيَّ يَخدِمُه أُناسٌ مُتعَبون... أَرِني كنيسةً عظيمةً فأُريكَ بعض الأشخاص المُتعَبين".[1]

ولو كان الرَّسول بولُس على قَيد الحياة الآن لوافَقَه الرأي. فبعدَ أنْ يَصِفَ بولس خدمة التَّلمذة، فإنَّه يقول على الفَور: "الأَمْرُ الَّذِي لأَجْلِهِ أَتْعَبُ أَيْضًا مُجَاهِدًا، بِحَسَبِ عَمَلِهِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيَّ بِقُوَّةٍ" (كولوسِّي ١: ٢٩). والفعلُ المترجَم

"أتْعَب" في اللغة اليونانيَّة هو "كوپياو" (kopiao)، يُمكنُ أن يعنيَ "يعمَل، أو يعمَلُ جاهدًا، أو يبذُلُ جَهدًا، أو يَكدَح، أو يَكدُّ".[٢] ويقول بولُس في مَوضع آخر: "فَإِنَّكُمْ تَذْكُرُونَ أَيُّهَا الإِخْوَةُ تَعَبَنَا وَكَدَّنَا، إِذْ كُنَّا نَكْرِزُ لَكُمْ بِإِنْجِيلِ اللهِ" (١تسالونيكي ٢: ٩؛ انظر أيضًا ٢كورنثوس ١١: ٢٧). ويقول كَنت هيوز إنَّ "دي. أل. مودي" (D. L. Moody) صَلَّى ذات يوم الصَّلاة الآتية قبلَ أن يَنام: "يا رَبُّ، أنا مُتْعبٌ! آمين". ويقول أيضًا: "وَيُقال إنَّ مارتن لوثر كان يَعمل بِجِدٍّ كبيرٍ وينام بسرعةٍ مُذهلة من فَرْطِ التَّعب، وإنَّه لَم يَتوَفَّر لديه الوقت الكافي لتَغيير أغطية السَّرير لمُدَّة عامٍ كامل!"[٣]

لكنْ ما الذي يَجعلُ عمليَّة إعداد تلاميذَ للسيِّد المسيح مُتعِبةً إلى هذا الحدّ؟ أعتقدُ أنَّ الشيء الأوَّلَ الذي ينبغي لنا أن نَقوله هو أنَّ للحياةَ العاديَّة المُتوازنة، التي تَخلو من إعداد تلاميذَ للسيِّد المسيح، جوانبَها القاسية والمتعبة. والحياةُ المتوازنةُ عند المؤمن لا تعني "القيام بكلِّ شيءٍ باعتدال"؛ بل تَعني "إطاعة الله في كلِّ شيء". لذلك، يجب على الأشخاص الذين يَسعَون إلى عَيشِ حياتهم كمؤمنين مُتوازنين أن:

- يَحرصوا على تخصيص وقتٍ للتأمُّل والعبادة كلَّ يوم؛
- يَلتقوا بانتظام بمؤمنين آخرين للشَّركة معًا ولتَحريض الواحد للآخر على المحبَّة والأعمال الحَسَنة (عبرانيِّين ١٠: ٢٤-٢٥)؛
- يَفوا بواجباتهم والتزاماتهم تُجاه عائلاتهم؛
- يُحسنوا القيامَ بأعمالهم أو أداء واجباتهم الدراسيَّة؛
- يَتواصَلوا مع المُجتمع من حَولهم (ولا سيَّما مع جيرانهم)؛
- يتعرَّفوا إلى العالَم من حَولهم؛
- يَقضوا بعضَ الأوقات المرحة (ولا سيَّما مع العائلة)؛

- يُمارسوا التمرينات الرياضيَّة.

فإنْ أضَفْنا إلى هذا كلِّه خدمةَ إعدادِ تلاميذٍ للسيِّد المسيح، سيَصيرُ التَّعبُ أمرًا لا مفرَّ منه. فعندما نَعملُ جاهدين لإعداد تلميذٍ ناضجٍ للسيِّد المسيح، فهناك الكثير من الجوانب التي تحتاج إلى الصَّقل والتَّهذيب. وقد كان الجزءُ الأكبرُ من خدمتي المسيحيَّة يُركِّز على المؤمنين الجُدُد. ولأنَّ هؤلاء لا يَعرفون أيَّ شيءٍ عن المسيحيَّة، كانَتِ الكثير من القِيَم المسيحيَّة غائبةً عن حياتهم وعن نظرَتهم إلى الحياة. كما أنَّ آراءهم عنِ الله والأخلاق تَختلف عن آرائنا. والكثيرون منهم يأتون بآلامٍ وجروحٍ في حياتهم. لذلك، فإنَّ الأمرَ يَتطلَّب عملًا مُضنيًا قبلَ أن يصيروا مؤمنين ناضجين. وأعتقدُ أنَّ الحالَ تَزدادُ سوءًا في الغَرب أيضًا. فالكثيرون ممَّن يَهتَدون إلى السيِّد المسيح لا يَعرفون شيئًا عن المسيحيَّة ولا عنِ النَّهج المسيحيِّ للحياة.

وفي عالم اليوم، قد تَشتمل عمليَّة إعداد تلاميذ للسيد المسيح على العديد من الأنشطة:

- اللِّقاءات الشخصيَّة المُنتظَمة تُساعدنا في تلبية حاجات الآخرين الشخصيَّة وتحديد طرق التَّعامُل مع المشكلات التي يواجهونَها في الحياة.
- يجب علينا أن نَتيقَّنَ من أنَّهم تَعلَّموا مبادئَ المسيحيَّة، وأنَّهم قدِ اكتَسَبوا معرفةً جيِّدةً في الكتاب المقدَّس. وفي بعض الأحيان، يُمكنُ القيام بذلك في مجموعاتٍ صغيرة.
- يجب علينا أنْ نزورهم عند الضَّرورة أيضًا (كما هي الحال عند شعورهم بالإحباط أو الفشل، أو عند مرضهم، أو عندما يشعرون بالفتور الروحيّ). وقد تدعو الحاجة لأن نوجَدَ معهم في أيَّامٍ مُعيَّنةٍ من حياتهم (مثل يوم مَعموديَّتهم، أو عيد مَولدهم، أو يوم تَخرُّجهم).

وهكذا، إنْ أردْنا تَوصيل الحقِّ بشأن القضايا الوثيقةِ الصِّلةِ بظروف النَّاس، فإنَّ أفضلَ طريقةٍ للقيام بذلك، في نظري، هي بأنْ نكونَ حاضرين معهم. وقد قال بولس لشيوخ كنيسة أفسس: "أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ... كَيْفَ لَمْ أُؤَخِّرْ شَيْئًا مِنَ الْفَوَائِدِ إِلَّا وَأَخْبَرْتُكُمْ وَعَلَّمْتُكُمْ بِهِ جَهْرًا وَفِي كُلِّ بَيْتٍ... لذلكَ اسْهَرُوا، مُتَذَكِّرِينَ أَنِّي ثَلاَثَ سنينَ لَيْلًا وَنَهَارًا، لَمْ أَفْتُرْ عَنْ أَنْ أُنْذِرَ بِدُمُوعٍ كُلَّ وَاحِدٍ" (أعْمال ٢٠: ١٨، ٢٠، ٣١). وهذا يُرينا أنَّ بولسَ كان يُنْذِرُ كلَّ واحدٍ بدموعٍ لأنَّه كان قريبًا منهم. فعندما نَقتربُ من الناس، سنَتعرَّف إلى المشكلات التي يُواجِهونَها ونَبحثُ جاهدين عن أنجع الطُّرُق لتَطبيق الحقِّ الكتابيِّ على حياتهم.

ومع أنِّي تَعبْتُ طوال حياتي في الخدمة، ما زِلْتُ أشعرُ بالانتعاش والحماسة اللَّذين شَعَرتُ بهما عندما بدأتُ الخدمةَ قبل ثلاثين سنة. وأعتقدُ أنَّ أحدَ أسباب هذا الانتعاش وهذه الحَماسة هو أنِّي واظَبتُ على دراسة الكتاب المقدَّس لكي تكونَ لديَّ رِسالةٌ مُنعشةٌ وَمُشجِّعة من الله أقدِّمُها إليهم في ظروفهم الخاصَّة. ولأنَّ الله دَعاني إلى مُساعدة الآخرين في النُّموِّ رُوحيًّا، فيتحتَّمُ عليَّ قضاءُ وقتٍ طويلٍ في الدِّراسة لكي أعلِّمَهم. ولَطالَما كان إيجادُ الوقت اللَّازم للدِّراسة في وَسْط المُتطلِّبات الكثيرة للخدمة أمرًا شاقًّا أسهَمَ في تَعبي. لكنَّ الأمرَ نفسَه الذي يُسهمُ في تَعبِنا هو الذي يُسهمُ في إنعاشِنا. فعندما تُخصِّصُ وقتًا لدراسة الكتاب المقدَّس فإنَّ الله يُغَذِّيكَ، ويُبَكِّتُكَ، ويُشجِّعُكَ، ويُلهِمُكَ، ويُضْرِمُ فيكَ الحماسةَ اللَّازمة كي تُعلِنَه للآخرين لأنَّه كلمةُ الله. وما أشبَهَ هذا بإعادة شَحْنِ بطاريَّةٍ فارغة.

كان "جورج ميلَر" (George Mueller)، وقد عاش في الفترة ما بين ١٨٠٥-١٨٩٨م، قد تَقاعَدَ من إدارة دُور الأيتام التي أسَّسَها في السَّابق، ثُمَّ تَحوَّل إلى التَّبشير التَّجواليِّ وهو في سنِّ السَّبعين. وقد طاف في كلِّ العالَم إلى أنْ بَلغَ السابعةَ والثمانين من العُمر، ثُمَّ رقدَ وهو في الثالثة والتِّسعين. وعندما سُئِلَ عن سرِّ حياته المَديدة، كان أحدَ الأسباب الثلاثة التي قدَّمها هو: "محبَّتُه من نحو الكتاب المقدَّس؛ لأنَّه كان يَبُثُّ قوَّةً مجدِّدةً دائمةً في كيانه بأسره"

(أمثال ٣: ٢، ٨؛ ٤: ٢٢).[٤] وهكذا، بالرُّغم من تَعبه، فقد كان مُعافًى! فعمليَّة إعداد تلاميذَ للسيِّد المسيح تُرغمُك على التعمُّق في كلمة الله؛ وهذا- بِدَوره- يُجدِّدُ حَيويَّتك وطاقتك!

وقد تَبيَّن لي أنِّي أشعُر بالتَّعب أحيانًا لأنِّي أفعلُ شيئًا لا يَجدُرُ بي فِعلُه. لكنِّي أجِدُ صعوبةً بالغةً في قَول لا. وما يزيد الأمرَ سوءًا هو أنَّ قَول لا في ثقافتنا هو إهانة كبرى. لذلك، كان ينبغي لي أنْ أطلبَ المساعدةَ من مجلس الإدارة، ومن مجموعة المؤازرة التي أنتمي إليها، ومن زَوجتي، لكي أتمكَّنَ من وَضْع بعض القواعد الصَّارمة بشأن الدَّعوات التي يُمكنُني قبولها والدَّعوات التي ينبغي لي رَفْضُها. وقد ساعدَني ذلك في قَول لا، وفي تَوفير بعض الحماية لي من الأشخاص الذين قد يَتَّهمونَني ظُلمًا بِرَفْض دعوتهم.

وهناك شيءٌ آخر يجب علينا أنْ نَتذكَّرَه وهو ضرورةُ التخلُّص من الأعمال التي لا ينبغي لنا أن نقومَ بها في حياتنا. كما يجب علينا أن نَعملَ مع أشخاصٍ نَتحمَّلُ المسؤوليَّة قدَّامهم، وأنْ نَضَعَ بعضَ الخطوط العريضة لِما ينبغي فِعْله وما لا ينبغي فِعْله. وقد ساعدَني مجلسُ الإدارة على اتِّخاذ قرارٍ بعدم الاشتراك في اللِّجان عُمومًا حيث إنَّ خدمتي خارج نطاق هيئة "شباب للمسيح" والكنيسة يجب أن تكونَ في مجال التَّعليم وليس في اللِّجان. وأعتقدُ أنَّه كلَّما زادَ وقتُ خِدمتنا، زادَتِ الحاجةُ إلى التخلُّص من الأعمال الثانويَّة.

من جهةٍ أخرى، يجب علينا أن نَتعَلَّم تَفويض المَهامّ- تمامًا كما تَعلَّم موسى من حَميه (يثرون والد زَوجته) عندما أوشَكَ على الانهيار تحتَ عِبْء الاهتمام بِبَني إسرائيل (خروج ١٨). فالقادةُ الأكْفاء لَيسوا مُضطَرِّين إلى الاعتناء شخصيًّا بكلِّ فَردٍ في المجموعة التي يقودونَها. لكنْ يجب عليهم أنْ يَتيَقَّنوا من أنَّ هناك مَن يَعتني بكلِّ فَردٍ من هؤلاء. ويجب عليهم أيضًا أن يُفَوِّضوا بعضَ المهامِّ، أو غالبيَّتها، إلى الآخرين. فالأشخاص الذين يقومون بأعمالٍ يُمكنُ لآخرين القيام بها، يُمكنُ أن يُعانوا مِمَّا يُسمَّى "عُقدَة المَسِيَّا غير الصحِّيَّة" (The unhealthy Messiah complex).

فهُمْ يَحْصُلون على الشُّعور بالرِّضا والإنجاز من خدمتهم وليس من الله. وبلا شكّ، فإنَّ القائدَ الذي يُواظِبُ على تَلمذة آخرين لا بُدَّ أنْ يجِدَ من بين الأشخاص الذين تَلمَذَهم مَتَطوِّعين قادرين على تَخفيف بعض الأعباء عنه.

في الوقت نفسه، مهما كان جدولُ أعمالنا مُزدحمًا، فيَجبُ علينا أن نأخذَ قسطًا من الرَّاحة (Sabbath). وعندما نفعلُ ذلك فإنَّنا نفعَلُه بدافع طاعتنا لله. وحيث إنَّ الله قال إنَّ هذه الرَّاحة جيِّدة لنا، فمن المؤكَّد أنَّها كذلك. فإحدى فوائد الرَّاحة هي أنَّها تُنعِشُنا وتُساعدُنا في تَرتيب أولويَّاتنا ترتيبًا صحيحًا؛ مُركِّزين في المقام الأوَّل على الله الذي يَعملُ فينا ولأجلنا. وعندما نتوقَّفُ عن العمل لبَعض الوقت، فإنَّنا نُؤكِّد هذا المبدأ الإلهيَّ ونَتعَلَّم أن نثقَ بالله وليس بقُدراتنا.

لكنْ إن نَجَحنا في قَولِ "لا" في المواقف التي تَستَوجبُ ذلك؛ وإن تَخَلَّصْنا من المهامِّ الثانويَّة، وإن فَوَّضْنا المهامَّ للآخرين بحكمَة، وإنْ أخَذْنا قسطًا من الرَّاحة، فلماذا ما زِلنا نُعاني من التَّعَب؟ أعتقدُ أنَّ أحدَ أسباب ذلك هو أنَّ حاجاتِ الأشخاص الذين نَهتَمُّ بأمرهم غالبًا ما تَظهَرُ في الأوقات غير المُتوقَّعة وغير المُناسبة. فقد تَظهَرُ حاجةٌ ماسَّةٌ عند أحد الأشخاص الذين نَرعاهم روحيًّا في وَقتٍ نُجاهِدُ فيه لتَحضير عِظة. وقد تدعو الحاجة إلى رؤية ذلك الشخص فَورًا. فإنْ فعَلْنا ذلك، يجب علينا ألَّا نُهمل في تحضير تلك العِظة؛ بل علينا أنْ نبذلَ قصارى جَهدنا عند إعلان كلمة الله. وهكذا، قد نجدُ أنفسَنا في نهاية المطاف مُتعَبين لأنَّه إلى جانب التَّلمذة، كان ينبغي لنا أن نُضَحِّي بوقت راحتنا من أجل إعداد عِظةٍ جيِّدة.

كانَتِ الحالاتُ الطَّارئة العائليَّة من الأشياء التي عَقَدتُ العَزمَ على التَّضحية بوقتي في سبيل الاهتمام بها. فأفرادُ عائلتنا هم مسؤوليَّتُنا الرئيسةُ في الحياة. لذلك، مع أنَّنا قد نكونُ مُتعَبين، فإنَّ علينا أنْ نَعتنيَ بهم. وقد حاوَلْتُ أن أُخبرَ أبنائي بأنِّي مهما كُنتُ مُتعبًا، فإنِّي أحبُّ أنْ أصْحبَهم بسيَّارتي إلى أيِّ مكانٍ يُريدونه. وأعتقدُ أنَّهُم قَدَّروا ذلك كثيرًا.

اليومَ هو السَّبت، وقد كُنتُ مشغولًا جدًّا. فإلى جانب بعض المواعيد المُهمَّة، كان عليَّ أنْ أُنْهيَ كتابةَ هذا الفَصل لأنَّ موعدَ تَسليمه قد حان. لكنَّ ابني عادَ إلى البيت ومعه شابَّان مراهقان من المدينة التي يَعملُ فيها معَلِّمًا في إحدى المدارس. وهو يَخدمُ أيضًا مُنَسِّقًا مُتَطوِّعًا في هيئة "شباب للمسيح". وقد جاءَ ليَشتريَ آلةً موسيقيَّةً لفرقة التَّرنيم التَّابعة للهيئة في مدينته. وكان بحاجةٍ إلى مَن يَصحَبه بجولةٍ بسيَّارته لزيارة محالِّ بَيع الآلات الموسيقيَّة. وقد تَطوَّعتُ أنا للقيام بذلك. والنتيجةُ هي أنِّي سأنام ساعاتٍ أقلَّ بكثيرٍ ممَّا كُنتُ آمل. غير أنِّي أشعرُ بالسَّعادة في أعماقي. وأعتقدُ أنَّ تَصرُّفي بهذه الطَّريقة مع ابني وابنتي قد ساعدَهما في عدم الاستياء من الخدمة التي تتطلَّب الكثير من وقتي وجَهدي دون مُقابلٍ ماديٍّ مُجْزٍ.

ولا يفوتُني هنا أنْ أَذكُرُ أنَّ الشَّيطانَ يحاولُ في أغلب الأوقات أن يُوهِنَ عَزيمَتَنا عندما نكون مُتعَبين. لذا، فإنَّ علينا أنْ نَحترسَ من هذا الأمر. فقد يكونُ هذا مؤلِمًا جدًّا في الأوقات التي نُعاني فيها من التَّعب بسبب خدمةٍ أو عَملٍ مُضْنٍ قُمنا به. ففي السَّاعات القليلة التي تَعقُبُ الحَدَث، قد يكون مُعدَّل الأدرنالين في أجسادنا مُرتفعًا فنَعجزُ عن النَّوم. في الوقت نفسه، قد نكونُ في مثل هذه الأوقات ضُعفاء جدًّا أمام التَّجارب، فمثلًا، قرأتُ عن قَساوسة يَتردَّدون على بيوت دَعارةٍ في أُمسيَّات أيَّام الأحد. وقد نُجرَّبُ في مشاهدة محطَّاتٍ تلفزيونيَّةٍ بذيئةٍ عند عَودتنا إلى غرفة الفُندق بعد يومٍ حافلٍ بالخِدمة والوَعظ.

إنَّ الحلَّ يَكمُنُ في تَوقُّع التَّعب ووَضْع خُطَّةٍ بالأشياء التي يُمكنُنا القيام بها عند إحساسِنا بالإنهاك. لهذا، عندما تدعوني إحدى الكنائس أو الهيئات للوَعْظ في مكانٍ بعيدٍ عن مدينتي، عادةً ما أطلُبُ منها أن أُقيمَ في بيت أحدهم. فإلى جانب وجودي في مكانٍ تَقلُّ فيه فُرصُ التَّجربة، فإنَّ حديثي مع مُضيفِيَّ هو طريقةٌ جيِّدةٌ للتَّعرُّف إلى النَّاس الذين سأُخاطبهم. وعندما أكونُ مُتعبًا، غالبًا ما ألجأ إلى قراءة قصص الغموض الخالية من الألفاظ والأحداث البذيئة لأنِّي لا أرغبُ

في قراءة كُتُبٍ مسيحيَّةٍ في مثل هذه الأوقات. كذلك، غالباً ما آخذ معي مذياعًا صغيرًا لكي أستمعَ إلى مقطوعاتٍ موسيقيَّةٍ كلاسيكيَّةٍ (لأنَّها المُفضَّلة لديَّ) في حال التقاطي لإحدى المحطَّات الإذاعيَّة. وإذا كُنتُ مقيمًا في فُندق، فأنا أبقى مُتنبِّهًا من خلال المواظبة على إرسال رسائل نصِّيَّة بواسطة هاتفي الخلويِّ إلى زَوجتي ومجموعة الدَّعم التي أنتمي إليها أُخبرهم فيها بمكاني وأحوالي هناك.

الفصل التَّاسع والعشرون

هو يعطي القوَّة

لقد تطَرَّقنا حتَّى الآن إلى أربعة جوانبَ من وَصْف الرَّسول بولُس لعمليَّة التَّلمذة في كولوسّي ١: ٢٨-٢٩: المُناداة بالإنجيل، والإنذار، والتَّعليم، والتَّعب. وهُناك جانبان آخران في الآية ٢٩. فنحنُ نُجاهدُ من جهة، لكنَّنا نَحصُلُ على القوَّةِ من الله من جهةٍ أخرى!

الجهاد

يقولُ الرَّسول بولس: "الأَمْرُ الَّذِي لأَجْلِهِ أَتْعَبُ أَيْضًا مُجَاهِدًا، بِحَسَبِ عَمَلِهِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيَّ بِقُوَّةٍ" (١: ٢٩). والكلمة المترجَمة "مُجاهِدًا" هي الكلمة المألوفة "أغونزوماي" (agonizomai) التي تَرِدُ ثماني مرَّاتٍ في العهد الجديد. فقدِ استخدمَها الرَّسول يُوحنَّا في سياقها الحربيِّ عندما اقتبَسَ كلماتِ يسوعَ

التي قالَها لبيلاطُس: "مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ ["أغونزونتو" agōnizonto] لكيْ لا أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُود" (يوحنَّا ١٨: ٣٦). كما أنَّ الرَّسول بولُس قد استخدمَها على النَّحو التَّالي: "جَاهِدْ [agōnizomai] جِهَادَ الإِيمَانِ الْحَسَنَ" (١تيموثاوس ٦: ١٢)، و"قَدْ جَاهَدْتُ [agōnizomai] الْجِهَادَ الْحَسَنَ" (٢تيموثاوس ٤: ٧). كذلك، فإنَّ بولُس يَستخدم هذه الكلمة في سياقها الرِّياضيِّ في ١كورنثوس ٩: ٢٥: "وَكُلُّ مَنْ يُجَاهِدُ يَضْبُطُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ".

إنَّ التَّلمذةَ جهادٌ شاقٌّ من أجل رِبْح النُّفوس. وقد قال لي أحدُ المُتطوِّعين في هيئة "شباب للمسيح" بعد ظُهر هذا اليوم: "يا لَهُ مِنْ جِهادٍ أنْ تُتَلْمِذوا هؤلاء الأشخاص [المُراهقين]. فَهُمْ يقومون بعمل الخدمة ويُهملون دراستهم. وَهُمْ يَنخرطون في عمل الله ويُهملون عائلاتهم. وهُم يَنتَقلون من يوم إلى الذي يليه دون أن يُخَصِّصوا وقتًا للشَّركة مع الله. لذلك، من المؤكَّد أنَّ مُحاولة ضَبْطِهم صَعبة جدًّا".

وفي زَمَن الرَّسول بولُس وزماننا، نَرى أنَّ خدمَة العناية بالمؤمنين هي معركةٌ حقيقيَّةٌ لرِبْح النُّفوس. وغالبًا ما يُواجِهُ الخُدَّام أمورًا مُخيِّبةً للآمال. وقد واجَهَ الرَّسولُ بولس ذلك عندما استَسلَمَ الغلاطيُّون للتَّعاليم الزَّائفة. وقد عبَّر عن أَلَمِه بالكلمات التالية: "يَا أَوْلاَدِي الَّذِينَ أَتَمَخَّضُ بِكُمْ أَيْضًا إِلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ. وَلكِنِّي كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ حَاضِرًا عِنْدَكُمُ الآنَ وَأُغَيِّرَ صَوْتِي، لأَنِّي مُتَحَيِّرٌ فِيكُمْ!" (غلاطيَّة ٤: ١٩-٢٠). لكنَّ ما حدثَ لَم يَدفعْه إلى الاستسلام؛ بل قادَه إلى خَوضِ معركةٍ أشرَس. لذلك، فقد أرسَلَ إليهم رسالةً تُعَدُّ الآنَ رائعةً من رَوائع المُجادلات اللَّاهوتيَّة. فبعد التحيَّة الافتتاحيَّة المُعتادة (غلاطيَّة ١: ١-٥)، يَدخلُ بولس في صُلْبِ الموضوع فيقول: "إِنِّي أَتَعَجَّبُ أَنَّكُمْ تَنْتَقِلُونَ هكَذَا سَرِيعًا عَنِ الَّذِي دَعَاكُمْ بِنِعْمَةِ الْمَسِيحِ إِلَى إِنْجِيلٍ آخَرَ!" (العدد ٦). وتَتحدَّث غالبيَّة الرِّسالة إلى مؤمني غلاطيَّة بهذه النَّبرةِ الملحَّة.

وقد جاهَدَ بولس لأجلِ نُفوس الكورنثيِّين كما فعلَ مع الغلاطيِّين. ويُمكنُنا

أن نرى ذلك من خلال وَصفه لكيفيَّة كتابته لرسالته "القاسية" أو "المُحزنة": "لأَنِّي مِنْ حُزْنٍ كَثِيرٍ وَكَآبَةِ قَلْبٍ كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ بِدُمُوعٍ كَثِيرَةٍ، لاَ لِكَيْ تَحْزَنُوا، بَلْ لِكَيْ تَعْرِفُوا الْمَحَبَّةَ الَّتِي عِنْدِي وَلاَ سِيَّمَا مِنْ نَحْوِكُمْ" (٢كورنثوس ٢: ٤).

قد يَضِلُّ المؤمنون الجُدُد عن طريق الله أحيانًا. وكثيرًا ما يَستخدمُ الله شَغَفَ المؤمنين النَّاضجين والتزامهم الرَّاسخ لإعادة المؤمنين الجُدُد إلى الدَّرْب القَويم. وقد تَبيَّنَ لي أنَّه عندما يَبتعدُ شبابُنا عن الربّ، فغالبًا ما يكونُ الشَّخصُ الأوَّل الذي يُلقون باللَّوم عليه هو الشخصَ الذي فعلَ الكثير لأجل نُموِّهم في الإيمان. ومع أنَّ هذا مُؤلمٌ بالفعل، فإنَّه ليسَ عُذرًا مَقبولًا للتَّخلِّي عنهم. فمنَ الواضح أنَّ بعضَ المؤمنين في غلاطيَّة وكورنثوس قالوا أشياءَ رَديئة عن الرَّسول بولُس، غير أنَّه ردَّ عليهم بكتابة هذه الرَّسائل التي نَقرأها اليومَ في الكتاب المقدَّس.

وقد قال القسُّ الاسكتلنديُّ "روبرت موراي مِتشيني" في عِظَةٍ له أمام رَعيَّته: "أَشعُر أحيانًا، يا إخوتي، بأنِّي على استعدادٍ لأنْ أُطرَحَ تحت التُّراب والأعشاب في فِناء الكنيسة، وأنْ أُنسى وأُداس بالأقدام في سبيل أنْ تَصيروا أحبَّاء للسيِّد المسيح".[١]

وأعتقدُ أنَّ إحدى المرَّات التي استَخدَمَ فيها الرَّسول بولُس كلمة "يُجاهد" هي وثيقةُ الصِّلَة بنقاشنا. ففي كولوسِّي ٤: ١٢، يروي بولُس كيف أنَّ أبَفْراس كان يُصلِّي لأجل الكولوسيِّين. وقد كان أبَفراس في الأصْل من كولوسِّي. بل ربَّما هو الذي أسَّسَ تلك الكنيسة. لكنَّه كان في ذلك الوقت مع بولُس. ويقول بولُس: "يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ أَبَفْرَاسُ، الَّذِي هُوَ مِنْكُمْ، عَبْدٌ لِلْمَسِيحِ، مُجَاهِدٌ [agonizomenos] كُلَّ حِينٍ لأَجْلِكُمْ بِالصَّلَوَاتِ، لِكَيْ تَثْبُتُوا كَامِلِينَ وَمُمْتَلِئِينَ فِي كُلِّ مَشِيئَةِ اللهِ". فقد كان أبَفْراسُ يُجاهدُ بالصَّلاة منْ مكانٍ وجوده في روما أو قيصريَّة. ونَجدُ هُنا مُصطلحَ "الجِهاد بالصَّلاة".

عندما نَتشفَّعُ لشخصٍ ما فإنَّنا نَشنُّ حَربًا نيابةً عن ذلك الشخص. وهذا يُذكِّرُنا بالمعركة التي قادَها يشوع ضدَّ عماليق. وقد كَسبَ يشوعُ المَعركة بصلوات موسى حين دعمَ هارون وحُور يَدَيْ موسى (خروج ١٧: ١٠-١٣). ويُتابع بولس قائلًا عن أبَفْراس: "فَإِنِّي أَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ يَجْتَهِدُ كَثِيرًا لأَجْلِكُمْ" (كولوسِّي ٤: ١٣-الترجمة التفسيريَّة).

لكنْ كيف يُمكنُ لأبَفْراس أن يَجتَهدَ كثيرًا لأجلهم وهو بعيدٌ عنهم مئات الأميال؟ من طريق الصَّلاة! فعندما نُصلِّي لأجل النَّاس، فإنَّنا نَجتهدُ نيابةً عنهم. وأعتقدُ أنَّ هذا هو أكثرُ عملٍ مُهمٍّ نقوم به لأجل الأشخاص الذين نُتلمذُهم.

وبلا شكّ، في حين أنَّ الصَّلاةَ هي عمل، فإنَّها أيضًا وسيلةٌ لِشَحْذ هِمَمنا وتزويدنا بالطَّاقة. فعندما نُصلِّي، فإنَّنا نَتلامسُ تلامُسًا حقيقيًّا مع الله. وعندها، فإنَّنا نَفتَحُ البابَ على مصراعَيه لكي تَفيضَ محبَّة الله فينا. لكنْ في الوقت نفسه، فإنَّ المحبَّةَ تَفيضُ منَّا عندما نُحبُّ النَّاس من خلال الصَّلاة لأجلهم. ونتيجةً لذلك، فإنَّ المحبَّة تتدَفَّق منَّا كالأنهار. وحيثُ إنَّ محبَّةَ الله أعظم من محبَّتنا، فإنَّه يُمكنُنا أن نَتوقَّع أنَّ المحبَّة التي سَتَدخلُ من الباب ستَكونُ أعظمَ من المحبَّة التي ستَخرُج منه. وهكذا، فإنَّ المحبَّة تَدخلُ وتخرُج، وفي أثناء هذه العمليَّة، نحن نَنتعشُ ونَحصلُ على طاقةٍ جديدة.

وفي الحقيقة، وَجَدتُ أنَّ الصَّلاةَ لأجل الأشخاص الذين أهتَمُّ أنا شخصيًّا بصِحَّتهم الروحيَّة هي طريقةٌ جيِّدة للاستعداد للوَعظ. وقد اكتشفْتُ ذلك عندما كُنت أعِظُ في أحد المؤتمرات في أمستردام، العاصمة الهولنديَّة، والذي عُقدَ خصِّيصًا للمُبشِّرين المتجوِّلين. فقد شَعَرتُ بحاجتي إلى مِسحَةٍ خاصَّة من الله لكي أتمكَّنَ من التحدُّث إلى هذا الحشد الكبير. لذا، فقد نَهضتُ من النَّوم مُبكِّرًا في صباح اليوم الذي سأعِظُ فيه لكي أصلِّي. وبعد دقائقَ قضَيتُها في الصَّلاة شعرتُ بأنِّي قد وضعتُ أمامَ الله كلَّ التضرُّعات المُتعلِّقة بموضوع عِظَتي. لذلك، فقد نَظَرْتُ إلى قائمة الأشخاص الذين أُصلِّي لأجلهم عادةً ثُمَّ أمضَيتُ الوقتَ المتبقِّي في الصَّلاة لأجل الأشخاص الذين أهتمُّ بنمُوِّهم الروحيِّ في الدِّيار.

وفي وقتٍ لاحق، أدركتُ أنَّ الصَّلاةَ كانتْ نوعًا من الاستعداد للوَعظ لأنِّي صرْتُ مُتَلامسًا مع الله ومُتناغمًا معه من خلال الصَّلاة. وقد كان هذا هو ما يَنبغي لي أن أقومَ به لكي أفتحَ البابَ للرُّوح القُدُس كي يتدفَّقَ من خلالي. وهكذا، مع أنَّ الصَّلاة لأجْل الآخرين هي جهاد، فإنَّها جهادٌ يُمدُّنا بالقوَّة.

ويَجْدُرُ بنا أنْ نُلاحظَ أنَّ بعضَ أنواع الصَّلاة لأجل الآخرين، مثل الصَّلاة في الكنيسة لأجل الأشخاص الذين يَتَقدَّمون إلى الأمام أو الصَّلاة لطَرد الأرواح الشرِّيرة، يُمكن أن تكونَ مُجهِدَةً حقًّا. فبعدَ أن لَمَسَتْ نازفةُ الدَّم يسوعَ وشُفيَتْ، قال يسوع: "قَدْ لَمَسَنِي وَاحِدٌ، لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ قُوَّةً قَدْ خَرَجَتْ مِنِّي" (لوقا ٨: ٤٦). لقد خرجتْ قوَّةٌ من يسوع عندما شَفى تلك المرأة. وبالطَّريقة نفسها، هناك بعضُ أنواع الصَّلوات التي يُمكن أنْ تَستنْزفَ طاقتنا. أمَّا الصَّلواتُ التَّشفُّعيَّة فعادةً ما تُنعِشُ نفوسَنا لأنَّها تُقرِّبُنا إلى الله وتجعَلُنا نَتَلامَسُ معه. وهذا يَقودُنا إلى النُّقطة التي تَليها.

القُوَّة

يقولُ الرَّسول بولُس إنَّه جاهَدَ "بِحَسَبِ عَمَلِهِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيَّ بِقُوَّةٍ" (كولوسِّي ١: ٢٩). وفي النصِّ اليونانيِّ، يَستخدم بولس ثلاثَ كلماتٍ تَصفُ القوَّة للتَّعبير عن هذه الفكرة. فالتَّرجمة الحرفيَّة تقول: "بِفَضْلِ قُدْرَتِهِ الْعَامِلَةِ فِيَّ بِقُوَّةٍ" (الترجمة التفسيريَّة). فكلمة "قُدرَته" هي تَرجمةٌ للاسم "إنيرجيا" (energeia)، و"العاملة" هي ترجمة للفعل "إنيرجيو" (energeo)، و"بقوَّة" هي ترجمة للاسم "دوناميس" (dunamis). وبهذا، فإنَّ الرَّسول بولُس يُبدِّدُ أيَّ شَكٍّ لدينا في أنَّ كلَّ قُوَّةٍ نَحصُلُ عليها للقيام بعمليَّة التَّلمذة هي من الله.

وعندما نَأخذُ نَفَسًا عميقًا ونُواصلُ العملَ المُضني لإعداد تلاميذَ ناضجين للسيِّد المسيح، فإنَّ الله يُعطينا القوَّة اللَّازمة لإنجاز المَهَمَّة. وبلا شكّ، يجب علينا أنْ نُطبِّقَ المبادئَ التي تَحدَّثنا بشأنها في الفصول السابقة: أن نَتعلَّم أنْ نقول "لا"، وأنْ نَتخلَّصَ من المهامِّ الثانويَّة، وأن نُفَوِّضَ المهامّ، وأنْ نأخذ قسطًا من الرَّاحة، وأنْ نقضيَ وقتًا مع الله. فإذا حَرِصْنا على استخدام الوسائل التي أتاحها الله لنا لإنعاشنا روحيًّا، فمن المؤكَّد أنَّنا سنَحصلُ على القوَّة التي نَحتاج إليها للقيام بهذه المهمَّة. وما قاله الله للرَّسول بولُس عن

الشَّوكة التي في جَسَده يَنطبقُ على حياة الخدمة أيضًا: ''تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لأَنَّ قُوَّتِي فِي الضَّعْفِ تُكْمَلُ'' (٢كورنثوس ١٢: ٩).

- الله يُعطينا قوَّةً روحيَّةً من خلال حُضوره معنا وتَمكيننا من القيام بالمهامِّ المطلوبة منَّا. فقد نَذهبُ لمقابلة مؤمنٍ ضَلَّ الطَّريقَ فنُصلِّي كي يُعطيَنا الله نِعمَةً للتحدُّث إليه بطريقةٍ مُناسبة. وعندها، فإنَّ الله يَضَعُ في أفواهِنا الكلماتِ المُناسبة بالفِعْل.
- قد نشعرُ أحيانًا بضَعفٍ شَديدٍ في أجسادنا وبعدم القُدرة على الاستمرار في الخدمة بسبب تَعبِنا الجسديّ. وفجأةً، يُلغى مَوعدٌ ما أو يحدُثُ شيءٌ مُشابهٌ فنَتمكَّن من أخْذِ قِسْطٍ من الرَّاحة.
- قد نشعرُ أحيانًا بضَعفٍ نفسيٍّ شديد لأنَّنا تأذَّينا بسبب خدمتنا للآخرين. وعندها، قد نَشعرُ بعدم الرَّغبة في المغامرة من جديد في هذه الخدمة. لكنَّ الله يتكلَّمُ إلينا بعباراتٍ لا تَحتملُ الخطأَ عندما نقرأ الكتاب المقدَّس. حينئذٍ، فإنَّنا نَتشجَّع ونتمكَّن من الاستمرار. أو قد يُكلِّمُنا الله بوضوحٍ من خلال عِظَةٍ نَسمعُها في الكنيسة، فَنتشجَّعُ ونُكملُ الطَّريق.

وكما قال الرَّسول بولس: ''أَمِينٌ هُوَ الَّذِي يَدْعُوكُمُ الَّذِي سَيَفْعَلُ أَيْضًا'' (١تسالونيكي ٥: ٢٤). لقد استعرَضنا في هذا القسم مجموعةً من الوُعود بأنَّ الله سيمنَحُنا القُدرةَ على القيام بالمهامِّ التي يُوكلُها إلينا. وصَلاتي هي أن تمدَّنا هذه الوعود بالقوَّة كي نَخدمَ الله بأمانة.

تأمُّلٌ ختاميّ

الفصل الثّلاثون

إحدى مُفارَقات الحياة المسيحيَّة

لقد وَضَعَ هذا الكتاب نُصبَ عينَيك واحدةً من المُفارقاتِ العديدة في الحياة المسيحيَّة. فمن جِهة، يَعِدُ الكتاب المقدَّس بأنَّ الله سيَعتني بالمؤمنين الأمَناء ويُسدِّدُ كلَّ حاجاتهم. فقد قال يَسوع: "لكنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا [الحاجاتُ الدُّنيويَّةُ] تُزَادُ لَكُمْ" (متَّى ٦: ٣٣). وقد قال بولُس: "فَيَمْلأُ إِلهِي كُلَّ احْتِيَاجِكُمْ بِحَسَبِ غِنَاهُ فِي الْمَجْدِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (فيلبِّي ٤: ١٩). كمَّا أنَّ داوُد قال: "أَيْضًا كُنْتُ فَتًى وَقَدْ شِخْتُ، وَلَمْ أَرَ صِدِّيقًا تُخُلِّيَ عَنْهُ، وَلاَ ذُرِّيَّةً لَهُ تَلْتَمِسُ خُبْزًا" (المزمور ٣٧: ٢٥).

ومن جِهةٍ أخرى، نحن نَعرفُ أيضًا أنَّ يسوعَ وعدَ مَن يَتبَعونه أنَّهم سيُعانون ويتألَّمون. وقد كتبَ بولس تلك الكلمات عن تَوفير الله لاحتياجاتنا من داخل السِّجن. وتَظهَرُ المفارَقةُ في ثلاث جُملٍ قالَها يسوع بشأن المُعاناة التي سيُلاقيها تلاميذُه:

- بعد أن دعا يسوعُ النَّاسَ إلى إنكار ذواتهم وَحَملِ صَليب الألَم، قال: "فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا" (مَرْقُس ٨: ٣٥). وهكذا، فالألَم سيَقودُ إلى حَياةٍ أفضَل.
- قال يسوع: "لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدِ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كَلاَمِي فَسَيَحْفَظُونَ كَلاَمَكُمْ" (يوحنَّا ١٥: ٢٠). وهكذا، سيُرافقُ قبولُ الرفضَ والاضطهاد.
- قال يسوع: "قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهذَا لِيَكُونَ لَكُمْ فِيَّ سَلاَمٌ. فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ، وَلكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ" (يوحنَّا ١٦: ٣٣). وهكذا، فنحن نواجِهُ الضِّيقات ونحن واثقون بأنَّ السيِّد المسيح قد غلبَ العالَم. لذلك، فنحنُ نَنعمُ بالسَّلام في وسط هذه الضِّيقات.

على نحو مُشابه، كتبَ الرَّسول بولُس إلى مؤمني فيلبِّي من داخل السِّجْن قائلًا: "ثُمَّ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّ أُمُورِي قَدْ آلَتْ أَكْثَرَ إِلَى تَقَدُّمِ الإِنْجِيلِ" (فيلبِّي ١: ١٢). لذلك، فقد كان يَتلك القوَّة اللَّازمة ليَقولَ لهم: "افْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ، وَأَقُولُ أَيْضًا: افْرَحُوا" (فيلبِّي ٤: ٤)، وليؤكِّدَ لهم أنَّهم بعدَ أنْ يَرفَعوا طِلْباتهم إلى الله فإنَّ "سَلاَمَ اللهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (٤: ٧). وفي الرِّسالة نفسها، يُبيِّن بولس أنَّ معرفةَ السيِّد المسيح هي كنزٌ عظيمٌ حتَّى إنَّ فُقدانَ كلِّ شيءٍ ثَمينٍ في نَظَرِ العالَم سيَبدو أمرًا عديمَ القيمة: "بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ" (فيلبِّي ٣: ٨).

لهذا، فنَحنُ لا ننظُر إلى المُعاناة باسْتِهجان. لقد كان القسُّ الألمانيُّ اللُّوثريُّ "دِيتريش بونْهويْفَر" (Dietrich Bonhoeffer) واحدًا من أعظم مُفكِّري الكنيسة

في القرن العشرين. وكان يُعارضُ نظام الحُكم النازيِّ بقوَّة. وعندما كان يَقضي سنةً دراسيَّة مدفوعةَ الأجر في أمريكا، حَظيَ بفُرصةٍ ثَمينةٍ للبَقاء هناك والحصول على عملٍ جيِّدٍ في مجال اللَّاهوت بدلًا من العودة إلى ألمانيا التي كانت تُشكِّلُ خطرًا على حياته. لكنَّه كتبَ إلى "رينولد نيبور" (Reinhold Niebuhr)، وهو الشخصُ الذي رتَّبَ له تلك السَّنة، قائلًا: "لقد أخْطأتُ في المجيء إلى أمريكا. إذ يجبُ عليَّ أن أعيشَ هذه الفترة العَصيبةَ من تاريخ أُمَّتنا مع المؤمنين في ألمانيا. فلَن يكونَ لي أيُّ حقٍّ في المشارَكة في إعادة بناء الحياة المسيحيَّة في ألمانيا بعد انتهاء الحرب إنْ لَم أشارِكْ شعبي ضيقاتِ هذا الزَّمان".[1] وقد أعدمَ النازيُّون بونْهويْفَر في سنة ١٩٤٥ بعد أن أمضى سنتَين في السِّجن.

لقد شعرَ بونْهويْفَر بأنَّ الناسَ كانوا يُقيمون وَزنًا كبيرًا لمُعاناته. وقبل سنةٍ تقريبًا من إعدامه، كتبَ من سجن تيغِل (Tegel) إلى صديقه "إبَرهارْد بيثج" (Eberhard Bethge)، الذي صارَ فيما بعد كاتبَ سِيرته، فقال: "إنِّي أحتَجُّ في داخلي عندما أقرأ في الرَّسائل... إشاراتٍ عن «مُعاناتي». فبالنِّسبة إليّ، أرى أنَّ هذا تدنيسًا لأمرٍ مقدَّس. فلا يجوزُ تَهويل مثل هذه الأشياء. فَمَسألة أنِّي «أتألَّم» أكثرُ منكم أو حتَّى أكثر من بقيَّة النَّاس اليومَ هي مسألةٌ مشكوكٌ جدًّا في صحَّتها. صحيحٌ أنَّ كثيرًا ممَّا يَحدُثُ هنا [في السِّجْن] مُثيرٌ للغثيان، فإنَّ السؤال هو: أين هو المكانُ المُختلف؟ يبدو أنَّنا اعتَدْنا النَّظرَ إلى الأشياء بجِدِّيَّةٍ مُبالَغ فيها- ولا سيَّما في هذا الشأن". ثُمَّ يقول في فِقرةٍ أخرى في الرِّسالة نفسها: "ولا بدَّ لي من الاعتراف بأنِّي أخجَلُ في بعض الأحيان لكثرةِ ما تحدَّثنا بشأن مُعاناتِنا الشخصيَّة".[2]

من المؤكَّد أنَّ كثيرين لن يَفهموا هذا الكلام. فقد يُعجَبُ البعضُ بالتزامنا، لكنَّ كثيرين سيَعتقدون أنَّنا نَفعل شيئًا خاطئًا ويَحتَقرونَنا. وقد تحدَّثَ بونْهويْفَر بذلك في كتابه "كُلفةُ التِّلمذَة" (The Cost of Discipleship). وهو يقول مُشيرًا إلى قَول السيِّد المسيح إنَّ "ابْنَ الإِنْسَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيرًا، وَيُرْفَضَ مِنَ

الشُّيُوخ" (مَرْقُس ٨: ٣١): "الأَلَمُ والرَّفْضُ ليسا شيئًا واحدًا". وبعد أنْ يَصفَ كيفَ يُمكن للنَّاس أن يَنظروا إلى الأَلَم نظرةً إيجابيَّة، فإنَّه يقول: "لكنَّ يسوعَ هو المسيحُ الذي رُفِضَ رُغمَ آلامه. والرَّفضُ يُجرِّدُ الأَلَم من أيِّ نُبْلٍ أو شَرَف. فهو يَعني أنْ يَتألَّمَ الإنسانُ بلا كرامة".[٣]

وقد يُحاول النَّاس المُقرَّبون إلينا أن يُقنعونا بتَجنُّب الأَلَم. وكم يصيرُ الاحتِمال صَعبًا عندما يحاولُ المؤمنون الأحبَّاء أن يُثنونا عن السَّير في درْبِ الصَّليب! لكنْ يجب علينا أن نَتذكَّرَ أنَّ يسوعَ دعا بُطرُس "شيطانًا" (مرقس ٨: ٣٣) بعد أنْ أثنى عليه بسبب كلماته الدَّالة على إيمانه بأنَّ يسوع "هُوَ المَسيحُ ابْنُ اللهِ الحَيِّ" (متَّى ١٦: ١٦-١٧؛ مرقس ٨: ٢٩). وقد علَّق بونْهويْفَر على هذا بقَوله: "إنَّ أيَّة مُحاوَلةٍ لِتَجنُّب ما لا مفرَّ منه هي مُحاوَلةٌ شَيطانيَّة".[٤]

ولكي نُواصلَ السَّيرَ في دَرْب الصَّليب، يجب علينا أنْ نتبنَّى مَوقفًا كتابيًّا من نَحوِ الأَلَم. ونَجدُ كلمات بونْهويْفَر مُفيدةً في هذا المَقام أيضًا. فقبل سنةٍ تقريبًا من اعتقاله، كتبَ في إحدى رسائله: "... من الجيِّد أنْ نَتعلَّمَ باكرًا أنَّ الأَلَم والله ليسا نَقيضَين، بل هُما وحدةٌ واحدةٌ حتميَّة. وبالنِّسبة إليّ، فإنَّ فكرةَ أنَّ الله هو الذي يُعاني حقًّا هي إحدى التَّعاليم الأكثر إقناعًا في المسيحيَّة. فأعتقد أنَّ الله أقرَبُ إلى المعاناة منه إلى الفرح، وأنَّ العثورَ على الله بهذه الطَّريقة يَجلبُ سلامًا وطمأنينةً، ويَخلقُ فينا قلبًا قويًّا وشُجاعًا".[٥]

غير أنَّ بعضَ المؤمنين في القرون المسيحيَّة الأولى تطرَّفوا كثيرًا فراحوا يَتمنَّون الاستِشهاد. فنحن لا نَقرأُ في أيِّ مكانٍ في الكتاب المُقدَّس عن طَلَبِ الشَّهادة كما لو كانت غايةً في حدِّ ذاتها. لهذا، لا يَنبغي للمؤمنين الذين لا يُعانون أن يَشعروا بالذَّنْب لأنَّهم لا يُعانون! بل عليهم أنْ يَتبَعوا يسوعَ بكُلِّ حماسة. وحين يَفعلونَ ذلك، لا بُدَّ أنَّهم سيَختبَرون بعضَ الأَلَم لأنَّ يسوع وعدَ بذلك. لكنْ عندما يكونُ يسوعُ هو كلَّ شيءٍ في حياتنا، لن يكون الأَلَم مُشكلةً كبرى. فإنْ كان السيِّد المسيح معنا فهذا يَعني أنَّنا نَمتَلكُ أكثرَ الأشياء أهمِّيَّة. ولا شكَّ في أنَّ محبَّته لنا

تَمنَحُنا الفرحَ الذي يَصيرُ هو قوَّتنا. حينئذٍ، سنَحتَمِلُ الألَم دون أنْ نفْقدَ شُعورَنا بالقناعة أوِ الرِّضى!

وما أرجوه من أعماق قلبي هو أن يكونَ هذا الكتابُ قد ساعدَك في تَبنِّي نَهْجٍ في حياتك (أو في تَرسيخ نَهْجٍ قائمٍ لديك) يقوم على رَفْض النَّظر إلى الألَم كشيءٍ مُهمٍّ إلى أقصى الحدود. فالشيءُ الأهمُّ دائمًا هو علاقةُ المحبَّة التي تَربطُنا بالله من خلال السيِّد المسيح. فإن كان الألَم يُساعدنا على زيادة الاقتراب من يسوع، وعلى زيادة فاعليَّتنا في خدمته، فيجبُ علينا أن نُرحِّبَ بالألَم بِفرَحٍ- تمامًا كما فعلَ بولس.

وبلا شكّ، يجب علينا عندما نتألَّم أن نَثقَ بأنَّ الله سيُسَدِّد كلَّ احتياجاتنا. وهذا يَعني ضمنيًّا أنَّ الله لا يَنظرُ إلى عدم التألُّم كحاجةٍ أساسيَّةٍ لدينا.

وفي ما يَختَصُّ ببونْهويْفَر، فقد ماتَ قَبْلَ أن يَبلُغَ الأربعين من العمر، تاركًا خطيبَته وراءَه. وقد ظنَّ كثيرونَ أنَّ مَوته كان هَدرًا لموهبةٍ عظيمة من مَواهب الكنيسة. لكنَّ بونْهويْفَر نفسَه ظلَّ قريبًا من الله، وكان يَعرِفُ يقينًا أنَّ مَوته سيُقَرِّبه إلى الله أكثر من أيِّ وقتٍ مَضى.

وقبلَ وقتٍ قصيرٍ من مَوت بونْهويْفَر، كتبَ قصيدةً بعنوان "محطَّاتٌ على الطَّريق المؤدِّي إلى الحرِّيَّة" (Stations on the Road to Freedom). وقد عَرَضَ في هذه القصيدة ثلاثَ محطَّات: الأولى هي "العمل" (أو التجرُّؤ على فعلِ ما هو صواب)؛ والثانية هي "المُعاناة"؛ أمَّا الثَّالثة فهي "الموت". وقد كتبَ: "أَقبِلِ الآنَ يا أَعظمَ الأعيادِ في رحلةِ الحُرِّيَّة الأبديَّة".[٦] وعندما حانَتْ ساعةُ إعدامه، طلبَ بونْهويْفَر من رَفيقٍ له في السِّجن من الجُنود البريطانيِّين أن يَنقلَ رسالةً إلى صديقه الأسقف البريطانيِّ "جورج بل" (George Bell): "قُلْ للأسقُف إنَّ هذه هي النهاية بالنِّسبة إليّ؛ لكنَّها البداية أيضًا. فأنا أؤمن كما يؤمن هو [أي الأسقُف] ... بأنَّ نُصرَتَنا أكيدة".[٧]

وفي ضَوء إسهاماتِ بونْهويْفَر اللَّاهوتيَّة التي قدَّمَها إلى الكنيسة، فإنَّه يظَلُّ

واحدًا من أكثر الكُتَّاب الذين قُرِئَتْ كُتُبهم في القرن العشرين. ولا أُخطئ إنْ قُلتُ إنَّ شَعبيَّة مؤلَّفاته ومدى تأثيره في الكنيسة قد تأثَّرا بحقيقة أنَّه استُشْهِدَ في رَيعان حياته. فمن المؤكَّد أنَّ آلامَه قد ساعَدَتِ الكنيسة.

وأوَدُّ أنْ أَختِمَ هذا الكتابَ بمُخاطبة نفسي ومُخاطبتك بهذه الكلمات التي كتبَها الرَّسول بولُس إلى ابنه الروحيِّ تيموثاوس: "فَاشْتَرِكْ أَنْتَ فِي احْتِمَالِ الْمَشَقَّاتِ كَجُنْدِيٍّ صَالِحٍ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ" (٢تيموثاوس ٢: ٣).

الملاحظات

مُقدّمة

1. E. Stanley Jones, *A Song of Ascents* (Nashville: Abingdon Press, 1968), p. 180.

٢. لقد حاولتُ أنْ أستَعرض ذلك بإيجاز في الكتب التالية:

The Supremacy of Christ (Wheaton, IL: Crossway Books, 1995; London: Hodder & Stoughton, 1997; Secunderabad, India: OM Books, 2005), Chapter 14, "The Cross and the Problem of Pain" and in *After the Tsunami* (U.S. edition: *After the Hurricane*), Discovery Booklets (Grand Rapids, MI: RBC Ministries).

انظر أيضًا قُرصَ الفيديو الرَّقميَّ الذي سيَصدُرُ قريبًا، والمعَنوَن مؤقَّتًا:

The God of Pain and the God of Joy, Day of Discovery (Grand Rapids, MI: RBC Ministries, 2007).

الفصل الأوَّل: سِمَتان أساسيَّتان للحياة المسيحيَّة

1. Paul Tournier, *Creative Suffering* (London: SCM Press, 1982), p. 60.
2. F. W. Bourne, *Billy Bray: The King's Son* (London: Epworth Press, 1937), p. 46.

٣. المرجع السابق، ص ٢٣.

الفصل الثاني: كَنْزٌ مَنْسِيّ

١. وردَتْ هذه العبارة في الكتاب التالي:

David Augsburger, *Caring Enough to Confront: The Love-Fight* (Glendale, CA: Regal Books, 1973).

2. Etta Linnemann, *Historical Criticism of the Bible: Methodology or Ideology?* trans. Robert W. Yarbrough (Grand Rapids, MI: Baker Book House, 1990).

3. C. S. Lewis, *Reflections on the Psalms* (New York: Harcourt Brace and World Inc. 1958), p. 55.

٤. المرجع السابق، ص ٦٢.

5. C. S. Lewis, *Surprised by Joy: The Shape of My Early Life* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1960), p. 170.

الفصل الثالث: نَوباتُ ابتهاج

1. A. J. Appasamy, *Sundar Singh: A Biography* (Madras: Christian Literature Society, 1966), p. 19.
2. See Steven Tracy, "Chastity and the Goodness of God: The Case for Premarital Sexual Abstinence," *Themelios*, Vol. 31, No. 2 (January 2006), pp. 54-71.

الفصل الرابع: الرِّثاء

1. *The New International Version Study Bible Notes*, Pradis CD-ROM: Lamentations.
2. J. Clinton McCann, *A Theological Introduction to the Book of Psalms: The Psalms as Torah* (Nashville: Abingdon Press, 1993), p. 85; quoted in Nancy J. Duff, "Recovering Lamentation as a Practice in the Church," in Sally A. Brown and Patrick D. Miller, eds., *Lament: Reclaiming Practices in Pulpit, Pew and Public Square* (Louisville: Westminster John Knox Press, 2005), p. 4.
3. Chris Wright, "Personal Struggle and the Word of Lament," in *Truth on Fire: Keswick Ministry 1998*, ed. David Porter (Carlisle, Cumbria, UK: OM Publishing, 1998), p. 29.

الفصل الخامس: الإيمانُ والصَّبْر

١. العدد ١٤: ٨؛ التَّثنية ٣٠: ٩؛ المزامير ٣٧: ٢٣؛ ٤١: ١١؛ ١٤٧: ١١؛ ١٤٩: ٤؛ إشَعْياء ٦٢: ٤.

٢. التَّثنية ٢٨: ٦٣؛ ٣٠: ٩؛ سِفْر ميخا ٧: ١٨.

٣. المزامير ٣٥: ٢٧.

4. From Charles H. Spurgeon, *Spurgeon at His Best*, ed. Tom Carter (Grand Rapids, MI: Baker, 1988), pp. 323ff.

٥. انظر مثلًا: رومية ٢: ٧؛ ٥: ٣-٤؛ ٨: ٢٥؛ ١٥: ٤-٥؛ رؤيا ١: ٩؛ ٢: ٢-٣، ١٩؛ ٣: ١٠؛ ١٣: ١٠؛ ١٤: ١٢.

6. Leon Morris, *The Epistle to the Romans* (Grand Rapids, MI: Eerdmans; Leicester: Inter-Varsity Press, 1988), p. 325.
7. Paul Sangster, *Dr. Sangster* (London: Epworth Press, 1962), p. 54; cited in Warren W. Wiersbe and Lloyd M. Perry, *The Wycliffe Handbook of Preaching and Preachers* (Chicago: Moody Press, 1984), p. 217.
8. W. E. Sangster, *Westminster Sermons*, Vol. 2, *At Fast and Festival* (London: Epworth Press, 1961); from the Foreword by P. E. Sangster.
9. Martyn Lloyd-Jones, *Spiritual Depression* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1965), p. 20.
10. Quoted in George E. Good, *Living Stones* (Newtownards, Northern Ireland: April Sky Design, 2004), p. 57.

الفصل السابع: لا تلذُّذَ في الألَم

1. Mrs. Arthur Parker, *Sadhu Sundar Singh*: Called of God (Madras: Christian Literature Society, 1918), pp. 25-26.
2. J. B. Lightfoot, *Epistle of St Paul to the Philippians* (Grand Rapids, MI: Zondervan; Pradis Electronic Version produced by Zondervan Interactive, 2004).
3. Cited in Dennis Kinlaw, *This Day with the Master* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2004), December 31.

الفصل الثامن: بُقعَةٌ لاهوتيَّة عَمياء؟

1. A. T. Robertson, *The Glory of the Ministry: Paul's Exultation in Preaching* (Grand Rapids, MI: Baker, 1911, reprint 1979).

الفصل التاسع: شَركةُ الآلام

1. David E. Garland, *The NIV Application Commentary: Colossians*

and Philemon (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1998; Pradis Electronic Version produced by Zondervan Interactive, 2004).

2. Peter O'Brien, *Commentary on Philippians*, The New International Greek Testament Commentary (Grand Rapids, MI and Cambridge, UK: Eerdmans, 1991).
3. Cited in James S. Stewart, "Wearing the Thorns as a Crown," *Classic Sermons on Suffering*, comp. Warren W. Wiersbe (Grand Rapids, MI: Kregel, 1984), p. 92.
4. In Jan Pit, compiler, Bound to Be Free: *With the Suffering Church* (Tonbridge, UK: Sovereign World, 1995), p. 341.

٥. المرجع السابق، ص ١٤٢.

6. Cited in A. J. Appasamy, *Sundar Singh: A Biography* (Madras: Christian Literature Society, 1966), p. 27.

٧. المرجع السابق، ص ١١٧.

8. Cited in Sherwood Elliot Wirt and Kersten Beckstrom, *Living Quotations for Christians* (New York: Harper & Row, 1974), p. 266.
9. Graham Kendrick, Make Way Music, 1993.

الفصل العاشر: التَّشَبُّه بالسيِّد المسيح

١. أَشْكُر زُملائي في هيئة "شباب للمسيح" في تريڤاندرَم بالهند على لفت انتباهي إلى هذه الآية.

2. W. Arndt, F. W. Danker, and W. Bauer, *A Greek-English Lexicon of the New Testament and Other Early Christian Literature*, 3rd edition (Chicago: University of Chicago Press, 2000), p. 958.
3. Extracted from Mark Water, compiler, *The New Encyclopedia of Christian Martyrs* (Grand Rapids, MI: Baker, 2001), p. 856.

الفصل الحادي عشر: تَنقِيةُ الدَّوافع

1. Dennis F. Kinlaw, *How to Have the Mind of Christ* (Nappanee, IN: Evangel Publishing House), pp. 72-73.

الفصل الثاني عشر: الخِزْيُ والكرامة

١. أنا مَدينٌ بهذه الفكرة إلى كتاب من تأليف جون پايپر:

John Piper's book *The Purifying Power of Living by Faith in ... Future Grace* (Sisters, OR: Multnomah Books, 1995), pp. 262-266.

٢. لقد سَمِعتُ هذه القصَّةَ بروايات مُختلفة؛ لكنَّ المغزى منها هو نفسُه رُغمَ اختلاف التفاصيل. لذلك، فقد آثرْتُ ألَّا أذكُر التَّفاصيل.

الفصل الثالث عشر: اتِّحادُ المؤمن والسيِّد المسيح

1. J. W. Mieklejohn, "David Livingstone," *New International Dictionary of the Christian Church* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2002; Pradis Electronic Version produced by Zondervan Interactive, 2004).
2. From Dennis Kinlaw, *This Day with the Master* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2004), March 2.
3. Kingsway's Thankyou Music, 1986.

الفصل الرابع عشر: الألَمُ ونُموُّ الكنيسة

١. هذه المعلوماتُ مُستَقاةٌ من:

A History of the Methodist Church in Ceylon (Colombo: The Wesley Press, n.d.), pp. 23-28, 89-91, 658-659.

٢. روى القصَّة أحد أساتذة اللَّاهوت وهو الدكتور "جون تي. سيماندز" (John T. Seamands).

الفصل الخامس عشر: إعلانُ بشارة الإنجيل

١. هذه القصَّةُ مأخوذةٌ عن:

Mark Water, compiler, *The New Encyclopedia of Christian Martyrs* (Grand Rapids, MI: Baker, 2001), p. 431.

2. Rodney Stark, *The Rise of Christianity: How the Obscure, Marginal Jesus Movement Became the Dominant Religious Force in the Western World in a Few Centuries* (San Francisco: Harper San Francisco, 1997), pp. 73-94.
3. A. J. Broomhall, *Hudson Taylor and China's Open Century*, Book

Seven: *1888-1988, It Is Not Death to Die* (London: Hodder and Stoughton and Overseas Missionary Fellowship, 1989), p. 32.

٤. المرجع السابق، ص ٤٨٠-٤٨١.

الفصل السادس عشر: مع النَّاس في خَندَقٍ واحد

1. *Merriam Webster's Collegiate Dictionary*, electronic version.
2. Cited in Mark Water, compiler, *The New Encyclopedia of Christian Martyrs* (Grand Rapids, MI: Baker, 2001), p. 947.

٣. وردَتْ هذه القصَّة في:

Dennis F. Kinlaw, *This Day with the Master* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2004), April 4.

وقد حَصَلْتُ على الكثير من التَّفاصيل من مقالة كتبها الدكتور "تشارلز كيليان" (Dr. Charles Killian) من كلِّيَّة لاهوت آزبَري. وأنا مَدينٌ للمُرْسَل وعالِم الأجناس البشريَّة الدكتور "داريل وايتمان" (Dr. Darrel Whiteman) الذي شاركَ هذه القصَّة معي.

الفصل السابع عشر: كيف نعمِّقُ تأثيرَنا

1. Leon L. Morris, "Hebrews," *Expositor's Bible Commentary*, Frank E. Gaebelein, general editor (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1976–1992; Pradis Electronic Version produced by Zondervan Interactive, 2004).

٢. المرجع السابق.

3. James S. Stewart, "Wearing the Thorns as a Crown," *Classic Sermons on Suffering*, comp. Warren W. Wiersbe (Grand Rapids, MI: Kregel, 1984), p. 92.
4. Dennis F. Kinlaw, *This Day with the Master* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2004), September 11.

الفصل الثامن عشر: الألَمُ والمصداقيَّة

1. James M. Boice, "Galatians," *Expositor's Bible Commentary*,

Frank E Gaebelein, general editor (Grand Rapids, MI: Zondervan; Pradis Electronic Version produced by Zondervan Interactive, 2004).

2. From E. Stanley Jones, *The Word Became Flesh* (Nashville: Abingdon Press, 1963), p. 288.

الفصل التاسع عشر: الالتزامُ يُولِّدُ التزامًا

1. E. Glenn Wagner, *Escape from Church, Inc.: The Return of the Pastor-Shepherd* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1999).

الفصل الحادي والعشرون: الالتزام والحياةُ المُفعَمة بالفرح

1. H. Norman Wright, *Premarital Counseling* (Chicago: Moody Press, 1981), p. 99.

الفصل الثاني والعشرون: خُدَّامٌ ووُكلاء

1. Siang-Yang Tan, *Full Service: Moving from Self-Serve Christianity to Total Servanthood* (Grand Rapids, MI: Baker, 2006).
2. F. W. Danker, editor, *A Greek-English Lexicon of the New Testament and Other Early Christian Literature*, 3rd edition, based on the German lexicon by Walter Bauer and previous editions by W. F. Arndt, F. W. Gingrich, and F. W. Danker (Chicago: University of Chicago Press, 2000), p. 230.
3. Barclay Newman, *NT Greek-English Dictionary* (United Bible Societies, from the electronic version by WORDsearch 7).
4. Cleon L. Rogers Jr. and Cleon L. Rogers III, *New Linguistic & Exegetical Key to the Greek New Testament* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2003; Pradis Electronic Version produced by Zondervan Interactive, 2004).
5. Curtis Vaughn, "Colossians," *Expositor's Bible Commentary*, Frank E. Gaebelein, general editor (Grand Rapids, MI: Zondervan, Pradis Electronic Version produced by Zondervan Interactive, 2004).
6. Ajith Fernando, *Jesus Driven Ministry* (Wheaton, IL: Crossway Books, 2002), p.185.
7. J. van Zyl, "John Calvin the Pastor," in *The Way Ahead*, quoted in Derek J. Tidball, *Skillful Shepherds: An Introduction to Pas-*

toral Theology (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1986), p. 190.

٨. المرجع السابق، ص ٧٣.

الفصل الثالث والعشرون: الخدمةُ المُضحِّية تَنبعُ من النِّعمة

1. Robert Murray M'Cheyne, *A Basket of Fragments* (Inverness, Scotland: Christian Focus Publications, 1979), p. 8.
2. Cleon L. Rogers Jr. and Cleon L. Rogers III, *New Linguistic & Exegetical Key to the Greek New Testament* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2003; Pradis Electronic Version produced by Zondervan Interactive, 2004).

الفصل الرابع والعشرون: نحن أغنياء!

1. Cleon L. Rogers Jr. and Cleon L. Rogers III, *New Linguistic & Exegetical Key to the Greek New Testament* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2003; Pradis Electronic Version produced by Zondervan Interactive, 2004).

الفصل الخامس والعشرون: رجاءُ المجد

1. E. Stanley Jones, *The Word Became Flesh* (Nashville: Abingdon Press, 1963), p. 382.

٢. غالبيَّةُ هذه المادَّة مأخوذةٌ عن:

Jane Stuart Smith and Betty Carlson, *Great Christian Hymn Writers* (Wheaton, IL: Crossway Books, 1997), pp. 59-64.

الفصل السادس والعشرون: يَسوع: رسالتُنا

1. Lesslie Newbigin, *The Open Secret* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1978), p. 191.
2. *Spurgeon at His Best*, comp. Tom Carter (Grand Rapids, MI: Baker, 1988), p. 109.

٣. المرجع السابق، ص ١١٠.

4. Peter Lewis, *The Glory of Christ* (London: Hodder & Stoughton, 1992), pp. 1-2 (italics his).

الفصل السابع والعشرون: التَّلاميذُ يُصنَعون وَلا يُولَدون

1. William D. Mounce, editor, *Mounce's Complete Expository Dictionary of Old and New Testament Words* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2006), p. 793.

٢. المرجع السابق، ص ٥٠٦.

3. Walter A. Henrichsen, *Disciples Are Made, Not Born* (Wheaton, IL: Victor Books, 1974).
4. Leroy Eims, *The Lost Art of Disciple Making* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1978).
5. John T. Seamands, Daybreak: *Daily Devotions from Acts and Pauline Epistles* (Wilmore, KY: privately published, 1993), January 17.

٦. انظر كتابي:

Crucial Questions about Hell (Eastbourne, UK: Kingsway, 1991; Wheaton, IL: Crossway Books, 1994; Mumbai, India: GLS, 2003), Chapters 12-13.

7. Cited in Martin E. Marty, "Hell Disappeared, No One Noticed. A Civic Argument," *Harvard Theological Review*, Vol. 78 (3-4) (1985), p. 386.

الفصل الثامن والعشرون: التَّعبُ في إعداد التَّلاميذ

1. Kent Hughes, *The Disciplines of a Godly Man*, Tenth Anniversary Edition, Revised Edition (Wheaton, IL: Crossway Books, 2001), p. 214.
2. Barclay Newman, *New Testament Greek-English Dictionary* (Reading, UK: United Bible Societies).
3. Hughes, *Disciplines of a Godly Man*, p. 197.
4. *George Mueller: Man of Faith*, ed. A. Sims (privately published in Singapore by Warren Myers), p. 52; taken from *An Hour with George Mueller* (Grand Rapids, MI: Zondervan), p. 51.

الفصل التاسع والعشرون: هو يعطي القوّة

1. Robert Murray M'Cheyne, *A Basket of Fragments* (Inverness, Scotland: Christian Focus Publications), p. 6.

الفصل الثلاثون: إحدى مَفارقات الحياة المسيحيَّة

1. Quoted in Eberhard Bethge, *Bonhoeffer: An Illustrated Biography* (London: Found Paperbacks, HarperCollins Publishers, 1979), p. 62.
2. Dietrich Bonhoeffer, *Meditations on the Cross*, ed. Manfred Weber, trans. Douglas W. Stott (Louisville: Westminster John Knox Press, 1998), p. 9.
3. Dietrich Bonhoeffer, *The Cost of Discipleship*, Part, 1 quoted in *Meditations on the Cross*, pp. 11-12.
4. Bonhoeffer, *The Cost of Discipleship*, Part, 1 quoted in *Meditations on the Cross*, p. 12.
5. Bonhoeffer, *Meditations on the Cross*, p. 46.
6. Bethge, *Bonhoeffer: An Illustrated Biography*, p. 80.

٧. المرجع السابق، ص ٨٤.

يُبيِّنُ **أجيث فرناندو** في كتابه هذا أنَّ الدَّعوةَ إلى الألَم هي أيضًا دَعوةٌ إلى الفرح. فهو لا يُنكرُ الألَمَ الذي نختبرُه في معظم أيَّام حياتنا، ولا يُظهرُ الحياةَ المسيحيَّة على نحوٍ كئيبٍ أو بائس، بل إنَّه يُعلنُ بقوَّةٍ أنَّ المشكلةَ لا تكمُنُ في الألَم بحدِّ ذاته، بل هي كامنةٌ في غياب الفرح.

عمدَ الكاتبُ إلى وَضْع مادَّة الكتاب في ٣٠ تأمُّلاً قصيرًا مبيِّنًا فيها أنَّ الألَمَ والفرحَ عُنصران أساسيَّان في الحياة المسيحيَّة، وأنَّ الألَم يُقرِّبُنا من السيِّد المسيح، ويُبيِّن أيضًا دَور الألَم في نموِّ الكنيسة.

أجيث فرناندو هو المُدير المحليُّ لهيئة "شَباب للمسيح" (Youth for Christ) في سريلانكا منذ سنة ١٩٧٦م. وهو يَخدمُ وزوجتُه نيلون بنشاطٍ في إحدى الكنائس التي تَتَرَكَّز خِدمتُها الأساسيَّة على الأحياء الفقيرة. وتَشمل خِدمتُه أيضًا إشرافَه على هيئة العاملين الشَّباب وتقديم المشورة للخُدَّام المسيحيِّين. ألَّفَ أحدَ عشرَ كتابًا تُرجِمَتْ إلى ثلاثَ عشرةَ لُغة.

ومن كتبِه الأخرى في العربيَّة: "**الحياة الروحيَّة في عالَمٍ مادِّي**"، وهو من منشورات أوفير للطباعة والنشر.

ISBN 978-90-5950-123-2